الأمير العائد
من رحلة العبودية

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتاب: الأمير ألعائد من رحلة العبودية
تأليف د. البشير محمد الحري
موضوع الكتاب: رواية أيوبا
عدد الصفحات: 176 صفحة
عدد الملازم: 11 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 × 21
عدد الطبعات: الطبعة الأولىٰ
الترقيم الدولي: 978-9921-815-238

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

الأمير العائد
من رحلة العبودية

«رواية أيوبا»

تأليف

د. البشير محمد الحري

الإهداء

لِكُلِّ مَنْ نَاضَلَ، وَلاَ يَزَالُ كَيْ يَفكَ الْأَغْلاَلَ عَن مِعْصَمِهِ، وَكَاحِلَيه... لِكُلِّ مَن وَقَفَ بِوَجْهِ الجَلاَّدِينَ، والنَّخَّاسِينَ بِجَسَدِهِ الْعَارِي، ورَأْسِهِ الْحَاسِر... لِجَمِيعِ الْأَحْرَارِ الأُبَاةِ... لِجُلِّ الْبَاحِثِينَ عَن الْحُرِّيَّةِ، الوَاقِفِين إِلَى صَفِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمَظْلُومِين... ولِطُهرِ الْأَزْوَاحِ الشُّجَاعَةِ الَّتِي أَبَتْ إِلاَّ أَن تَرفَعَ هَامَاتِها بِوَجْهِ الْعَاصِفَة... لَكُمْ جَمِيعاً أَهَبُ سُطُورَ رِوَايَتِي... وَجَمِيلَ سَبكِي... وَحُسْنَ خِتَامِهَا.

المقدّمة:
27 فبراير 1731

أجواءٌ متقلّبةٌ، ورطوبةٌ عالية... وشيءٌ ما يتلاطمُ في صدرِ «أيوبا»، وهو ينتقلُ بينَ السّفنِ الرّاسيةِ على السّاحلِ الأطلسيّ لدولةِ غامبيا!!... ورغمَ أنَّ الحلمَ الذي راودهُ اللّيلةَ الفائتةَ كانَ دليلَ شؤمٍ، ونذيرَ بؤس، إلاّ أنّهُ مشى بصحبةِ والدهِ فجرَ ذلكَ اليوم ليسلكَ الطّريقَ المحفوفَ بالخطرِ أوّلَ مرّة... الطّريقَ الذي ما كانَ لشخصٍ مثلهُ أن يسلكَه!!... ولكنّهُ لن يعي ذلكَ مع بالغِ الأسف إلّا بعدَ ساعاتٍ قليلة... قليلةٍ جدّاً....

هُناك... أي على سواحلِ غامبيا... وقفَ والدُ أبويا... الملكُ الذي امتهنَ مهنةَ أسرِ الأشخاصِ من القبائلِ المُجاورة، وبيعهم كرقيقٍ للسّفنِ القادمةِ من أوروبا... وقفَ بملامحَ مجعّدة، وأسنانٍ بيضاءَ ناصعة كشفت عنها ابتسامتهُ الصّفراء... صباحَ ذلكَ اليومِ الأصفر!!

– هييي... أنا هُنا... قالَ «ماساي» الرّجلُ المسؤولُ عن سوقِ العبيدِ ذلكَ بينما لوّحَ نحوَ أحدِ الرّجالِ البيضِ الذينَ يتهيّؤون

للمقايضةِ، بينما سيبحرونَ بأسراهم قريباً نحوَ أمريكا الشّماليّة...

– صيدُكَ وفيرٌ ماساي... قالَ الرّجلُ الأبيضُ ذلكَ بينما كانَ يعدّلُ قبّعتهُ الرّماديّة، ويتفحّصُ الرّجالَ المقيّدينَ أمامَ الملك سُليمان رائزاً إيّاهم بعينيهِ الملوّنتين...

– صيدي وفيرٌ، وأسعاري عالية!!... أطلقَ ماساي كلماتهُ على مسمعِ الرّجالِ المقيّدينَ خلفهُ بسلاسلَ حديديّةٍ عصيّةٍ على الكسرِ، والحزّ..

ومعَ قبولِ سُليمان لبضاعةِ الرَّجلِ صاحبِ القبّعةِ ذاك... دُقّت طبولُ الرّحيل... الرّحيلُ الذي سيجعلُ منهُ شخصاً آخر... ليدركَ تماماً أن لابدَّ لصانعِ السّمِّ من تذوّقهِ ذاتَ يوم... وأنَّ دولابَ الزّمنِ، وإن كانَ قد رفعَنا يوماً نحوَ قمّةِ الحياة، فإنّهُ سيرمي بنا ذاتَ يوم تحتَ عجلاتهِ المدبّبة لنختبرَ الألم، ونتجرّعَ مرارةَ الفَقد... فقدٌ لا لقاءَ بَعده!!...

وهذا تماماً ما حصلَ مع سُليمان... عندما صاحَ بملءِ صوتهِ خلفَ السّفنِ المتوجّهةِ نحوَ أمريكا الشّمالية... باسمٍ واحد... حيثُ عادَ الصّدى مع رياحِ فبراير... ولم يَعُد معهُ «أيوبا».

الفصل الأوّل:
- 1 -

على البابِ المستطيلِ للبيتِ البُنّيِّ الذي صُنعَ منَ الطّوبِ، والتُّربةِ المَدكوكة... وقفَ أيوبا بقامتهِ الطّويلة، وعباءتهِ العسليّةِ التي تعلو كاحليه مُتَأمّلاً أطفالهُ الأربعةَ النّائمينَ فجراً...

– أظنُّ أنَّ عبدَ اللهّ سيكونُ نسخةً مصغّرةً عنك!!... قالت أشانتي ذلكَ بينما كانت تُعيدُ تغطيةَ أبنائها ببطانيّةٍ سميكة...

– الصّفاتُ الخارجيّةُ ليست بتلكَ الأهميّةِ يا أشانتي... الجوهرُ هو الأهمّ... قالَ أيوبا ذلكَ بابتسامتهِ الرّقيقةِ، وصوتهِ الهادئِ كعادته... قبلَ أن يستديرَ ليخرجَ من بابِ البيتِ المُستدير، والذي تعلوهُ عناقيدُ القشِّ المتدلّيةِ من سقفهِ كحالِ كلِّ البيوتِ الأفريقيّةِ آنـذاك.... بيوتٌ صغيرةٌ مستديرةٌ تكادُ لا تتجاوزُ الغرفتين... بأسقفَ قليلةِ الارتفاع مع وجودِ أشجارِ «التّبلدي» ذي السّاقِ العريضةِ، والمُرتفعة... والأغصانِ القليلةِ متفرّقةِ الأوراق، وعلى بُعدِ أمتارٍ قليلةٍ من مدخلِ بيتهِ البسيط... وقفَ أيوبا مردّداً اللهُ أكبر، وهو يهمُّ ببدءِ صلاةِ الفجرِ في جوٍّ ضَبابيٍّ مائلٍ للرّطوبة، وبقلبٍ

مُستنيرٍ يحملُ وجهَ اللهّ أينما ذهب...

كانت أشانتي هي الزّوجةُ الأولى لأيوبا... امـرأةٌ طويلةُ القامّة... واسعةُ العينين....سميكةُ الشّعرِ بأنفٍ أفطس، وحاجبين مَرسومين... تلبسُ غالباً ملابسَ فضفاضة، وأوشحةً ملوّنة، ومصاغاً ذهبيّاً، والقلاداتِ المزيّنةِ بالأحجارِ الكريمة... بينما تنجزُ أشغالَ منزلها ثلّةٌ من الخدم، والجواري... كبقيّةِ زوجاتِ أمراءِ القبائلِ الواقعةِ شرقَ السّنغال... فهي على أيّة حال زوجةُ الأميرِ أيوبا بن سليمان جالو... الرّجلُ الثّلاثينيّ الورِع المُلتزم، والذي كانت تتمنّى جميعُ بناتِ جيلِها أن يكونَ لهنَّ رجلاً بمثلِ صفاتِ أيوبا، وبذاتِ مكانته...

ولهذا السّببِ بالضّبط كانت أشانتي تحاولُ جاهدةً إرضاءَ زوجِها، وتقديمِ أفضلِ ما لديها في سبيلِ إسعادهِ، وإدخالِ السّكينةِ إلى قلبه...

ومن هذا المُنطلق كانت تتمنّى لأولادِهـا الثّلاثةِ عبدِ اللهّ، وإبراهيم، وسامبو أن يكونوا نُسخاً عن والدِهم شكلاً، ومضموناً حتّى أنّها كانت تدفعُهم على ارتـداءِ ملابسِهم بـذاتِ طريقةِ والدهم... وذاكَ على الرّغمِ من سنيّهم الصّغيرة، وملامحِهم التي لم تتشكّل بعد... هذهِ التّصرّفاتُ، وغيرُها الكثير ممّا يشبهُها كانت

تُدخلُ السّعادةَ لقلبِ أيوبا الذي كانَ يراقبُ تصرّفاتِ زوجته بحبٍّ، واهتمام... وذلكَ على الرّغمِ من محبّتِهِ لزوجتهِ الجديدةِ «بيجوم» والتي كانت تحبّهُ هي الأخرى، ولكنَّ حبَّ أمِّ البنين سيثبتُ أحقّيتهُ بشكلٍ قاطعٍ فيما بعد...

- في صباحِ بوندو الهادئ ذاك أتمَّ أيوبا صلاتهُ بخشوعٍ، واستسلامٍ للهّ عزَّ، وجلّ... وبحدسِ العارفِ أنَّ القادمَ على بوندو سيكونُ ثقيلاً قد لا تقوى على حمله... هُناك... أسندَ ظهرهُ، وأغمضَ عينيه، وكأنّما كانَ ينصتُ إلى الصّمتِ القابعِ خلفَ جلبةِ الحواس، وضوضاءِها المخاتلِ... تنفّسَ بعمق... أرخى جسدهُ... فسمعَ صوتاً داخليّاً...صوتاً يُنبئ بوجوهٍ غريبةٍ، وولادةٍ جديدة، ومدنٍ بعيدةٍ بعيدة... فارتعشَ فجأة، وقد فتحَ عينيه على وسعِهما رافضاً الإنصاتَ أكثر... ولكنّ الكونَ كانَ لهُ مشيئةٌ أخرى... مشيئةٌ تبعدُ عدّةَ أيّامٍ عن بيتِ أيوبا، وعن وجههِ، ومعصمَي يديه...

- 2 -

– ما خطبك؟؟ أأنتَ نائم؟

سمعَ أيوبا ذلكَ الصّوتَ المألوفَ خلفَ ظهرِهِ، فعادَ من عالمِ الرّؤى إلى عالمِ الحقيقةِ باستعجال...

– ليسَ نوماً يا والدي... إنّهُ اتكاءٌ سريعٌ ليسَ إلّا... قال ذلكَ بينما كانَ يعدّلُ جلستهُ ليرى والدهُ الملكُ سليمان.... رجلَ الحنكةِ، والجاهِ، والسّطوةِ، والمال، وقد جلسَ على مقربةٍ منه...

– حاول أن تستعدَّ بدلاً من الاتّكاء... لا وقتَ للنّومِ الآن...

– يساورونِي القلقُ بشأنِ ذلكَ أتمنّى أن تتفهّمَ ما أقصد... أنا لم أُخلق لمثلِ هكذا أعمال... لستُ قادراً على تخيّلِ نفسي هناكَ حتّى!!

– ألا تثقُ بي!!... إنّهُ عملٌ مزدهرٌ، ولن تتاحَ لنا ذاتُ الفرصةِ كلّ وقت... إن لم نكن نحنُ كانَ غيرُنا!!... الهجومُ بدلاً من الدّفاع... هل نجلسُ في بيوتُنا، وننتظرُ أعداءَنا برأيك؟؟... هذا، واللهّ دربُ التّهلكة!!... يقولُ الملكُ سليمان، وقد بدت عليهِ علاماتُ الامتعاضِ، والانزعاجِ من أيوبا...

– أنا لا أقولُ هذا... ولكن ماذا لو استمرّيتَ أنتَ في هذا العمل بينما انصرفتُ أنا إلى تعليمِ القرآنِ، وعقدِ حلقاتِ الوعظِ، والفقه... فلا يؤثّرُ أحدنا على عملِ الآخر... هذا كلُّ ما أعنيهِ... صدّقني أبي... يقولُ أيوبا بينما ينحني أمامَ والدهِ، وهو ينظرُ نحوَ عينيهِ مباشرةً راجياً أن يتركَ كلامهُ أثراً في نفسِ والده... ولكنَّ وجهَ الأخيرِ لم يكن يوحي بأيِّ تفهُّمٍ، أو قبول... حينَ وقفَ سريعاً، وهو يقول:

هي رحلةٌ واحدة... تذهبُها برفقتي، ثمّ سأتركُ لكَ حرّيّةَ الحكمِ بنفسِك... لن أقبلَ أن أسمعَ منكَ كلاماً غيرَ ذلك...

انطلقَ الملكُ سُليمان نحوَ بيتهِ الفخم القريب بينما تبعتهُ فاطمةُ البنتُ الصُّغرى لأيوبا بذاتِ خطواتهِ المُسرعةِ بينما تسمّرَ أيوبا في مكانهِ، وهو يراقبُ ابتعادهما بينَ الشّجرِ مع مشاعرِ عدمِ الارتياحِ نحوَ التّبعاتِ التي ينبؤهُ قلبهُ أنّها ستحدثُ بعدَ الحديثِ الأخير...

– لا زالَ مُصرّاً أيوبا؟؟... قالت أشانتي، وهي تتّكئُ على بابِ منزلهم بوضعيّةٍ مائلةٍ مُستسلمة..

– لا حولَ، ولا قوّةَ إلّا باللهّ!!... قالَ أيوبا، وهو يهمُّ بالنُّهوض قبلَ أن يُكمل...

... والمشكلةُ أنّهُ لا يقبلُ الحلول... لا يقبلُ إلّا ما يدورُ في رأسه... وهناكَ تكمنُ جميعُ المشاكل... كيفَ لشخصٍ مِثلي أن يذهبَ إلى ذاكَ المكانِ يا أشانتي... كيفَ لي أن أُصافحَ أولئكَ البشرَ بينما يئنُّ خلفي بشرٌ يشبهونني... يحملونَ عيوني في وجوهِهم... يحملونَ صوتي... خشونةَ شعري، ولونَ بشرتي؟؟... أبي يريدُ ليديَّ أن تتلطّخَ كيديه.... وأنا أُجاهدُ كي أبقي عليهما نظيفتين... لقد تعقّدتِ الأمورُ فوقَ رأسي... يتحدّثُ عن دربِ التّهلكة، ثمّ يدفعني بقوّةٍ إليه!!

– ألا تستطيعُ التّملّصَ هذهِ المرّةِ أيضاً؟؟... تقولُ أشانتي بينما تقتربُ مِن أيوبا الذي ينظرُ نحوَ البعيدِ ممسكاً غصناً يابساً بيديهِ، ويقومُ بكسرهِ، وتفتيتهِ إلى قطعٍ صغيرةِ الحَجم..

– لم يعدِ التّملّصُ ممكناً يا أمَّ عبدَ اللهّ... لابدَّ، وأن نُعدَّ العدّةَ مُتكلينَ على الواحدِ الأحد...

هبطَ المساءُ ذاكَ اليومَ فوقَ بوندو بألوانهِ البرتقاليّةِ، ونسمتهِ الباردةِ الثّقيلة... والحيرةُ ترتسمُ على وجهِ أيوبا الجالسِ مع أطفالهِ، وزوجتيه في غرفةٍ قد علّقَ وسطَها مصباحٌ خافتٌ بلسانِ نارٍ برتقاليّ... يحملُ شيئاً من لونِ أفريقيا... تربتَها، ولونَ بيوتِها... لونٌ يحملُ دلالةَ الرّحمةِ، والحبِّ الغامرِ، والسّلامِ بجميعِ مظاهره...

هو لونُ أفريقيا التي تحملُ محبّةً للآخرين... وإن كانَ الآخرونَ لا يبادلونها المشاعرَ ذاتها...

- أخبرتني أشانتي أنّكَ سترافقُ الأبَ سُليمان في رحلتهِ القادمة... هل هذا الخبرُ دقيق؟!... قالت بيجوم الزّوجة الثّانية لأيوبا، وقد قطعَت عليهِ تأمّلاته..

- على ما يبدو هي رحلةٌ لابدَّ منها يا بيجوم... لاشكَّ أنّها إحدى رحلاتُ القَدرِ التي لا يمكنُ الفرارَ منها!!...

- بيجوم: أظنّها رحلةٌ لا ضررَ منها....جميعهم هنا يقومونَ بها!!

- ولكنّها محفوفةٌ بالمخاطر عزيزتي... قالت أشانتي زاجرةً بيجوم رامقةً إيّاها بطرفِ عينها، وكأنّها تومئُ لها بالتّوقّفِ عن الحديثِ في تلكَ القضية...

- إنَّ كثرةَ سلوكِ دربِ الخطأ لا تجعلُ منهُ درباً صحيحاً... أجابها أيوبا بتروّي بينما مدّدَ جسدهُ على فراشهِ، ووضعَ ذراعيه أسفلَ رأسه بعدَ أن أرخى قبّعتهُ المحاكةَ البيضاءَ فوقَ عينيه... ووضعَ سُبحتهُ على صدرهِ أسفلَ عنقه.... كما لو أنّهُ يودُّ الانسحابَ من عبثيّةِ تلكَ الأحاديثِ، ومن فرضِ وجهةِ نظرهِ المختلفةِ عن آراءِ من حولهِ جميعاً باستثناءِ زوجتهِ أشانتي التي لم تستطعِ الوقوفَ

بوجهِ الأبِ سُليمان، والدِ زوجِها كما هو حالُ أيوبا نفسه... ولتلتزمَ الحيادَ الذي ستندمُ عليهِ فيما بعد ندماً لن تستطيعَ كلَّ دموعِ الأرضِ أن تهوّنهُ على نفسِها ككلِّ الأقدارِ التي نندمُ على عدمِ تجنّبها عندما أتاحت لنا الحياةُ إمكانيّةَ ذلك...

- 3 -

كانتِ السّنغال في أواخرِ القرنِ السّابعِ عَشر، وبداياتِ الثّامنِ عَشر دولةً أفريقيّةً كباقي جاراتِها آنذاك... حيثُ كانت تُعاني من الحروبِ النّاشبةِ بينَ القبائلِ، والصّراعاتِ الأهليّةِ فيما بينها... ولذلكَ السّبب نشطَت تجارةُ الرّقيقِ، والعبيد في تلكَ المناطق... التجارةُ التي كانت تعتمدُ على هجومِ قبيلةٍ على أخرى، وأسرِ ما تيسّرَ لها من الشّبابِ، والنّساءِ، واليافعين ليتمَّ بيعهُم فيما بعد على شواطئِ سواحلِ الأطلسيّ للسّفنِ الكبيرةِ القادمةِ من أوروبا، والتي كانت تُدارُ بشكلٍ مُنظّم عبرَ شركاتٍ تمخرُ عبابَ البحارِ، والمُحيطات للوصولِ لذلكَ الغرض... ولهذا... وبمجرّدِ وصولكَ إلى سواحلِ تلكَ الدّول كنتَ سترى سفنَ البُرتغاليّين، والبريطانيّين راسيةً هناك، وقد ألقت شباكَها فوقَ رؤوسِ شعبِ أفريقيا لتنعمَ بالصّيدِ الوفير، والذي سيساعدُها عليهِ أبناءُ أفريقيا أنفسُهم...

– وبقدَرٍ دقيق!!... ولأنَّ المصادفاتِ لا تحدثُ في هذا الكونِ الذي يسيرُ بنظامٍ فائقِ الدّقّة... كانَ والدُ أيوبا سُليمان بن جالو أحدَ أكبرِ تُجّارِ العبيدِ في المنطقةِ آنذاك... وبمجرّدِ أن تقعَ عيناكَ عليه...

تلمحُ بهِ رجلاً شديدَ الشّبهِ من أيوبا إلّا أنّ قامتهُ أقلُّ طولاً، ومعالمهُ أكثرُ حدّةً ناهيكَ عن التّجاعيدِ التي بدأت بحفرِ آثارها على وجههِ، وجبهته... ومع أنّهُ كانَ رجلاً غنيّاً، وتاجراً موفّقاً يحملُ من الدّهاءِ، والحنكةِ الكثير... إلّا أنّ المفارقةَ تكمنُ في كونهِ كانَ حريصاً على تعاليمِ الدّينِ الإسلاميّ، وحفظِ القرآنِ الكريم.... وللأمانة فإنّ ذاكَ من المفارقاتِ العجيبةِ في شخصيّةِ سُليمان التي تحرصُ على بيعِ العبيدِ، وتجارةِ الرّقيقِ من جهة... وعلى تشديدهِ على ابنهِ أيوبا ليجعلَ منهُ شخصاً مُلتزماً بدينِ اللهّ، وكتابهِ المُبين من جهةٍ أخرى... وهذا ما سنلمسهُ عندَ أيوبا الذي حَفظَ القرآنَ كاملاً قبلَ إتمامِ عامهِ الخامسَ عشر فضلاً عن انخراطهِ في علومِ القرآنِ، والفقهِ المالكيّ بسنٍّ مبكّرةٍ جدّاً... كيف لا!! وهو الذي عُرفَ بذكائهِ الحادّ، ومقدراتهِ الفائقة على الحفظِ، والتّعلّمِ، وإدراكِ ما يصعبُ على الآخرينَ إدراكهُ بعمرٍ صغيرةٍ جدّاً..

- ولأنّ أصحابَ الجاهِ، والمالِ، والمكانةِ الاجتماعيّةِ يخشونَ على ممالكِهم من الزّوال... ولأنّ أفريقيا كانت تعيشُ حالةً من الفوضى التي تستدعي أن يكونَ المرءُ ذئباً كي لا تفترسهُ الذّئاب، واستناداً على كلّ تلكَ الأسبابِ، وغيرِها ممّا نجهله... أرادَ سُليمان لابنهِ أن يسلكَ ذاتَ الطّريقِ الذي مهّدهُ أمامه... ويوماً بعدَ يوم راحَ يتردّدُ على أيوبا لإقناعهِ بحتميّةِ المضيِّ على ذاكَ الطّريق... ولكنَّ أيوبا ما كانَ ليتخيّلَ

نفسهُ، وهو يسوقُ أبناءَ جلدتهِ خلفهُ دافعاً بهم نحوَ أيدي التّجارِ التي لا تَرحم، ونحوَ حياةِ الذّلِّ، والهوانِ، والعبوديّة...

– كانَ على درايةٍ تامّة بأنّهُ سوفَ يتحمّلُ وزرَ كلِّ أولئكَ الأشخاص الذينَ سيقيّدُ أقدامَهم، وأيديهم، وأعناقَهم بالحديد... ليقودَهم كما تقادُ البهائمُ إلى سفنِ التُّجّارِ التي سترمي بهم نحوَ أميركا!!...

أميركا التي كانت تشتري أولئكَ بأسعار بخسةٍ لتحولّهم إلى خدمٍ، ورعاةٍ، ومزارعين يعيشونَ الحياةَ المزريةَ، والظّروفَ الصّحيّةَ، والجسديّةَ، والنّفسيّةَ التي لا يمكنُ للبشرِ تحمّلها دونَ رادعٍ من خُلق، أو وازعٍ من ضمير... ولكنَّ الأبَ سليمان كانَ يرى الأمورَ من زاويةٍ أخرى... ففي نظرهِ إن لم نكن نحنُ مَن نسوقُ رقابَ العبيد... سنكونُ نحنُ العبيدُ أنفسُهم ذاتَ يومٍ خلفَ تاجرٍ ما سيسوقُنا، وأبناؤنا، ونساؤنا... فلنتغدّى بهم قبلَ أن يتعشَّوا بنا!!...

وبينَ مدٍّ، وجزر... ومفاوضةٍ، ورفض... لم يستطع أيوبا الهربَ، أو الانفكاك... ولا سيما أنَّ صبرَ سُليمان قد بدأَ ينفَد... وأنّهُ ارتأى أخيراً أن لا حلَّ يلوحُ في الأفق إلّا، وأن يستخدمَ سلطتهُ كأبٍ للضّغطِ على ابنهِ الذي أصبحَ وجهاً لوجه أمامَ الاستجابةِ لصوتِ قلبه، أو نيلِ غضبِ والده!!... وهذا ما جعلهُ يسلكُ الطّريقَ الذي

صرخَ شيءٌ ما بداخلهِ ليتجنّبَ ذاكَ الارتطامِ الجارف، ولكنّهُ تجاهلَ ذاته... ونظراتِ زوجتهِ أشانتي... وصورَ وجوهِ أبنائهِ الأربعة... حينَ انتهى الحديثُ بينهُ، وبينَ والدهِ تحتَ شجرةِ البّاوباب ظهيرةَ يومٍ هائجِ الرّياح، وقد وقفَ سُليمان مبتسماً، منتشياً بانتصاره بعدَ أن قالَ لهُ أيوبا:

أمركَ أبي... سأُرافقكَ هذهِ المرّة.

- 4 -

كانَ المصحفُ المكتوبُ بخطِّ يدِ أيوبا كبيراً نوعاً ما مقارنةً مع كفّي ابنهِ الكبير عبدَ اللهّ... هذا ما لاحظهُ الأبُ عندما دخلَ منزلهُ عشيّةَ ذلكَ اليوم... ولأنّ حزنهُ كانَ كفيلاً بجعلِ خطواتهِ مُتثاقلة، ومشيتهِ بطيئةً هادئة.. فقد صعبَ على عبدِ اللهّ أن يتنبّهَ لدخولِ والدهِ الغرفةَ بينما كانَ يقرأُ القرآنَ بترتيلٍ غايةً في الرّوعة...

– صدقتِ أشانتي... سيغدو عبدُ اللهّ نسخةً عنّي... قالَ أيوبا ذلك فيما كانَ يُمعنُ النّظرَ في تفاصيلِ ابنِهِ الخارجيّةِ، وفي صفاتهِ الدّاخليّةِ التي تبعثُ على الفرحِ، والسّعادة... فهو يافعٌ هادئٌ خلوقٍ ملتزم... يقدّسُ كتابَ اللهّ، ويكنُّ لهُ الكثيرَ من التّقديرِ، والاحترام...

– سيكونُ قدوةً صالحةً لأخوته... أضافَ ذلكَ في نفسهِ قبلَ أن تدخلَ فاطمةُ، وإخوتُها إبراهيم، وسامبو...

– أبي... وعدتَنا أن تروي لنا قصّةَ سيّدنا أيوب اليوم... بدأتَ القصّةَ بالأمس، ولم تكملها!!... أرجوكَ يا أبي... قالت فاطمةُ الطّفلةُ الصّغيرةُ التي تشبهُ معالمَ والدتِها بينما كانت تشدُّ عباءةَ والدِها من الأسفل بكلتَي يديها الصّغيرتين، وقد بدت شديدةَ القِصرِ،

والنّحولِ عندما نظرَ إليها أيوبا من قامتهِ العالية..

– سنرويها بعدَ الغداءِ يا فطمة... قالَ ذلكَ ممازحاً إيّاها، وقد انحنى نحوها، وحملَها نحوَ صدرهِ، وأخذَ يداعبُها، ويقبّلُ وجهَها...

– ما هذا؟؟... قالَ، وهو يمسكُ عقداً من القماشِ الملوّنِ المعلّقِ على صدرِ ابنتهِ الصّغيرة...

– صنعهُ لي إبراهيمُ اليوم... وعدني أن يصنعَ لي كلَّ يومٍ واحداً... قالت ذلكَ فيما أشارت إلى إبراهيمَ المُستندِ على الحائطِ المدوّرِ أسفلَ الرّفِّ الذي يحملُ أوانٍ فُخاريّةٍ، وقد بدا عليهِ الخجلُ، وهو يزمُّ شفتيه، ويرصُّ ذقنهُ نحوَ صدرهِ، وقد أخفى ذراعيهِ خلفهُ دلالةً على الارتباك...

– عليكَ الاعتناءُ بأختكَ دائماً يا إبراهيم... عليكم جميعاً الاعتناءُ بها... هزَّ الأخوةُ الثّلاثةُ رؤوسَهم إيجاباً باحترامٍ وافرٍ لوالدهم... فذاكَ أمرٌ حتميٌّ لا يمكنُ التّزحزحَ عنه، ولا سيما أنَّ أشانتي كانت شديدةَ الصّرامةِ مع أبنائها فيما يخصُّ علاقتَهم بأبيهم التي ترى أنَّ عليهم أن يكونوا أبناءَ مطيعين... تُباهي بهم أمامَ أبيهم، وتجعلُ منهم نُسخاً مطابقةً لهُ، وإن كانت منفصلةً عنه..

– ضعيها هُنا... قالت أشانتي موجّهةً الكلامَ لخادمتها لتضع جرّةَ الماءِ التي أحضرتها... وهي تسيرُ تابعةً خُطا سيّدتها بين أشجارِ

بوندو... قبل أن تضيف السّلامُ عليكم...

– وعليكِ السّلام عزيزتي... قال أيوبا، وهو يضعُ فاطمةَ على الأرض..

– عوفيتَ، وسلمت... قالت بينما كانت تتفحّصُ وجهَ زوجِها بعناية... وافَقت؟!!... أردفت بقلقٍ، ودهشة...

– لا مناص أشانتي... لا خيارَ آخر...

– ستلوّثُ يديكَ رغماً عنك....رفعت صوتَها بامتعاضٍ، وغَضب!!

– هوّني عليك... يعلمُ اللهُ أنَّ بيني، وبينَ ذاكَ العملِ كراهيةٌ لا يصفُها وصفٌ، ولا يحدُّها حدّ... ولكنّها مشيئةُ والدي التي لا أقوى أمامها على الرّفض...

– أشانتي، وقد تملّكها الحزنُ، والغضب: ولكنّني أخشى عليك... الوضعُ لا يطمئِنُ كما ترى... القبائلُ تغيرُ على بعضِها ليلَ نَهار... وأنا لا أقوى على أن أتحمّلَ مسؤوليّةَ نفسي، وأولادي...

– قُل لن يصيبَنا إلّا ما كتبَ اللهُ لنا... تعلمينَ أن لا حيلةَ لِي، ولا قوّة... فلا تثقلي الأمرَ على نفسي، ولا تزيدي عليها العتبَ، واللّوم... لم أرى بيجوم اليوم؟؟ أينَ هي؟؟ يسألُ أيوبا بنيّةِ تغييرِ

دفّةِ الحديثِ نحوَ جهةٍ مُغايرة...

- إبراهيم... خُذ سامبو، واذهبا لمناداةِ زوجةِ أبيكما... تقولُ أشانتي آمرةً أولادها، وملامحُ الغُصّةَ تسيطرُ على صوتِها قبلَ أن تلتفتَ نحوَ زوجِها، وقد انطلقَ صغيريها خلفَ بيجوم لتقول:

لا أريدُ أن أوصيك... اعتني جيداً بنفسكَ

- أيوبا بقهقهة: لا زالَ الوقتُ مبكّراً على ذلكَ أشانتي... لا يزالُ لدينا الكثيرَ من الوقت...

تبتسمُ ابتسامةً صفراويّةً لتـُدخلَ بعضَ الطّمأنينةِ إلى قلبِ زوجها الواقفِ أمامها بينما استعرتِ الحرائقُ في داخلِها، وقد اتقدت النّارُ التي كانت تخشى نشوبها... فهي تعي تماماً أنَّ حدسَ أيوبا لا يخطئ... وأنّ تخوّفاتهُ من ذلكَ الرّحيل لا يمكنُ أن تُبنى على أحاسيسَ واهية... وهذا ما فجّرَ ينابيعَ الدّمعِ من عيونِها... ولم تصحو من حزنها إلّا، وقد سكبَت دونَ قصدٍ منها جرّةَ الماءِ التي ذاقت الأمرّينِ في حملِها... لتلوّثَ بالطّينِ جزءاً لا بأسَ بهِ من أرضيّةِ الغرفة.

- 5 -

مضَت خمسةُ أيَّامٍ على الحديثِ الذي دارَ بينَ أيوبا، ووالده... أيَّامٌ مضَت سريعةً جدّاً على روحِ أشانتي التي لم تستطعِ النّومَ هذهِ اللَّيلةَ أيضاً، ولا سيما أنَّ سفرَ أيوبا سيكونُ عندَ بزوغِ فجرِ هذا اليومِ الذي أوشكَ على الانبلاج...

وعلى الجانبِ الآخر داهمَ أيوبا القلقُ أيضاً فراحَ ينصتُ إلى أصواتِ الحيواناتِ القريبة من بيتهِ، وهو يرتِّبُ حاجيّاتهُ استعداداً للرّحلةِ التي ستدومُ أسبوعين لينتهي بهم المطافُ على سواحلِ غامبيا...

وعلى الرَّغمِ من استيقاظهِ بُعيدَ حُلمٍ مفزعٍ أقضَّ مضجعهُ، وأتعبَ هدأةَ سكينته... إلّا أنّهُ أحسَّ بشعورٍ غريب!!... شعورُ الشّخصِ الذي يعي بإيمانهِ العميق، وباستسلامهِ الكلّيِّ لإرادةِ الخالقِ، واختياراتهِ أنَّ في كلِّ طريقٍ نسلكهُ غايةً ما علينا إدراكَها... ورسالةً إلهيّةً علينا استلامَها... وهُنا بدأَ أيوبا يدركُ أنَّ لحياتهِ وجهاً آخرَ قد يكونُ مُتعباً منهكاً مليئاً بالمخاطرِ، والرّزايا... ولكنّهُ اختبارٌ لروحهِ النّقيّةِ، ولطبعهِ السّامي ولصبرهِ الذي سيضربُ بهِ المثلُ يوماً ما...

وقفَ الأمينُ بواس المترجِمُ الخاصُّ بالأميرِ أيوبا على بُعدِ خطواتٍ قليلةٍ من بابِ منزلِ الأخيرِ مُنتظراً خروجَ صديقهِ القريبَ إلى نفسهِ، وقد حاولَ عدمَ الاقترابِ أكثر كي يسمحَ لأيوبا أن يودِّعَ زوجتيهِ، وأطفالهِ بهدوءٍ، ورويّة...

– اعتني بنفسكِ، وبالأولادِ أشانتي... تستطيعينَ الاعتمادَ على عبدِ الله في غيابي... قالَ ذلك، وهو يضعُ كفّهُ على كتفِ ابنهِ الواقفِ إلى جانبهِ بينما يتحاشى النّظرَ في عيونِ صغارهِ المُتبقّين...

– لا تَشغل بالك بنا أيوبا... سنكونُ بخيرٍ بإذنِ الله... احرص أن تعتنيَ بنفسكَ عزيزي... قالت أشانتي بحزنٍ بينما كانت تحملُ ابنتَها فاطمة، وقد همّت بإنزالها إلى الأرض....

– ستكونُ حاضراً بيننا... ندعو اللهَ أن يرعاكَ بعينهِ التي لا تنام... قالت بيجوم، وقد أخفضت رأسَها أمامَ زوجِها الذي مسحَ على رأسِها بلطفٍ بينما انحنى ليقبّلَ أبناءهُ، قبلَ أن يحملَ فاطمة، ويخرجُ من بابِ المنزلِ لملاقاةِ صديقهِ، ومترجمهِ الأمين بواس...

– أهلاً أهلاً أمير أيوبا... قالَ الأمين بينما كانَ يقتربُ واضعاً كوفيّةً بيضاءَ منقّشةً بنقوشٍ سوداءَ، وقد لفّها كعمامةٍ فوقَ رأسهِ، وهوَ يحملُ حقيبةً قماشيّةً تتدلّى مِن على كتفهِ الأيمن... وقد مدَّ يدهُ لمصافحةِ أيوبا، وقد وصلَ إليه...

– أهلاً بالأمين... أهلاً بصديقِنا الذي ما حوَّلتهُ السّنين...

صدحَ أيوبا بصوتٍ مرتفعٍ، وقد ارتسمَتِ الابتسامةُ على وجههِ بعد أن التقى صديقَ عمرهِ الأمينَ بابتسامةٍ عريضة...

– الملكُ سُليمان، وجميعُ المسافرين بانتظارِنا لا ينبغي لنا أن نتأخّر!!

– إذاً لنلتحقَ بهم على بركةِ الله... قالَ أيوبا بينما قبّلَ ابنتهُ فاطمةَ، وأنزلَها عن ذراعيهِ لتلتحقَ بإخوتِها، وهو يسيرُ جنباً إلى جنبٍ مع صديقهِ بينما حملَ الخدمُ الأمتعةَ خلفهُ، وقد لوّحَ لزوجاتهِ، وبنيهِ بظاهرِ يدهِ دونَ أن يلتفت... وقد بدأت قامتهُ تغيبُ رويداً رويداً عن أعينِ أشانتي، وبيجوم، والأولاد الذين غلبَ على ملامحِهم الحزنُ، ومعالمُ الأسى...

- 6 -

كانَ الحزنُ الذي ارتسمَ على وجوهِ أبناءِ أيوبا نقطةً في بحرِ الأحزانِ التي بدت واضحةً على وجوهِ العبيدِ المقيّدين من أكفِّهم، وأعناقِهم في سلاسلَ عصيّةً على الكسرِ، والانفكاك...

كانَ عددُهم كبيراً نوعاً ما... قاماتُهم طويلة... جباهُهم عريضة... وأجسادُهم عاريةً مكشوفةً إلّا من الوسَط!!... تشعُّ من أعينِهم نظراتُ الألمِ، والكراهيةِ، والغَضب في مشهدٍ كانَ على أيوبا أن يعتادهُ، ويألفه... ولأنَّ للأخيرِ غايةً تسمو كلَّ السُّموِّ فوقَ جميعِ غاياتِ الأشخاصِ المستعدّينَ معهُ لتلكَ الرّحلة... فقد حاولَ التّركيزَ على هدفِهِ الذي أرادَ الوصولَ إليه، وهو شراءُ الورقِ، ومستلزماتُ الكتابةِ كالحبرِ، وغيرهِ من سُفنِ الأوروبيّين المتّخذين من شواطئِ غامبيا موانئَ لهم...

كانَ الملكُ سليمان والدُ أيوبا يرتدي أجمل ثيابه، وأبهظها... فقد اعتادَ في كلِّ رحلاتهِ لبيعِ العبيدِ أن يظهرَ بأفضلِ حلّةٍ، وبأحسنِ حال... حيثُ كانَ يلبسُ سروالاً أبيضَ فضفاضاً... وقميصاً من

الحريرِ قد رُصِّعَ بالمجوهراتِ، والأحجارِ الكريمةِ، والذّهب... تتخلّلهُ أزرارٌ سوداءُ، وبيضاء... وياقةٌ مذهّبةٌ عالية بالإضافةِ الى عمِّةٍ بيضاءَ مطرّزة بخيوطِ الذّهب تعلو رأسهُ، وقد لفَّها حتّى أخذت شكلَ الرّقمِ سبعة من جهةِ جبهته...

– انقضى النّهارُ، ونحنُ نتلكّأ... تحرّكوا بسرعةٍ أكبر... قالَ (ماساي) بصوتهِ الأجشّ بينما أمسكَ الملكُ سليمان لجامَ فرسهِ الصّهباء، وهو يحاولُ كبحَ جماحِها...

– انتهينا، وتمّتِ الأمورُ جميعُها لنبدأَ المسيرةَ سيّدي... قال ماساي المسؤولُ عن تنظيمِ سيرِ الرّحلةِ بينما أشارَ بيدهِ إلى الرّكب كي يبدأَ المسير...

مشت خيلُ أيوبا على يسارِ خيلِ والدهِ بينما كانت خيلُ الأمين تؤخِّرُ مسافةً قصيرةً عن حوافرِ خيلِ صاحبه... أمّا العبيدُ، فقد كانوا يسيرونَ في صفٍّ منتظم، وقد قيّدت أيديهم إلى الخلفِ بوثاقٍ شديدِ الإحكام، ورُبطت أعناقُهم جميعاً بقيودٍ دائريّةٍ وحّدتها سلسلةٌ واحدة...

كانوا حفاةً يسيرونَ بتثاقلٍ على الرّغمِ من سياطِ الجلدِ التي كانت تلسعُ أجسادهُم العاريةَ دونَ أن يشعرَ أيُّ شخصٍ من

الأحرارِ بوطأتِها فيما عدا أيوبا الذي كانَ ينظرُ نحوهم متأمّلاً ملامحَهم البائسةَ، وقد علموا المصيرَ الأسودَ الذي يُساقونَ إليه، ثمَّ ينظرُ إلى والدهِ المزهوِّ بنفسهِ... الفاردِ صدرَه كما لو أنّهُ ديكٌ يستعدُّ لمباراةٍ، أو مُعاركة....

طريقٌ طويلةٌ محفوفةٌ بالمخاطر لا يُستبعَدُ بها أن تُغيرَ قبيلةٌ على أخرى أثناءَ سوقِها للعبيد... لتسوقَ العبيدَ مع أسيادِهم... فيصبحَ العددُ أكثر، واللُّقمةَ أكثرَ إشباعاً، وأبهظَ ثمناً... وبينَ الأشجارِ الكثيفةِ، والباسقةِ المنتشرةِ على الطّريق... طريق الرّحلةِ الطّويل... وعلى أديمِ الأرضِ القاسيةِ الجافّةِ، والسّهولِ المُتلاحقة... مشى ماساي أمامهم حاملاً بندقيتهُ ذي السّبطانةِ الطّويلةِ على كتفهِ بظهرٍ مشدودٍ، وحزامٍ من الرّصاص يقطعُ صدرهُ بشكلٍ مواربٍ بينما ارتدى عباءةً طويلةً مشدودةَ الوسطِ، وقبعةً منقّشةً بالنّقوشِ الصّفراءِ، والبنّيّةِ، وقد مشى الرّحلةَ الأحبَّ إلى قلبه!!... الرّحلةُ التي يمارسُ بها كلَّ أساليبِ القهرِ، والإذلالِ، والتّعذيب... كي يُشبعَ نفسهُ العدائيّةَ التي لن تشبع... وأنانيّتهُ المُغترّةَ التي لن تعرفَ الحبَّ، والتّواضع....

كانَ أيوبا ينعمُ مع والدهِ، وصديقهِ بحياةٍ مختلفةٍ عن حياةِ من

يسوقونَهم... وعلى الرَّغمِ من أنَّ رحلتَهم واحدة إلّا أنّهم كانوا يمشونَها كما يمشي الجميعُ رحلةَ الحياة... فمنّا من هوَ يئنُّ تحتَ نيرِ الظّلمِ، والخوفِ، والألم... ومنّا من يعيشُ حياتهُ طولاً، وعرضاً غيرَ ملتفتٍ لشخوصِ المتألّمين... ولا سامعٍ لأصواتهم التي تئنُّ ليلَ نهار على أعتابِ الاحتضارِ، والأوجاعِ، والألم...

ومع تسارعِ الوقتِ على أيدي الملكِ، والأميرِ المحرّرة... وثقلهِ على أيدي العبيدِ، وأعناقِهم شارفتِ الرّحلةُ على الانتهاءِ، واقتربَ الرّكبُ من سواحلِ غامبيا... ولم يبقَ أمامَ سليمان الكثيرُ من الوقتِ لينظرَ النّظرةَ الأخيرةَ في عيونِ أيوبا الذي رافقهُ مُجبراً ممنّياً نفسهُ بالورقِ، والحبر ليتابعَ دروسهُ، وعلومه التي كانت الأقربَ إلى قلبهِ مِن كلِّ أشغالِ الأرضِ، وأموالها...

بعدَ يومٍ من الوصولِ، وبدءِ المفاوضات:

- سأذهبُ رفقةَ الأمينِ لشراءِ الورقِ ريثما تنتهي من أعمالكَ أبي... قالَ أيوبأ لوالدهِ، وهو يترجّلُ عن فرسهِ، وقد وقفَ الأمينُ بانتظاره...

- ستبتعدُ كثيراً!!... قالَ سليمان، وهو يجلسُ على كرسيّهِ الملكيّ...

– ابتعادٌ لا بدَّ منه... أحتاجُ إلى الورق... ولكنّني لن أغيبَ فترةً طويلة... قال أيوبا بينما غادرَ مجلسَ والدهِ باحترام... وقد سارَ الأمينُ معه... وتبعهُ بعضُ الصّحبةِ، الخدمِ، وهم يحثّونَ خُطاهم نحوَ مُشترياتهم قبلَ أن يتحوّلوا أنفسهم إلى بضائعَ ثمينةً ستباعُ على بعدِ أميالٍ بعيدة!!... وتحديداً على شواطئِ أميركا النّهمةِ للرّقيقِ، والعبيد...

أمامَ السُّفنِ التي لم تأتي سواحلَ غامبيا لبيعِ الورقِ، والحبر... وقفَ أيوبا، ومرافقوهُ بعدَ أيّامٍ من السّيرِ نحوَ تلكَ السُّفن... تحدّثَ الأمينُ الذي كانَ بارعاً في التّرجمةِ ممّا سهّلَ المهمّةَ على الطّرفين... فراحَ يترجمُ حديثَ أيوبا للأوروبيّين المختلفين بملابسِهم، وبلاجةِ وجوهِهم، وأساليبِ عيشِهم، ويفسّرُ لهم ما يرغبُ أيوبا في شرائهِ....

كانت تلكَ هي الأيّامُ الأخيرةُ قبلَ وقوعِ الكارثة... كارثةُ سيدفعُ سُليمان الغالي، والنّفيس للخلاصِ من تبعاتِها... ولكنَّ كلَّ أموالهِ التي جمعَها من رؤوسِ العبيدِ، وآلامِهم لن تحولَ بينهُ، وبينَ إرادةِ الله التي شاءت أن ينحرفَ مسارُ الأحداثِ إلى عالمٍ آخر... حيثُ سيعضُّ سليمان أكواعهُ ندماً لاقتيادهِ ابنهِ الذي أتى أميراً يجرُّ خلفهُ العبيد دونَ أن يعي أنّهُ كانَ يسوقهُ معهم نحوَ قدرٍ أسودٍ

سيذيقهُ كأسَ النّدمِ الذي سيذرفُها مالحةً من دموعِ عينيه... فعلى بُعدِ مسافةِ أيّام من وقوفِ أيوبا لشراءِ الورق كانَ لقبيلةِ الماندينج رأياً آخر... رأياً سيشعلُ حرائقَ الثّاراتِ بينَ القبائلِ، وسيقلبُ حياة أيوبا رأساً على عقب... ليتحوَّلَ السّيّدّ مع الأسفِ الشّديدِ إلى خادم... والأميرُ إلى عبد...

الفصلُ الثّاني... على السّفينة:

- 1 -

كانَ أيوبا يمشي في طريقِ العودةِ مع صديقهِ، وبعضِ الصّحبةِ، والخَدم، وقد اشترى مستلزماتِ الكتابةِ التي كانت الدّافعَ الرّئيسيّ لسيرهِ مع ركبِ تلكَ الرّحلة...

أجواءٌ هادئةٌ... نباتاتٌ خضراءُ فاقعة... وأشجارٌ متشابكةٌ، وباسقة... ولا شيءَ يَشي بأنَّ هُناكَ من يتربّصُ بالأميرِ، وصحبهِ لولا أن انطلقتِ الرّصاصةُ الأولى من بنادقِ المُغيرينَ عليهم... رصاصةٌ واحدةٌ كانت كفيلةً بإحداثِ جلبةٍ تبعَها وابلٌ من الرّصاصِ فوقَ رؤوسِ العائدين... هلعٌ، وذعرٌ... وجريٌ، وهروب... محاولاتُ اختباءٍ فاشلةٍ قبلَ أن يصبحَ أيوبا أسيراً مع مجموعتهِ، وقد أغارت عليهم مجموعةٌ من قبائلِ الماندينج التي لم تشفع عندَها إمارةُ أيوبا... ولا سلطةُ والدهِ الملكِ سليمان بل رأت في ذلكَ وسيلةً لبيعهِ بسعرٍ غالٍ جدّاً... سعرٌ يليقُ بأميرٍ، وحرٍّ، وابنِ ملك...

الصّدمةُ الأولى... هي التي تولدُ بينَ الصّرخةِ، والدّهشةِ،

وفغرِ الأفواه... شعرةٌ قُطعَت تحت قدمَي أيوبا لينتقلَ ممّا قبل إلى ما بعد... من الحريّةِ إلى العبوديّة... من المعصمين المحرّرين إلى المقيّدين... هناك... وقفَ أيوبا مع أفرادِ مجموعتهِ، وقد أبقوا ثيابهَ عليه، ونزعوها عن غيرهِ ليتسنّى لهم بيعهُ بثمنٍ باهظ... فهو أميرٌ منحدرٌ من سلالةِ الملوك... وعلى ذلكَ سيقَ الجميعُ، وقد رُبطت أيديهم بإحكام، وجرّت أعناقهم بسلسلةٍ واحدةٍ بصفٍّ مُنتظمٍ خلفَ بعضهم البعض... وقد مشى جلّادٌ أمامهم... وجلّادٌ إلى جانبهم يحثّهم بالسّياطِ على تسريعِ الخُطى، والإسراعِ في المشيِّ نحو وجهتِهم التي كانوا يرتعدونَ خوفاً من الوصولِ إليها...

ولأنّ أيوبا مختلفٌ عن البقيّةِ كانَ لابدَّ، وأن يسيرَ أمامهم جميعاً بعد أن فشلت كلُّ محاولاتِ إقناعهِ لأفرادِ العصابةِ بإخلاءِ سبيلهِ نظراً لوضعهِ، ومكانةِ والده...

لقد صمَّ القدرُ آذانهم عن سماعِ حججهِ، وبراهينهِ، وتوسّلاته... وكأنّما كانَ على أيوبا أن يختبرَ تلكَ المحنةَ، وأن يكونَ جزءاً لا يتجزّأ من هويّةِ تلكَ المرحلةِ التي عايشَها الأفريقيون بمرارتها، وقسوتها، وظلاميّةِ أحداثها... تلكَ الأحداثُ الدّاميةُ التي يندى لها جبينُ البشريّةِ، وينكسفُ نورُ شمسِها المُشرق.

كانَ التّاجرُ الذي ساقَ أيوبا، وجماعتهِ طويلَ القامةِ... ضخمَ الملامحِ يرتدي قبّعةً تنبعثُ منها خيوطٌ غزيرةٌ حولَ رأسهِ، وجبهته... وقد دقَّ عدداً من الخواتمِ في صدرهِ، وأنفه... وراحَ يشرحُ بعدَ وصولهِ مع من أسرهُم للرّجلِ الإنجليزيّ الأبيض كيفَ أنَّ سعرَ جميعِ العبيد بكفّة... بينما سعرُ أيوبا بكفّةٍ ثانية...

وبينما كانَ العبيدُ يصطفّونَ في طابورٍ طويلٍ، وينقسمونَ بينَ أيوبا وجماعته... وبينَ أسرى آخرين اصطادهم التّاجرُ « كوامي» قبلَ أن يأسرَ أيوبا... وقد تخلّلهم الأطفالُ، والنّساء... اقتربَ « أبانو» من أيوبا الذي كانَ يتصدّرُ الطّابورَ، ثمّ نزعَ عمّتهُ عن رأسهِ، ورماها أرضاً قبلَ أن يمزّقَ قميصهُ بقوّةٍ حتّى تناثرت أزرارهُ الذّهبيّةُ بسرعةٍ قربَ قدمَي أبانو الذي كانَ مسؤولاً عن فحصِ العبيدِ قبيلَ شرائِهم... ثمّ وبحركةٍ سريعةٍ ربتَ على كتفِ أيوبا، ونظرةُ الظّفرِ بعينيه، وقد استدارَ نحوَ كابتن السّفينة «هنري هانت» ليخبرهُ أنّهُ صيدٌ حقيقيٌّ، ومكسبٌ غالي الثّمن قبلَ أن يتحوّلَ عنهُ لفحصِ بقيّةِ العبيدِ فحصاً أكثرَ دقّة... كبنيةِ أجسادهم، وخلوّهم من العاهاتِ، والأمراضِ، والمشاكل... ذلك الفحصُ الذي لم يتلقّاهُ أيوبا كونهُ كانَ أميراً يتمتّعُ بالصّحّةِ الجيّدةِ، والبنيةِ القويّةِ، والغذاءِ السّليم...

مرّت تلكَ اللّيلةُ على أيوبا شديدةَ الوطأةِ، والقسوة... راحَ يفكّرُ في مصيرِهِ الذي سيلقاهُ خلفَ البحرِ الكبير... فكّرَ في ابنتِهِ فاطمة، وفي أولادِهِ، وزوجتيه... حاولَ أن يتخيّلَ ردّةَ فعلِ والدِهِ عندما علمَ عن مصيرِ ابنِهِ... تذكّرَ خوفَ أشانتي، ووجهَ بيجوم... كانَ حزيناً جدّاً، ولكنّهُ ظلَّ متمسّكاً بأملِ أن يستطيعَ والدهُ افتداءهُ بما هو غالٍ، ونفيس قبلَ أن تبحرَ بِهِ السّفينةُ نحو أميركا... أرضِ الشّقاءِ، والإنهاكِ، والموتِ للأفارقة...

– هييي... ليستيقظِ الجميع... قالَ أبانو بينما لوّحَ بصوتِهِ، ورمى بِهِ على أجسادِ الأسرى العارية بما فيها جسدِ أيوبا الذي أحسَّ بلسعةِ الألمِ على جلدِهِ الذي لم يعتد على الضّربِ، والألم!!

كانَ النّقاشُ حامياً على أشدّهِ بينَ التّاجرِ كوامي، و»الكابتن بايك»... التّاجرُ التّابعُ لشركةِ «رويال أفريكان» حولَ أسعارِ العبيدِ، وكيّفيّةِ احتسابِ البضائعِ التي سَتقايَضُ بهم... أقمشةٌ...حريرٌ... بنادقٌ، وأسلحةٌ، ومخازنُ رصاص... حبوبُ كاكاو... وتوابلُ، وبهارات... وأوانٍ، وألبسة... وكلُّ وسائلِ القتالِ، والحروب التي تضمنُ لذوي البشرةِ البيضاء استمراريّةَ الحروبِ، والتّصارعِ بينَ أبناءِ القبائلِ ممّا يضمنُ هيمنتهَم، ودوامَ تجارتِهم...

ومع انتهاءِ الحوارِ الصاخبِ بينهم بدأَ على ما يبدو مسلسلُ التّعذيبِ فوقَ رؤوسِ العبيدِ الذينَ لم يستطيعوا فهمَ سرِّ هذهِ المعاملةِ العدوانيّة لهم بعدَ إتمامِ الاتفاقِ، ونجاحِ عمليّةِ المُقايضة...

جلسَ أيوبا جاثياً على ركبتيه، وقد بدأَ أحدُ الرّجالِ بحلاقةِ لحيتهِ، وشعرِ رأسهِ، وهو يقلّبُ وجههُ بسرعةٍ، وعنفٍ بينَ يديه قبلَ أن يشوي جلدَ كتفهِ بحلقةٍ من الحديدِ الحارِّ الحارق... ليتركَ وسماً موحّداً على جسد أيوبا، وأجسادِ العبيدِ الباقين... والذي حملَ إشارةَ AZ نسبةً إلى سفينةِ أزبيال التي سيبحرونَ عليها...

أيوبا الذي كانَ غيرَ قادرٍ على تحمّلِ كلِّ ذلك الألمِ، والعنفِ، والتّعذيبُ، والإذلال... راحَ يئنُّ لقسوةِ الألمِ بينما تركهُ الرّجلُ على ركبتيهِ، وانتقلَ إلى مَن يليهِ على وجهِ السّرعة ليستطيعَ حلقَ شعرِ الطّابورِ، ووسمهِ إيذاناً بانتهاءِ عمليّةِ البيعِ لنقلهم إلى السّفينةِ التي ترسو على شواطئِ غامبيا في أسواق «تانكرول» ليبحرَ الجميعُ نحوَ الأرضِ الجديدةِ التي ستحلقُ أحلامهم، وصحّةَ أجسادهم... تماماً كما حلقَ الرّجلُ شعرَ رؤوسِهم، وشعرَ أجسادهم...

كانت السّفينةُ الكبيرةُ الرّاسيةً على سواحلِ غامبيا...والتي يترأّسُها الكابتن هنري هانت بعيدةً نوعاً ما عن مكانِ المُقايضةِ

بينَ التّجارِ السّود، والرّجالِ البيض... وكذلكَ بينَ بياضِ أيّامِ الحياةِ، أو سوادِ لياليها... يُظلمُ الكثيرُ من البشرِ، وتُقامُ البازاراتُ فوقَ رؤوسِهم، وعلى بقايا أحلامِهم... وها قد تحوّلت بشرةُ العبيدِ السّودِ أصلاً إلى بشرةٍ أكثرَ قتامةٍ، وأشدَّ سواداً... بينما كانوا يتجرّعونَ آلامهم، وهم يمشونَ حفاةً... عراةً... مقيّدين... ليصلوا إلى السّفينةِ الكبيرةِ التي تبعدُ عنهم مسافةَ سيرِ ليومٍ كاملٍ بينما لم تهدأِ السّياطُ التي تجلد وجوههُم، وأجسادَهم...

- 2 -

أمامَ السّفينةِ الضّخمةِ، والتي لم يسبق للعبيدِ رؤيتُها فيما عدا أيوبا، وأصحابهُ الذين تنقّلوا بينَ السّفنِ أثناءَ شرائِهم للورق... وقفَ الجمعُ مشدوهاً خائفاً... وقد وصلَ الأمرُ إلى الوجهةِ الأخيرةِ قبلَ وداعِ أفريقيا الأخير... بأشجارِها... ونباتاتِها... وتربتِها... ووجوهِ أبنائها الطّيّبين المسالمين، والّذينَ كتبَ لهم القدرُ حكايةً مأساويّةً بين صفحاتهِ، وفوقَ كرّاسهِ المرير...

- اصعدوا واحداً واحـداً... إيّاكم، والمقاومة!!.... هيي أنت... لا تكرّر تلكَ النّظرةَ، ولا اقتلعتُ عينيك... قالَ أحدُ المسؤولين المقرّبينَ من الكابتن هنري هانت ذلك بصوتٍ مُرتفعٍ قبلَ أن يوجّهَ كلامهُ لأحدِ العبيدِ الذي بدا عليهِ شعورُ الاستياءِ، والرّفض... وقد بدا العبيدُ بالصّعودِ إلى متنِ السّفينةِ واحداً واحداً ليُعادَ فحصُهم... ولتتّخذَ التّدابيرُ، والإجراءاتُ الوقائيّةُ اللّازمةُ لهم قبلَ بدءِ الرّحلةِ، وإبحارِ السّفينةِ التي كانَ حالُها كحالِ جميعِ السّفنِ التي تبحرُ بالعبيد... تسيرُ بتثاقلٍ، وقد ضعفتَ حمولتُها كي يكونَ الرّبحُ أكبرَ بالنّسبةِ للشّركاتِ التّجاريّةِ التي اعتمدت تلكَ المهنةَ لما

ينيفُ عن أربعةِ قرون...

كانَ عددُ العبيدِ على السّفينةِ يفوقُ ال 250 عبداً تمَّ تقسيمُـهم إلى مجموعاتٍ غُسلت عبرَ سكبِ دلاءِ ماءٍ عليها من ماءِ البحرِ المالح أوّلاً قبلَ أن يتمَّ فركُ الجميعِ بالخلِّ واللّيمون... وكلّ ما من شأنهّ أن يطهّرَ أصحابَ البشرةِ الزّنجيّةِ لتجنّبِ الأمراضِ، والوفيّاتِ قدرَ المُستطاع في رحلةٍ ستدومُ لأكثر من شهرين في عرضِ البحر... وفي ظلِّ نقصِ الغذاءِ، والضّوءِ، والأدوية... فضلاً عن انتشارِ الحزنِ، وانعدامِ السّعادة... ولربّما كانَ ذاكَ هو العرضُ الصّريحُ للاكتئابِ قبلَ أن يصبحَ بتسميتهِ، ومعناهُ الرّائج في زمنِنا الحاضر... اكتئابٌ مبرّرٌ لبشرٍ صودرت حريتهم، وأجسادُهم، وتفاصيلُ حياتهم... وسَلب منهم بشرٌ مثلهم أغلى ما يمكنُ لبشريٍّ أن يتصوّرهُ في حقبةٍ لم يكن فجرُ الإنسانيّةِ قد بزغَ فيها... ولم يكن تمثالُ الحريّةِ قد رفعَ يدهُ في أميركا ليحمي خلفهُ أبناءَ أفريقيا الوادعين... ذوي الحبِّ، والسّلام... ذوي البشرةِ السّوداء... رمزُ الشّؤمِ، والبؤسِ، والعبوديّة....

- 3 -

على ظهرِ السّفينةِ الواسعةِ المخيفة... حاولَ أيوبا جاهداً تاخيرَ انطلاقِ السّفينةُ بانتظارِ عودةِ الرّجلِ الذي حملَ رسالةً إلى صديقِ والدهِ قُربَ غامبيا يطلبُ منهُ افتداءهُ، وتخليصهُ من عالمِ الرّقِّ، ونيرِ العبوديّة... ولكنَّ الرّسولَ لم يوفّق في مسعاه... فالرّحلةُ نحوَ وجهتهِ تستغرقُ أسبوعين بينما لم يتبقَّ على الإبحارِ سوى أسبوعٍ واحدٍ فقط... ليأمرَ القبطانُ هنري هانت طاقمهُ بفردِ الأشرعة... ولتسيرَ السّفينةُ أزبيال حاملةً أيوبا على ظهرِها بينما عيناهُ قد تعلّقتا بالسّقفِ الخشبيِّ للغرفةِ الصغيرةِ المُظلمة... وقد اصطفَّ العبيدُ المقيّدونَ مثلهُ بينما تعلو صدورُهم لطرقاتِ الخوفِ، والفزعِ من مصيرٍ مجهولٍ لا يدركونَ كيفَ سيتعاملونَ مع مستجدّاته...

في اللّيلة الأولى كانَ الأمرُ أقربَ إلى هذيانٍ جماعيّ... حلمٍ مرعبٍ، وكابوسٍ لا يرغبُ أيٌّ من الزّنوجِ في إكماله...

وعلى شاكلةِ حجرةِ أيوبا فقد تعالى الأنينُ الممتزجُ بالبكاءِ الخافتِ في غالبيّةِ الحُجرِ المعدّةِ بعنايةٍ لتلائمَ العددَ الكبيرَ من العبيدِ الذين يتكدّسونَ في ظروفٍ أبعدَ ما تكون عن الظّروفِ الصحيّةِ،

والسّليمةِ، والآمنة...

أشخاصٌ من قبائلٍ بعيدةٍ، وقريبةٍ حكمت عليهم الإرادةُ الظّالمةُ للشّعبِ الأبيض بأن يصبحوا سلعاً، وبضائعَ تـُباعُ، وتُشرى دونَ الالتفاتِ لطبيعتِهم البشريّةِ، أو لأمراضهم، وآلامهم... ولربّما كانَ من المنصفِ أن يكونَ أيوبا ابنُ الملكِ سُليمان فرداً من أفرادِ العبيدِ هذهِ المرّة... فمَن اختبرَ الشّيء ليسَ كمَن نظرَ إليهِ من بعيد... ومن عانى من ألمِ الحريق لا يقارنُ بمَن شعرَ بحرارتهِ على بعدِ مئاتِ الأمتار... ولذلكَ كانَ لابدَّ من اختبارِ أيوبا لذاكَ الألم... ومن مرورهِ بتلكَ التّجربةِ ليكونَ أهلاً فيما بعد للحديثِ عن تجربةِ العبيدِ المرّة... فيرسلُ بذلكَ صوتهُم إلى أروقةِ المجتمعِ الرّاقي، ومتاحفهِ، وجامعاته...

أبحرت سفينةُ أزبيال الغيرِ مدركةٍ أنّها تحملُ لأوّلِ مرّةٍ شخصاً استثنائيّاً... شخصٌ سيستطيعُ أن يغيّرَ نظرةَ الكثيرين عن العبوديّةِ عامّةً، وعن الشّعبِ الإفريقيّ خاصّة...

فراحت تمخرُ عبابَ الأمواجِ المتلاطمةِ تبعاً لعواصفِ شهرِ فبراير... وأجسادُ العبيدِ تحملُ مسمى» Az» نسبةً لاسمِ هذهِ السفينة... ومع مرورِ الأيّامِ تناسى هنري.هانت، وطاقمهُ حقيقةَ أنّهُ قد يكونُ أيوبا أميراً حقيقيّاً، ومن سلالةِ الملوكِ، فراحوا يعاملونهُ كمعاملةِ سائرِ العبيد... تعذيبٌ، وتقييدٌ، وإذلالٌ، وإهانات، وجلدٌ

بالسّياط....هذا فيما عدا كميّةَ الطّعامِ القليلةِ جدّاً، والتي لا تقدّمُ للعبدِ إلّا ليسدَّ بها حاجتهُ، وليحفظَ بها رمقه...

هناك... كانوا عبيداً عراةً بأجسادٍ نحيلةٍ مُتهالكةٍ لا تقوى على القيامِ بأيِّ عملٍ سوى النّظرِ في وجوهِ بعضِها بعيونٍ ملأتها الحسرةُ، والنّدمُ، والحيرة...

استمرَّ ذلكَ الحالُ فترةً طويلةً قاربتِ الشّهرَ، وأكثر... ولكنَّ العبيدَ المقيّدينَ في حُجرِهم عديمةِ الضّوءِ، والتّهويةِ لم يكونوا قادرينَ على تحديدِ كم مرَّ بهم من الزّمنِ على متنِ أزبيال... ولكنّهم كانوا يعلمونَ أنَّ الموتَ بدأَ يدبُّ في أفرادهم كلَّ يوم، ولكن لا علمَ لهم بمصيرِ الجثث... الجثثُ التي كانت تُرمى مقيّدةً نحوَ أعماقِ البحرِ ليلاً مع حرصٍ كبيرٍ بعدمِ إثارة جلبة... ومع تطهيرِ المكانِ بُعيدَ كلِّ موت... فالبيضُ، ومع امتلاكِهم للسّلاحِ، والرّصاص... كانوا يخافونَ أولئكَ السّود ذوي الأجسادِ الضّخمةِ، والصّدورِ العارية... يخشونَ أن ينقلبَ السّحرُ على رؤوسِهم، وأن يدبَّ التّمرّدُ في حُجُرِ السّفينةِ الضّخمةِ، فيسيطرَ العبيدُ عليهم، ويذيقونَهم الألمَ الذي ذاقوهُ على أيديهم أضعافاً...

كان أيوبا، وأفرادُ مجموعتهِ المتواجدونَ في غرفةٍ واحدةٍ... يخرجونَ إلى ظهرِ السّفينةِ، وفقَ نظامِ مناوباتٍ فرضتها إدارةُ السّفينةِ

على جميعِ الغُرف... يخرجونَ للجلوسِ تحتَ ضوءِ الشّمسِ خشيةَ انتشارِ الأمراضِ، والطّفيليّاتِ بينهم...

وهناكَ كانَ أيوبا يصلّي للهّ عزّ، وجلّ بقلبهِ، وعينيه... ويقرأُ القرآنَ بتمتماتٍ مُبهمةٍ بعدَ أن مزّقت السياطُ جسدهُ، وقد رفعَ صوتهُ ذاتَ مرّة...

كانَ.الكابتن هنري يرتدي ملابسَ ارستقراطيّةً ملوّنة... ملامحهُ شقراء، وعيناهُ ملوّنتانِ بلونٍ عسليٍّ قريبٍ إلى الأخضر... شعرهُ يصلُ إلى كتفيه بينما يرتدي قبّعاتٍ ضخمة تناسبُ لونَ ملابسه، وقد علّقَ مسدّسهُ على خصرِه بحزامِ جلدٍ عسليٍّ مخصّصٍ لذلك...

كانت عيناهُ تشبهانِ إلى حدٍّ كبيرٍ عيونَ ابنِ آوى في نظرتيهما... شخصٌ فيهِ من القسوةٌ ما يكفي لرميِ العبيدِ بأكملهم إلى البحرِ لو شعرَ بأنَّ الحمولةَ ستشكّلُ خطراً على سفينتهِ تلك...

يمشي متبختراً مغترّاً بقوتهِ بينَ أجسادِ العبيدِ الذينَ يسمحُ لهم بينَ الفترةِ، والأخرى بالحديثِ، والغناءِ، وتأديةِ الحركاتِ التي كانت تسعدُهم في أدغالِ بلدِهم الأمّ أفريقيا لكنّهُ لا يتوانى عن الأمرِ بتعذيبِ أولئكَ الذينَ يلمحُ في أعينهم نظرةَ، حقدٍ، أو تمرّدٍ، أو كراهية رغبةً منهُ في كسرِ شوكتِهم، وسدِّ أيِّ طريقٍ أمامَ البقيّةِ عن مجرّدِ التّفكيرِ بما فكّرَ بهِ غيرُهم...

– أنا خائف... قالَ الرّجلُ القريبُ من أيوبا بينما كانوا جميعُهم ممدّدين، والقيودُ تثقلُ أرجلهم، وأيديهم، وأعناقهم... ألستَ خائفاً مثلي؟؟. سأل أيوبا بهمس

– بل خائفٌ مثلك... فالمجهولُ مخيفٌ جدّاً يا أخي... ونحنُ نبحرُ الآنَ باتجاهه...

– يقولُ لي « أجا» أنّهم سوفَ يقدّموننا قرابين لآلهتهم البيضاءَ هـُناكَ بعدَ البحرِ مباشرةً!!

– تكثرُ الأقاويلُ، ولكن ما من أحدٍ منّا يعرفُ النّهايةَ الحقيقيّةَ لنا جميعاً... فقط لنتمسّك بحبلِ اللهّ عزّ، وجلّ... لم يفهمِ الرّجلُ كلماتِ أيوبا الأخيرة، ولكنّ ما عرفهُ أنّ الجميعَ هنا يسيرون إلى قدرٍ مُبهمٍ سيكونُ لا محالة أكثرَ قسوةً ممّا يعيشونهُ الآن على متنِ سفينةِ أزبيال...

مرّت اللّيالي على أيوبا، وقد تغيّرت ملامحهُ بشكلٍ كاملٍ حتّى أنّهُ أضحى يشكُّ هو ذاتهُ بأنّهُ أمير، ووالدهُ ملك!!... فجسمهُ نحيلٌ جدّاً، وأضلاعهُ بارزةُ كبقيّةِ عظامهِ، وكمل قضايره التي يقطنُ بها في تلكَ الغرفةِ النّتنةِ، وغيرها الكثيرُ من الأسباب... غرزتِ الشّكِ في قلبهِ أنَّ ما عاشهُ طِوالَ ثلاثينَ عاماً ما هو إلّا حلمٌ جميلٌ، وانتهى... وأنّهُ عادَ الآن إلى واقعهِ العبوديّ ليكملَ بهِ ما تبقّى لهُ من سنواتٍ هُناك...

كانَ يصفنُ حيناً، ويتحدّثُ مع غيرِهِ من الرّجالِ حينَ أخذَ يتحدّثُ عن اللهّ عزّ، وجلّ... وعن الصّلاة، والقرآنِ، والمحبّة... عن ابنتِهِ فاطمة، وأَولادِهِ الذّكورِ... عن صباحاتِ بوندو، ومساءاتِها... عن القضاءِ، والقدرِ، والإرادةِ الإلهيّةِ التي تكمنُ خلفَ كلّ أحداثِ الحياة... جيّدها، ورديئها... عن التّسليمِ المُطلقِ للهّ عزّ، وجلّ، والرّضا التّام بما كتبهُ لنا، وما قدّرهُ علينا...

كانَ أيوبا يتكلّمُ بينما ينصتُ لهُ الرّفاقُ من العبيدِ، وهم يرونَ بحديثِهِ طاقةَ نورٍ، وباباً للشّمسِ تبعثُ أشعّتها نحوَ أرواحِهم الضّعيفةِ الواهنة... يشعرونَ بالأمنِ، والسّكينة، وبأنّ بصيصَ أملٍ يدخلُ أعماقهُم المحترقةَ ليُشعلَ جذوةَ النّورِ في أعماقِ النّفسِ الإنسانيّة التي اختبرَت الألمَ الخارجيّ...

أيّامٌ متلاحقةٌ، وسفينةٌ مسرعةٌ بأشرعتِها، وحبالِها السّميكة... وأيوبا يعلمُ أنّ صديقهُ الأمين بواس يبحرُ معهُ على ذاتِ السّفينة... ولكنّهُ مع جماعةٍ أخرى قد تكونُ بعيدةً جدّاً عن غرفتِهِ الخشبيّةِ التي قضى فيها ما زادَ عن الشّهرين حتّى بدأتِ اليابسةُ أخيراً تلوحُ للسّفينةِ الممتلئةِ بالسّواد... معلنةً ترحيبَها بالبضائعِ الجديدةِ، وفتحِ ذراعيها الماكرتينِ للعبيد الذين شعروا بوصولهم أخيراً إلى الوجهةِ التي كانوا يخشونَ الوصولَ إليها، وها هم الآنَ بجلودهم الملتصقةِ بعظامِهم، ووجوهِهم النّحيفةِ المريضةِ عديمةِ الابتسام، وبقلوبهم

الخافقةِ، وظهورهم الملطّخةِ بآثارِ السّياط... ها هم ينزلونَ عن متنِ السّفينةِ واحداً بعدَ آخر... فيما يحتفلُ القبطانُ، وطاقمهُ بمقدرتِهم على إيصالِ السّفينةِ أخيراً، وذلكَ على الرّغمِ من البردِ، والجوعِ، والمرضِ، والأمواجِ الفبراريّةِ العاتية... بينما نزلَ أيوبا عن الدّرجِ الخشبيّ لتلتقي أرجلهُ للمرّةِ الأولى أرضَ أميركا، وليتيقّنَ أنّهُ لن يرى والده سليمان بعدَ ذلك... لن يراهُ أبداً... وقد مشى أمامَ غروب الشّمسِ مغادراً الشّاطئَ الرّمليَّ السّاخن عندما عاجلهُ رجلُ الأبيضُ بسوطٍ سريعٍ على ظهرهِ نبّههُ بهِ من غفلتهِ، وأيقظهُ من حلم العودةِ إلى أفريقيا.

اَلْفَصْلُ اَلثَّالِث:
اَلْوُصُولُ إِلَى أَمِيرِكَا
- 1 -

مِيرْيَالاند... يَا بِدَايَةَ اَلْحُزْنِ، وَالْأَلَمِ... يَا أَوَّل اَلْخُطُوَاتِ فِي عَالَمِ اَلْجَحِيمِ.. يَا وِلَايَة اَلْجُرُوحِ، وَالْعُبُودِيَّة.... هُنَاك... مشى أَيُوبَا خَطَوَاتُهُ اَلْأُولَى مَعَ بَاقِي اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ لَمْ يَخْطِفْهُمْ اَلْمَوْتُ مِنْ عَلَى ظَهْرِ اَلسَّفِينَة...

وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى مِنْ اَلنَّاجِينَ اَلَّذِينَ كَانُوا يَعْتَبِرُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي عِدَادِ اَلْأَمْوَات...

وتَحتَ شَمْسِ مَدِينَةِ أَنَابُولِيسْ فِي وِلَايَةِ مِيريالَاند اَلْأَمْرِيكِيَّة، وَاَلَّتِي لَمْ تَكُنْ مُخْتَلِفَةً عَنْ شَمْسِ أَفْرِيقْيَا فِي قَسْوَتِهَا، وَشَدَّةِ حَرَارَتِهَا... عَرَفُوا أَنَّهُمْ فِي بِلَادٍ تُشْبِهُ طَبِيعَةَ بِلَادِهِمْ مِنْ حَيْث اَلْحَرَارَةِ، وَالرُّطُوبَة... وَلَكِنَّهَا لَمْ تُشْبِهْهَا أَبَداً فِي حَيَاةِ اَلسَّلَام، وَالرَّاحَةِ، وَالْمَحَبَّةِ....

كَانَ اَلْجَمِيعُ يَسِيرُ مُتَثَاقِلاً بَيْنَمَا تَلسعُ اَلسِّيَاطُ أَجْسَادَهُمْ اَلسَّوْدَاء لِتَتْرُكَ آثَارَهَا اَلدَّامِيَةَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَأَدِيمِ جُلُودِهِمْ...

وَمِنْ اَلْمُؤْلِمِ أَنْ يَرَى أَيُوبَا أَنَّ تلكَ اَلسّياط لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ طِفْلٍ، وَرَجُلٍ، وَامْرَأَةٍ!!...

فَفِي قَانُونِ اَلْبَيْضِ لَمْ يَكُنْ أُولَئِكَ اَلسُّودُ سِوَى عُمَّالٍ، وَعُبَيْدْ يُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ اَلدُّونِ، وَيَعْتَبِرُونَ مُمْتَلَكَاتٍ عَامَّةٍ مِثْلُهُمْ مِثْلُ اَلْبَهَائِمِ، وَالْعَقَارَاتِ لَدَى مَالِكِهِمْ، وَسَيِّدِهِمْ صَاحِبِ اَلْبَشَرَةِ اَلْبَيْضَاءِ، وَالْعُيُونِ اَلْمُلَوَّنَةِ، وَالْقَلْبِ اَلْمُتَحَجِّرِ...

طَالَ اَلطَّرِيقُ فِي ذَلِكَ اَلْيَوْمِ عَلَى أَقْدَامِ أَيُّوبا اَلْمُثْقَلَةِ بِالْحَدِيدِ، وَالسَّلَاسِلِ... وَعَلَى عُنُقِهِ اَلَّتِي لَمْ تَكُنْ أَحْسَنَ حَالاً مِنْ قَدَمَيْهِ، وَمِعْصَمَيْهِ... وها هُو أَخِيراً يلَمحُ بِنَاءً عَالِي اَلْأَسْوَارِ تتَوَسَّطُهُ بَوَّابَةٌ خَشَبِيَّةٌ عَرِيضَةٌ، وَعَالِيَة صُنِعَتْ مِنْ اَلْخَشَبِ اَلْمُقَوَّى، وَالْمُدَعَّمِ بِالْحَدِيدِ...

كَانَتْ مَفْتُوحَةً عَلَى مِصْرَاعَيْهَا بَيْنَمَا يَقِفُ عَلَى جَانِبَيْهَا أَشْخَاصُ مِن اَلْبَيْضِ يعْتَمِرونَ قُبَّعَاتٍ عَالِيَةً، وَمَلَابِسَ كَتِلْكَ اَلَّتِي كَانَ يَرْتَدِيهَا اَلْكَابتِنُ بَايِكْ، وَهِنْرِي هَانَتْ عِنْدَمَا اِلْتَقَى بِهُمَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...

- اتْرُكِيه!!... أبْعِدِي يَدَكِ اَلْقذرَةَ عَنْه... قَالَ أَحَدُ اَلرِّجَالِ اَلْبَيْضِ لِامْرَأَةٍ تَحْتَضِنُ اِبْنَهَا خَوْفاً عَلَيْه... بَيْنَمَا كَانَتْ تُثْقِلُهُمَا اَلْقُيُودُ، وَقَدْ اِجْتَازَ اَلْبَوَّابَةَ اَلْعَرِيضَةَ...

- أَوْقِفهُمْ هُنَاكَ جَمِيعاً... قَالَ آخر...

عَرَفَ جَمِيعُ اَلْعَبِيدِ أَنَّهُم وَصَلُوا اَلْمَرْحَلَةَ اَلْأَخِيرَةَ مِنْ رِحْلَةِ اَلْاَقْتِيَادِ تِلْك، وَأنّ أَمْراً مَا عَلَى وَشْكِ اَلْحُدُوثِ اَلْآن... هُوَ اَلْأَمْرُ اَلَّذِي طَالَ اِنْتِظَارُهُمْ إِيَّاهُ غَيْرَ مُدْرِكِينَ أَنَّهُ اَلْبِدَايَةُ نَحْوَ حَيَاةِ اَلشَّقَاءِ اَلَّتِي لَنْ تَنْتَهِيَ إِلَّا بِالْمَوْتِ، وَوُلُوجِ ظُلِمَةِ اَلْقُبُور...

- 2 -

بازَارٌ لِبَيْعِ اَلْبَشَرِ يُنَادِي كُلُّ تَاجِرٍ عَلَى تِجَارَتِهِ... وَالْمَحْظُوظُ هُنَاكَ مِنْ تَأْخُذُهُ إِحْدَى اَلْأُسَرِ اَلَّتِي يَكُونُ اَلْعَمَلُ لَدَيْهَا سَهْلاً غَيْرَ مُجْهِدٍ، وَلَا مُتْعِب... هِيَ لُعْبَةُ اَلْحَظِّ اَلَّذِي يَرْسُمُهَا اَلْقَدَرُ... وَيُوَقِّعُ عَلَيْهَا اَلْبَيْضُ... وَيَخْتَبِرُهَا اَلسُّودُ بِسُودِ أَقْدَارِهِمْ... وَمِنْ هُنَا رَاحَتْ اَلْأَيَادِي اَلْبَيْضَاءُ اَلْفَاحِصَةُ، وَالْأَعْيُنُ اَلْمَاحِصَة تَحُطُّ عَلَى أَجْسَادِ اَلْعَبِيدِ لِاخْتِيَارِ أَفْضَلِهِمْ بَيْنَمَا تَمَّ فَصْلُ أَصْحَابِ اَلْأَجْسَادِ اَلْقَوِيَّةِ، وَالْمُمْتَلِئَةِ لِبَيْعِهِمْ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى، وَلِيُكْسَبُوا مِنْ أَثْمَانِهِمْ أَضْعَافَ مَا يَكْسِبُونَهُ مِنْ اَلْعَبِيدِ اَلْآخَرِينَ...

وَلَكِنَّ أَيُوبَا اَلَّذِي نَسِيَ الجَمِيعُ أَنَّهُ أَمِيرٌ ابنُ مَلِك... لَمْ يَكُنْ لِيُعْرَضَ هُنَا مَعَ نُخْبَةِ اَلْعَبِيدِ، وَقَدْ نَحُلَ جَسدَهُ، وَبَرَزَتْ عِظَامَهُ...

– هَذَا... وَذَاك... وَهَـؤُلَاء... تَعَالَوْا جَمِيعاً إِلَى هُنَا... قَالَ أَلِكْسَنْدَرْ تولستوي... الرَّجُلُ الَّذِي سَيُصْبِحُ سَيِّدَ أَيُوبَا فِيمَا بعد بَيْنَمَا أَشَارَ إِلَى أيوبا، وَمَجْمُوعَةٍ مِنْ اَلْعَبِيدِ لِيُلْحِقُوا بِهِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ شِرَاءهُمْ لِلْعَمَلِ فِي مَزْرَعَتِه...

كَانَ رَجُلاً طَوِيلاً مُتَوَسِّطَ اَلْوَزْنِ، أَسْوَدَ اَلشَّعرِ... يَرْتَدِي قَمِيصاً

أبيَضاً بِيَاقَةٍ مُجَعَّدَةٍ مَعَ سِترَةٍ جَلِديَّةٍ تَمِيلُ نَحْوَ اَللَّوْنِ اَلزَّهْرِيِّ، وَقُبَّعَةٍ تَحمِلُ ذَاتَ لَوْنِها... كَانَ حَازِمًا حَاسِماً غَيْرَ مُتَرَدِّدٍ فِي اِتِّخَاذِ قَرَارِهِ حَوْلَ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ يَهُمُّ فِي شِرَائِهِمْ، وَكَأَنَّهُ كَانَ مُعْتَاداً عَلَى تِلْكَ اَلْعَمَلِيَّةِ لِيَطُوِّرَ اَلْعَمَلَ فِي مَزْرَعَتِهِ بِاسْتِقْطَابِ اَلْمَزِيدِ مِنْ أَبْنَاءِ اَلشَّعبِ اَلْأَسْوَدِ...

هِيَ سَاعَاتٌ قَلِيلَةٌ فَقَطْ حَمَلَتْ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْأَلَمِ بَيْنَ دَقَائِقِهَا، وَلَا سِيمَا أَنَّ اَلسُّودَ اَلَّذِينَ كَانَ مِنْهُمْ مَن لَا يَزَالون يَتَمَسَّكُونَ بِأَبْنَائِهِم... قد بدأوا يَرَونَ اَلْأَبْنَاءَ يَسيرونَ بَعِيداً خَلْفَ أَسْيَادِهِمْ اَلْبَيْضِ اَلْجُدُدِ بَيْنَمَا تُذرفُ الدُّمُوعُ... وَتُلْطَمُ اَلْوُجُوهُ دُونَ اَلْقُدرَةِ عَلَى رَدِّ اَلْأَذَى، أَوْ اِسْتِرْجَاعِ فِلذاتِ اَلْقُلُوب....

هُنَاك... كَانَتْ تُسْلَخُ اَلطِّفْلَةُ مِنْ حِجَرِ أُمِّهَا... وَالْأَخُ مِنْ يَدِ أُخْتِه... وَالْأُمُّ مِنْ أَصَابِعِ أَطْفَالِهَا اَلطَّرِيَّةِ اَلنَّاعِمَة... وَكَيْفَ لِي بِبِضْعَةِ أَسْطُرٍ أَن أُلَخِّصَ أَلَمَ اَلشَّعْبِ اَلْأَسْوَدِ اَلَّذِي اِمْتَدَّ لِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ، وَحَصدَ أَرْوَاحَ مَلَايِينِ اَلسُّودِ كَمَا حَصَدَ هدأتهُم، وَسلامهُمْ، وَأَحْلَامَهُم!!...

وَكَيْفَ لِي أَنْ أَصِفَ لَكُمْ حَالَ أَيُوبَا، وَهُوَ يَسِيرُ خَلْفَ سَيِّدِهِ تُولِستُوي نَحْوَ عَالَمٍ جَدِيدٍ لَمْ يَدِرِ عَنْ كُنْهِه شَيْئاً، وَلَمْ يَكُنْ لِيَتَصَوَّرَ يَوْماً، وَقَد كَانَ لَهُ مَا كَانَ مِنْ اَلْجَاهِ، وَالْقُوَّةِ، وَالسُّلْطَةِ أَنْ تُشِيحَ بِهِ اَلْحَيَاةُ نَحْوَ عَالَمِ أَميركَا... عَالَمَ اَلرِّقِّ، وَالْعُبُودِيَّةِ، وَالْعَمَلِ اَلَّذِي يَسْرِقُ أَيَّامَ اَلْحَيَاةِ، وَلَا يُعِيدُهَا....

- 3 -

فِي مَزْرَعَةِ تولستوي ذَاتِ اَلْأَشْجَارِ اَلْبَاسِقَةِ، وَالْأَعْشَابِ شدِيدَةِ اَلْخُضْرَةِ وَقْفَ أَيُوبَا مَعَ بَقِيّةِ اَلْعَبِيدِ تَحتَ أَشَعَّةِ اَلشَّمْسِ اَلْحَارِقَةِ، وَالجوِّ شَدِيدِ اَلرُّطُوبَةِ... بِانْتِظَارِ مَجِيءِ اَلْمَسْؤُولِ عَنْهُمْ قَاشِيل دينْتُون ليوزّعَ عَلَيْهِمْ اَلْأَسْمَاءَ اَلْجَدِيدَةَ، وَالْمَهَام...

وهاهُ وَ اَلْأَخِيرُ قَدْ وَصَلَ مُعْتَلِياً فَرَسَهُ اَلسَّوْدَاءَ قَادِماً مِنْ مَنْزِلِ سَيِّدِهِ اَلضَّخْمِ لِيَرْسُمَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ قَدَراً جَدِيداً قَدْ يَسْتَحِيلُ تَغْيِيرُه...

وَبَعْد أَنْ دَارَ حَوْلَ اَلْعَبِيدِ عِدَّةَ دَوْرَاتٍ اِسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَلهمَ أَسْمَاءً جَدِيدَةً، وَأَنْ يَضَعَ كُلًّا مِنْهُمْ فِي اَلْمِهْنَةِ اَلَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ طَبِيعَةِ جَسَدِه...

– سَيَكُونُ اِسْمُكَ سِيمُونْ... قَالَ قِاشِيل، وَهُوَ يُسَجِّلُ اِسْمَ أَيوبا اَلْجَدِيد، وَقَدْ تَرْجَمَ عَبْدٌ قَدِيمٌ لأَيُوبَا اَلْكَلِمَاتِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ اَلَّتِي تَفَوَّهَ بِهَا اَلْأَمْرِيكِيُّ قَاشْيل لِلتَّوّ...

– لَا أُرِيدُ هَذَا اَلِاسْم... قَالَ أَيوبا لِمُوَاطِنِهِ اَلْعَبْد اَلْقَدِيم رَافِضاً اسمَ سِيمُونْ... وَلَكِنَّ اَلْعَبْدَ صَاحِبَ اَلْفِطْنَةِ، وَالتَّجْرِبَةِ، لَمْ يَشَأ لأَيُوبَا أَنْ يُصفَعَ، أَوْ يُعَذَّبَ لِرَفْضِهِ اَلِاسْم... وَبِالتَّالِي سَيَعْتَبِرُهُ قَاشيل

مُتمَرّدَاً مُنْذُ اَلْبِدَايَة... مِمَّا سَيَفْتَحُ عَلَى أَيُوبَا بَاباً مِنْ أَبْوَابِ اَلْجَحِيمِ لِاسْتِعْرَاضِ قُدرةٍ قَاشِيل عَلَى اَلتَّعْذِيبِ، وَالتَّأْدِيب... فَقَالَ اَلرَّجُلُ لَأَيُوبَا بِمَلَامِح هَادِئَةٍ لَا تَشِي عَلَى اِعْتِرَاضِ اَلْأَخِيرِ:

- إِيَّاكَ، وَالِاعْتِرَاضَ اَلْآن... أَفْسَحِ اَلْمَجَالَ لِمَنْ يَلِيك... ثُمَّ صَاحَ بِصَوْتٍ عَالٍ... اَلتَّالِي... فَسَارَ أَيوبا إِلَى اَلْأَمَامِ يَحْمِلُ أَوَّلَ اَلْهُمُوم، وَلَيْسَ آخِرَهَا، وَقَدْ بَدَا يُحَاوِلُ اَلِاعْتِيَادَ عَلَى اِسْمِ سِيمُونْ، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ ذَلِكَ اَلِاسْم لَا يُمْكِنُ لَهُ أَنْ يَكُونَ اِسْمُهُ إِلَى اَلْأَبَد...

فِي نِهَايَةِ ذَلِكَ اَلْمَحْفِلِ اَلْمُرِيبِ، وَالْمُخِيفِ تَمَّ اِخْتِيَارُ أَيُوبَا لِلْعَمَلِ فِي مَزَارِعِ اَلتَّبَغِ!!.

ذَاكَ اَلْعَمَلُ اَلَّذِي كَانَ بَعِيداً كُلَّ اَلْبُعْدِ عَنْ جَسَدِ أَيوبا، وَمَقْدِرَتِه...وَبَيَّنَ اَلِاسْتِيقَاظِ اَلْمُبَكِّرِ جِدّاً، وَاَلَّذِي لَا يَخْلُو مِنْ سَوَادِ اَللَّيْلِ اَلْقَرِيبِ مِنْ حَظِّ اَلْعَبِيدِ اَلْأَسْوَدِ مثلهم... وَالْعَمَلِ اَلشَّاقِّ فِي ظُرُوفٍ صَعْبَةٍ، وَمُعَامَلَةٍ لَا إِنْسَانِيَّة... وَمَعَ تَزَايُدِ حَالَاتِ اَلْفِرَارِ، وَالْقَبْضِ عَلَى اَلْفَارِّين، وَتَعْذِيبهم، بَلْ وَسَلْخِ جُلُودِهم، أَوْ قَتْلِهِمْ بَعْدَ اَلْإِمْسَاكِ بِهِمْ إِن اِقْتَضَى اَلْأَمْر...

كَانَتْ صِحَّةُ أَيُوبَا تَتَرَاجَعُ بِشَكْلٍ مَلْحُوظٍ حَتَّى شَارَفَ فِي صَبَاحِ يَوْمٍ صَيْفِيٍّ حَارٍّ جِدّاً عَلَى اَلْمَوْت... كَانَ جَسَدُ أَيوبا مُتَيَبِّساً مُتَصَلِّباً شَدِيدَ اَلْحَـرَارَة... أَنْفَاسُهُ سَرِيعَةٌ، وَفَمُهُ مَفْتُوحٌ، وَعَيْنَاهُ

مَقْلُوبَتَانِ مُعَلَّقَتانِ فِي سَقْفِ كُوخِهِمْ اَلْخَشَبِيّ... يئنُّ، وَهُوَ يَسْتَذْكِرُ كَمَّ اَلْأَلَمِ، وَالْبُؤْسِ اَلَّلذين عَاشَهُمَا فِي حُقُولِ اَلتَّبْغِ اَلْمُضنِيَةِ تَحتَ حَرَارَةِ اَلشَّمْسِ، وَطُولِ سَاعَاتِ اَلْعَمَل...

أَحَسَّ بِحَاجَةٍ إِلَى اَلتَّقَيُّؤِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْوَ عَلَى اَلْكَلَام، أَوْ اَلْإِيمَاءِ لِلْعَبِيدِ اَلْآخَرِينَ اَلَّذِينَ يُحِيطُونَ بِجَسَدِهِ اَلَّذِي كَانَ أَشْبَهَ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يُحْتَضَر... رأهُمْ حَوْلهُ كَأَطْيَافٍ سَوْدَاء... اِسْتَذْكَرَ مُعَانَاتَهُمْ أَيْضاً... آلامَ جُرُوحِهِمْ... تَعْذِيبَهُمْ... جلْدَهِم... وَاغْتِصَابَ فتيَاتِهِمْ... سَلْخَ أَبْنَائِهِمْ عَنْهُمْ... أَمْرَاضَهُمْ اَلَّتِي لَا يَنْظُرُ لَهَا بِعَيْنِ اَلْعَطْفِ، وَلَا اَلرَّحْمَةِ، فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ مَعاً بِلَحْظَةٍ وَاحِدَة... بَيْنَمَا دَخَلَ أَحَدُ اَلْأَطِبَّاءِ اَلْبَيْضِ اَلَّذِينَ تَمَّ اِسْتِدْعَاؤُهُمْ لِفَحْصِ أَيوبا، وَبَعْضِ اَلْعَبِيدِ اَلْمَرْضَى أَيْضاً...

– لَابُدَّ، وَأَنَّهُ تَعَرّضَ لِضَرْبَةِ شَمْس!!... إن بَقِيَ فِي هَذَا اَلْعَمَلِ سَيَمُوتُ قَرِيباً لَا مَحَالَةَ... جَسَدِهُ اَلنَّحِيفُ لَا يَقْوَى عَلَى شَيْءٍ كَهَذَا... قَالَ اَلطَّبِيبُ مُوَجِّهاً كَلَامُهُ لِلْعَبْدِ اَلْقَدِيمِ اَلَّذِي اِلْتَقَاهُ أَيُوبَا أَوَّلَ اَلْأَمْرِ، وَاَلَّذِي كَانَ مَسْؤُولاً عَلَى مَا يَبْدُو عَنْ اَلْعَبِيدِ الجُدِدِ، وَتَعْلِيمِهِمْ قَوَاعِدَ اَلْحَيَاةِ اَلْجَدِيدَةِ، وَالْعَمَلِ اَلْمُوكلِ إِلَيْهِم... فَهُوَ يُجِيدُ اَلْحَدِيثَ بِلُغَةِ أَبْنَاءِ أَفْرِيقْيَا، وَبَلَغَةِ اَلْأَمْرِيكِيِّين... مِمَّا جَعَلَ مِنْهُ حَلْقَةَ وَصْلٍ مُهِمَّةٍ بَيْنَ اَلْبِيضِ، وَالسُّود... كَانَ اِسْمُهُ نُوَا... رَجُلٌ كَبِيرٌ فِي اَلسِّنِّ، مُطِيعٌ إِلَى اَلْحَدِّ اَلَّذِي عُرِفَ مِنْهُ أن لا مكَانَ لِلتَّمَرُّدِ، أَوْ اَلْهُرُوبِ فِي هَذَا اَلْمَكَانِ اَلَّذِي يَبْعُدُ عَنْ مَوْطِنِهِ اَلْأُمِّ بُعْدَ اَلْحَيَاةِ عَنْ اَلْمَوْت... وَجْهَهُ مُجَعَّدٌ

تَعلُوهُ بَعْضُ اَلنُّدُوبِ اَلْقَدِيمَةِ، وَاَلَّتِي تَروِي لِكُلِّ مَنْ سَوْفَ يَرَاهَا أَنْ لَا يُمْكِنُ اَلْفِرَارَ مِنْ هَذِهِ اَلْجَحِيمِ مَهْمَا حَاوَلْتُمْ... وَمَهْمَا اِسْتَطَاعَتْ خُطَاكُم أَنْ تَبْتَعِدَ...

رَاحَ نوا يُقَدِّمُ اَلدَّوَاءَ، وَ الرّعايَةَ لِأَيوبَا اَلْمُوشْكِ عَلَى اَلْمَوْت... وَلِشَدِّةِ إِصْرَارِ الأخيرِ عَلَى رَفْضِ اسمِ سيمُونْ اِسْتَطَاعَ نُوَا أَنْ يُسَاعِدَهُ بِاسْتِبْدَالِ اِسْمِهِ لَدَى قَاشِيلْ بِاسْمٍ آخَرَ يَحْمِلُ اِسْمَ أَيُوبَا، وَلَكِنْ بِطَرِيقَةٍ مُبَطَّنَة... فَأَصْبَحَ اِسْمُهُ جُوبْ بْنْ سَولمون... وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ اِسْمِ أَيُوبَا بنْ سُلَيْمَانْ... وَلْيَتَحَوَّلَ جُوبْ مِنْ عَالَمِ العَمَلِ فِي اَلتَّبَغِ إِلَى عَالَمِ اَلرَّعْيِ بِالْأَغْنَامِ، وَالْمَوَاشِي... ذَلِكَ اَلْعَالَمِ اَلَّذِي حَمَلَ رَاحَةً كَبِيرَةً لَأَيُوبَا، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ كَانَ قَرِيباً مِنْ عَالَمِهِ اَلْقَدِيمِ... حَياةُ أَفْرِيقْيَا... أَصْوَاتُ مَاشِيَتِهَا، وَثْغاءُ أَغْنَامِهَا... وَلَكِنْ لَيْسَ اَلْأَمْرُ بِهَذِهِ اَلسُّرْعَةِ كَمَا اِعْتَقَدَ اَلْأَمِيرُ اَلْعَبْدُ... وإنّما سياتيبعدَ دفعِ ثمنٍ باهظٍ ثمين!!

- 4 -

اَلِانْتِظَار... هِيَ كَلِمَةٌ كَشَبَكَةِ اَلْعَنْكَبُوت... تَمْتَدُّ لِآلَافِ اَلْخِيَارَاتِ، وَآلَافِ اَلْبِدَايَاتِ، وَالنِّهَايَات....

مَعَهَا عَرَفَ أَيُّوبَا كَيْفَ يَفْتكُ اَلتَّرَقُّبُ بِهدأةِ اَلنَّفْسِ، وَبِسُكُونِ أَمْوَاجِهَا... هُوَ اَلَّذِي ظَلَّ طِوَالِ فَتْرَةِ اَلِابْتِلَاءِ تِلْكَ مُتَمَسِّكاً بِحَبْلِ اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – مُسْتَعْصِماً بِه.... لَا يَفْتَأُ يَدْعُو اللهّ، وَيُصَلِّي لهُ بِكرْةً، وَعَشِيَّة....

فِي اِنْتِظَارِهِ ذاكَ كَانَ وَجْهُ وَالِدِهِ سُلَيْمَانْ هُوَ طَاقَةُ اَلْأَمَلِ اَلَّتِي لَمْ يَكُنْ يَوَدُّ لَهَا أَنْ تُغْلقَ، أَوْ تَنْطَفِئ... وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ عَلمَ مِنْ اَلْعَبِيدِ اَللَّاحِقَيْن أَنَّ سُلَيْمَانْ لَمْ يَهْدَأ، وَلَمْ يَمَلّ مِنْ إِرْسَالِ اَلْأَمْوَالِ لِافتِدَائِهِ، وَتَخْلِيصِهِ مِنْ نَيرِ اَلْعُبُودِيَّةِ، وَلَكِن دُونَ جَدْوَى...

لَقَدْ قَامَ ذَلِكَ اَلْمَلِكُ اَلْمَكْلُومُ بِابْنِه... اَلْمُذنِبُ بِسُوقِهِ لَهُ فِي تِلْكَ اَلرِّحْلَةِ اَلْأَخِيرَةِ بِعَشَرَاتِ اَلْمُحَاوَلَاتِ لَاسْتَعَادَةِ أَيُّوبَا، وَلَكِنَّهَا جَمِيعَهَا عَادَتْ بِخُفَّيْ حُنَيْنْ!!

وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مَلِكَ فُوتة سَامْبُو كَانَ قَدْ أَعْلَنَ اَلْحَرْبَ عَلَى قَبَائِلِ اَلْمُانْدِنجْ اَلَّتِي كَانَ لَهَا اَلْيَدُ الطُّولَى فِي أسرِ أَيُّوبَا، وَتَحْوِيلِهِ إِلَى عَبْد، وَقَدْ اِعْتَبَرَ

ذَاكَ غَدْراً بِأَحَدِ أَفْرَادِ قَوْمِهِ، وَزُمَلَائِه.... وَلَكِنَّ كلَّ تِلْكَ اَلْمُحَاوَلَاتِ، وَالْأَحْدَاثِ لَمْ تُمَكِّنْهُمْ مِنْ اَلْوُصُولِ إِلَى اَلْأَمِيرِ أَيُوبَا، وَتَخْلِيصُهُ مِنْ ذَاكَ اَلْقَدْرِ اَلْمَشْؤُومِ اَلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْتَبِرَ صُعُوبَةَ أَحْدَاثِهِ،...

بُعيدَ مرضِ أيوبا، وَشِفَائه... لَمْ يَتَغَيَّرْ اَلْحَالُ عَلَيْهِ فِي مجَالِ اَلْعَمَل!!... فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُتَابِعَ عَمَلُهُ فِي حُقُولِ اَلتَّبغِ مَعَ بَاقِي اَلْعَبِيدِ، وَأنْ يَعُودَ مَعَهُمْ كُلَّ مَسَاءٍ إِلَى اَلْكُوخِ اَلْمُتَوَاضِعِ اَلْمَصْنُوعِ مِنْ اَلْقَصَبِ لِإِشْعَالِ اَلنَّارِ لَيْلاً، وَتَنَاوَلِ طَعَامِ اَلْعَشَاءِ اَلَّذِي لَا يُغني، وَلَا يُسْمِنُ مِنْ جُوع...

كَانُوا يَسْهَرُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ اَلْبَعْضِ كُلَّ لَيْلَة... يَقُصُّونَ قِصَصُ أَفْرِيقْيَا، وَيُغَنُّونَ أُغْنِيَاتِهَا... يَبْكُونَ عَلَى مَنْ فَقَدُوا، وِيتَحَسّرونْ عَلَى سَوقِهِمْ دُونَ أَنْ يَتَسَنَّى لَهُمْ أَنْ يُوَدِّعوا أَحِبَّتَهُمْ، وَمَا تَبَقَّى هُنَاكَ مِنْ عَائِلَاتِهِمْ... يَرْقُصُونَ، وَيُؤَدُّونَ حَرَكَاتِهِمْ اَلْأَفْرِيقِيَّةَ اَلْغَرِيبَة... يُطَبِّبُونَ بَعْضَهُمْ اَلْبَعض... وَيَكْتُمُونَ كَرَاهِيَّتِهِمْ للبيضِ أسيادِهم!!

لَمْ يَكُنْ أَيوبا بَعِيداً عَنْهُمْ، وَلَكِنَّهُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَرِيباً إِلَى اَلْحَدِّ اَلَّذِي لَا يُمَيَّزُ بَيْنَهُمْ... فَقَدْ كَانَ يَحْرِصُ عَلَى صِلَاتِهِ، وَتِلَاوَةِ آيَاتِ اَلْقُرْآنِ حَتَّى أَثْنَاءَ اَلقطافِ، وَالْعَمَل... كَانَ مُلْتَزِماً، فَطِناً ذَكِيّاً يَمْتَلِكُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلصِّدْقِ، وَالْوَرَع...

فِي عَالَمِ اَلْعَبِيدِ ذَاك... كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَخْشَى عَلَى نَفْسِكَ مِنْ ذَنْبٍ

لَمْ تَقْتَرِفْهُ حَتَّى!!... فَقَدٍ يُخْطِئُ أَحَدُهُمْ، وَتَدْفَعُ اَلثَّمَنَ أَنْتَ!!... وَقَدْ كَانَ عَلَى أَيُوبَا أَنْ يَرَى ذَاكَ بَأَمِّ عَيْنَيْهِ، وَأَنْ يَلْمِسَهُ بِجِلْدِ يَدَيْهِ... لَقَدْ كَانَ اَلشَّاهِدَ اَلْحَيَّ عَلَى أَلَمِ أُولَئِكَ اَلَّذِينَ قَذَفَتْ بِهِمْ اَلْحَيَاةُ إِلَى هَوَامِشِ سطورِهَا... إِلَى حَضيضِ قِيعَانِهَا... وَإِلَى أَقْبِيَتِهَا اَلْمُظْلِمَة...

وَهُنَاك... فِي اَلْكُوخِ اَلْخَشبِيِّ اَلَّذِي يَحْمِلُ خَلْفَ جُدْرَانِهِ اَلْوَاهِيَةِ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْقَصَصِ، وَاَلْحِكَايَا اَلَّتِي يَنْدَى لَهَا جَبِينُ اَلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاء، وَجَبِينَ أَمْيركَا، وَأُورُوبَّا عَلَى وَجْهِ اَلْخُصُوص... كَتَبَ اَلْقَدَرُ لِأُولَئِكَ اَلَّذِينَ عَاصَرُوا أَيُوبَا أَنْ تُسَجَّلَ أَسْمَاؤُهُم، وَآلَامُهِمْ فِي صَفْحَةِ اَلْخُلُودِ عَلَى يَدِ زَمِيلِهِمْ فِي اَلسَّكَنِ، وَالْعَمَلِ، وَالْإِنْهَاك... أيوبا بْنْ سُلَيْمَان جَالُو... اَلْمُسْلِمُ اَلْمُتَمَسِّكُ بِدِينِ اَللهَّ، وَكِتَابِهِ اَلْمُبِين...

- يُذَكِّرُنِي هَذَا اَلصَّبَاحُ بِصَبَاحَاتِ بُونْدُو... قَالَ أيوبَا لِصَدِيقِهِ جُونِيسْ اَلَّذِي كَانَ يَعْمَلُ إِلَى جَانِبِهِ فِي اَلْحَقْلِ صَبَاحَ ذَلِكَ اَلْيَوْم..

- ألا زلتَ تَنْتَظِرُ جُوب؟؟... حَاوَل أَلَّا تَتَرَقَّبَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ... عَلَيْكَ أَنَّ تُذعنَ لِمَصِيرِكَ كَمَا أذعنّا لِمَصَائِرِنَا... لَا فِكَاكَ مِنْ هَذِهِ اَلْمِصيَدَةِ اَلْقَذِرَة... تَنَاسَى لِتَرْتَاحَ عَزِيزِي...

وَقَعَتْ كَلِمَاتِ جُونِيسْ عَلَى جُوب...أي أَيوبا بِاسْمِهِ الجديد كَوَقْعِ اَلصَّفْعَةِ عَلَى خَدِّهِ اَلَّذِي لَمْ تَرْحَمْهُ صَفَعاتُ أَيْدِيهِمْ اَلْبَيْضَاءَ اَلْمُلَطَّخَةَ بِالسَّوَاد... وَلَكِنَّهُ قَالَ لِجُونِيسْ بِهُدُوئِهِ الْمُعْتَاد:

– لَقَدْ وَعَدَ اَللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – عِبَادُهُ اَلصَّابِرِينَ خَيْراً إن هُمْ أَحْسَنُوا اَلظَّنَّ بِه... وَعَنْ نَفْسِيّ سَأَظَلُّ مُتَمَسِّكاً بِذَاكَ اَلْخَيْطِ الرّفِيعِ إِلَى يَوْمِي اَلْأَخِيرِ هَا هُنَا... لَقَدْ حَاوَلَتْ بِكُلِّ قُوَّتِي أَنْ أَتَجَنَّبَ هَذَا اَلْمَصِيرِ اَلَّذِي تَرَانِي أُقَاسَمُكمْ إِيَّاهُ اَلْآن... وَلَكِنْ لِأَمْرٍ مَا لَا زَلتُ أَجْهَلُهُ لَمْ أَسْتَطِعِ اَلْخَلَاصَ مِمَّا كَتَبَ عَلِي مُنْذُ يَوْمِ وِلَادَتِي...

– لَمْ يَصْنَعْ وَالِدُكَ خَيْراً بِأَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ... إِنَّهُ جَزَاءٌ عَادِلٌ جَوب... لَا تُؤَاخِذنِي إِنَّ قُلْتُ ذَلِك... وَلَكِنَّهَا اَلْحَقِيقَةُ يَا صَدِيقِي... لَقَدْ دَفَعَتْ بِنَا أَيْدِي أَبْنَاءُ جِلْدَتِنَا إِلَى هَذَا اَلْمَكَانِ اَلْقَذِرِ، وَإِلَى فَمِ اَلْعُبُودِيَّةِ اَلَّذِي لَا يَعْرِفُ اَلشِّبَعِ... فَلَوْلَاهُمْ لِمَا اِسْتَطَاعَ هَؤُلَاءِ اَلْجُبَنَاءُ اَلدُّخُولَ إلى أَدْغَالِنَا، واِقتِيَادنَا بِتِلْكَ اَلطَّرِيقَةِ اَلْمُهِينَةِ اَلَّتِي تَمَّ سَوقُنَا بِهَا...

عَلَى كُلِّ حَالٍ لَنْ أَكْذِبَ عَلَيْك... أَنَا أَغْبُطُكَ يَا جُوب، فَلَدَيْكَ بَصِيصُ اَلْأَمَلِ اَلَّذِي نَفْتَقِدُهُ جَمِيعاً... عِدنِي لَوْ اِسْتَطَعْتَ اَلْخُرُوجَ مِنْ هُنَا أَنْ تُسَاعِدَ جَمِيعَ اَلْمَقهورِينَ عَلَى اَلْخَلَاص...

تَأَمَّلَ أَيوبا وَجْهَ جُونِيسْ اَلْمُتْعَب بَيْنَمَا هَزَّ رَأْسُهُ مُوَافِقاً عَلَى طَلَبِ صَدِيقِهِ، ثُمَّ رَاحَ يُفَكِّرُ مَاذَا لَوْ كُنْتُ وَاحِداً مِنْ أُولَئِكَ اَلَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ذَلِكَ اَلْأَمَلِ بِالِافتِدَاء؟؟... مَاذَا لَوْ كُنْتُ أَعِيشُ جَحِيمَهُمْ دُونَ أَنْ يَكُونَ وَالِدُ أَحَدِهِمْ اَلْمَلِكُ سُلَيْمَانْ بْنْ جَالو اَلْقَادِرُ عَلَى دَفْعِ مِئَاتِ اَلْعَبِيدِ لِأَجَلِ عَوْدَةِ اِبْنِهِ إِلَى بُونْدُو؟؟...كَيْفَ لَهُمْ أَنَّ يَحْيَوا يَا تُرَى

بِصَبَاحَاتٍ مظْلِمَةٍ... وَمَسَاءَاتٍ مُظْلِمَة... وَوُجُوهٍ سَوْدَاءَ فَاحِمَة؟؟

كَانَ أَيوبا يُطِيلُ اِنْتِظَارَ مِنْ يَجْلِبُ لَهُ خَبَراً وَاحِداً مِنْ تِلْكَ اَلْأَخْبَارِ اَلَّتِي تَحْمِلُها لَهُ اَلسُّفُنُ اَلْقَادِمَةُ مِنْ سَوَاحِلِ غامبيا... إِشَارَةٌ وَاحِدَةٌ أَنَّ مُحَاوَلَاتِ وَالِدِهِ مُسْتَمِرَّةٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يُذعنْ لِلْيَأْسِ مِنْ اِسْتِعَادَةِ اِبْنِهِ اَلْأَمِيرِ، وَاَلَّذِي حَوّلَهُ بِيَدَيْهِ ذَاتَ يَوْمٍ مَشْؤُومٍ إِلَى عَبْد....

هُنَاكَ فِي بُونْدُو اَلَّتِي خَيَّمَ عَلَيْهَا اَلسَّوَادُ مُنْذُ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ اَلْكئيبِ اَلَّذِي عَادَ بِهِ سُلَيْمَان دُونَ أيوبَا... أَصْبَحَتِ اَلْحَيَاةُ صَعْبَةً جِدّاً... وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ اِحْتِرَامِ أَشَانْتِي لِعَمِّهَا وَالِدِ زَوْجِهَا اَلْمَلِكِ سُلَيْمَان، وَإِجْلالِهَا لَهُ... وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تكنُّ لَهُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْكَرَاهِيَةِ اَلْمُبَطِّنَةِ بَعْدَ أَنْ وَصَلَهَا نَبَأُ اِخْتِطَافِ زَوْجِهَا، وَاقتِيَادِهِ نَحْوَ أَمْيرِكَا لِيَتْرُكَ لَهَا مَسْؤُولِيَّةَ الاعتناءِ بنَفْسِهَا، وَأَوْلَادِهَا اَلْأَرْبعَة....

لَمْ تَكُنْ قَادِرَةً فِي ذَلِكَ اَلْوَقْتِ عَلَى اَلصَّفْحِ، وَالْمُسَامَحَة... وَقَدْ أَبْصَرَ اَلْمَلِكُ سُلَيْمَان نَظَرَاتِ اَلْجَلِدِ، وَاللَّوْمِ فِي عَيْنَيْهَا، وَإِنْ لَمْ تُفْصِحْ عَنْ ذَلِكَ جَهْراً... وَمَعَ ذَلِكَ، فَهِيَ لَمْ تُحَاوِلْ أَنَّ تُقَصِّيَ أَوْلَادَهَا عَنْ جَدِّهِمْ بَعْدَ اَلْغَلْطَةِ اَلْفَادِحَةِ اَلَّتِي اِرْتَكَبَهَا، وَإِنَّمَا وَاظَبَتْ عَلَى إِرْسَالِهِمْ إِلَى مَجْلِسِهِ كُلَّ مساءٍ لِيُكَوِّنوا عَوْناً لَهُ فِي مُصِيبَتِه... بَيْنَمَا تَرَكَتْ لِنَفْسِهَا أَلَمَ اَلْبُكَاءِ، وَالدُّمُوعِ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ اَلْإِمَاءِ، وَالْخَدَم... وَقَدْ أَدْرَكَتْ أَنَّ تِلْكَ اَلْأَفْعَالِ كَانَتْ لِتُرْضِي زَوْجَهَا أيوبَا لَوْ عَلِمَ أَنَّهَا

قَامَتْ بِهَا....

وَعَلَى الجَانِبِ اَلْآخَـر... لَمْ تُكِنْ بِيجوم بِذَاتِ سَوِيَّة حَالِ أَشَانْتِي!!... فَهِيَ، وْ إِنْ كَانَتْ قد شَعَرَتْ بِالْحُزْنِ، وَالْفَقْدِ عَلَى رَحِيلِ زَوْجِهَا، فَقَدْ كَانَتْ مَسْؤُولِيَّاتُهَا أَقَلَّ بِالْمُقَارَنَةِ مَعَ أَشَانْتِي... فَهِيَ لَمْ تُنْجِبْ مِنْ أَيُوبَا، وَلَمْ تَعِشْ مَعَهُ ذَاتَ اَلْفَتْرَةِ اَلَّتِي عَاشَتْهَا اَلْأَخِيرَة...

وَبَيْنَ حُزْنِ أَشَانْتِي، وَهُدُوءِ بِيجوم.... وَأَلَمِ سُلَيْمَان، وَعَذَابِ ضَمِيرِهِ كَانَتْ اَلْأَقْدَارُ تُحِيكُ لِبوْندو حكايةً جَدِيدَة... حِكَايَةٌ سَيَكْتُبُ فُصُولَهَا اَلْخَوْف... وَتَحْرِقُ مَاضِيهَا اَلْحَرَائِقُ... وَيَعْلُو صَبَاحَاتِهَا أَنِينَ اَلْأَلَم...

- 5 -

كَانَ نَوْمُ أَيُوبَا مُتَقَطِّعاً بَعِيداً كُلَّ اَلْبُعْدِ عَنْ اَلرَّاحَةِ، وَالطُّمَأْنِينَة... وَبَيْنَ تَمَسُّكِهِ بِدِينِهِ اَلْإِسْلَامِيِّ، وَتَعَالِيمِهِ اَلْقِيّمَةِ، وَدَعَوَاتِ اَلْبَعْضُ إِلَى اَلتَّنْصِير... عَانَى أَيوبا مُعَانَاةً جَدِيدَةً مِنْ نَوْعِهَا... لِذَلِكَ أَخْذٌ يَشْرَحُ لِنوا عَنْ اَلدِّينِ اَلْإِسْلَامِيِّ، وَالْقُرْآنِ اَلْكَرِيم، وَالصَّلَوَاتِ اَلْخَمْسِ... وَعَنْ تَعَالِيمِ اَلنَّبِي مُحَمَّدْ - صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ...

وَلَكِنْ اَلْأَخِيرَ حَذّرَهُ مِنْ مَغَبَّةِ اَلْحَدِيثِ بِتِلْكَ اَلْأُمُورِ هَا هُنَا، وَقَالَ لَهُ بِعَيْنَيْهِ اَلَّتِي تَعرِفَانِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِمَّا تَقُولُ، وَبِفَهْمِهِ اَلَّذِي يَنْطِقُ بِحُكْمِةِ اَلتَّجْرِبَةِ اَلَّتِي اِخْتَبَرَهَا لِسَنَوَاتٍ طَوِيلَة:

- سَيَسْخَرُونَ مِنْكَ جُوب... لَا تُقْحِمُ نَفْسَكَ بِهَكَذَا أُمُور... هُمْ لَا يَحْتَرِمُونَ مُعْتَقَدَاتِنَا، وَلَا تُرَاثِنَا، وَلَا عَادَاتِنَا لِيَحْتَرِمُوا أَدْيَانَنَا، وَمَا نُؤْمِنُ بِه... اِحْتَفظ بِدِينِكَ لِنَفْسِكَ لئلّا تَنَالَ مِنْهُمْ اَلْأَذَى، وَالتَّعْذِيب... ألا تكفِيكَ تِلْكَ اَلسّياطُ اَلَّتِي رُسَمَتْ عَلَى ظَهْرِكَ مُنْذُ أَيَّام لِتَبَاطُئِكَ أَثْنَاء اَلْعَمَل؟؟... أَعْلَمُ أَنَّكَ مُخْتَلِفٌ عَنْ كُلِّ مِنْ جَاءَ إِلَى هُنَاً جُوب.... وَأَتَمَنَّى أَنْ تُحَافِظَ عَلَى سَلَامَتِكَ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِهِم...

- وَلَكِنَّ اَللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمْرنا... قَالَ أَيوبا مُحَاوِلاً تَقْدِيمَ

اَلذَّرَائِعِ لِنوَا..

– أَمركَ هُنَاك... فِي عَالِمَكَ اَلْأَسْوَد... أَمَّا فِي عَالِمِهِمْ اَلْأَبْيَضِ هَذَا فَهم يُؤْمِنُونَ بربٍّ آخَرَ، وَبِتَعَالِيم أُخْرَى... لَا تُحَاوِلُ اِسْتِفْزَازَهُمْ!!

قَالَ نوا ذَلِكَ بَيْنَمَا أَغْلَقَ بَابَ اَلرَّدِّ أَمَام أَيُوبَا، وَقَدْ حَمَلَ سَلَّةَ اَلْقَشِّ خَاصَّتهُ، وَمَضَى فِي طَرِيقِهِ مُبْتَعِداً عَنْ أَيُوبَا اَلَّذِي عَرَفَ خُطُورَةَ اَلْخَوْضِ فِي أَمْرٍ كَهَذَا... وَلَكِنَّ ذَكَاءَهُ اَلْحَادّ... وَإِرَادَتَهُ اَلصُّلْبَةَ... وَتَعَلُّقَهُ بِكَلَام اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – اَلَّذِي نَزَلَ فِي كِتَابِهِ اَلْمُبِيَّن كَانَ حَائِلاً بَيْنَهُ، وَبَيْنَ كَلِمَاتِ نوا اَلَّتِي ذَهَبَتْ فِي مَهَبِّ اَلرِّيحِ فِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ الشّتْوِيّ اَلْبَارِدِ مِنْ صَبَاحات أَنَابُولِيسْ... فِي وِلَايَةِ اَلْعُبُودِيَّة... وِلَايَة مَرِيَالَانْد...

- 6 -

مِنْ أَيْنَ أَتَتْ اَلْفِكْرَةُ اَلْأُولَى لِلْعُبُودِيَّة؟؟ بِذِهْنِ أَيِّ بَشَرِيٍّ خَطَرَتْ تِلْكَ اَلْفِكْرَةُ أَوَّلَ مَرَّة، فَاُسْتُعْبِدَ بَشَرِيّاً آخَرَ، وَجَعْلُهُ طَوعُ أَمْرِهِ، وَتَحتَ إِمْرَتِه؟؟... تَسَاءَلَ أَيُوبَا بِحُزْنٍ، وَهُوَ يُمَارِسُ عَمَلُهُ فِي حُقُولِ اَلتَّبغِ بَيْنَمَا أَصْوَاتُ اَلْعَبِيدِ، وَصَرَخَاتُهِمْ تَخْتَرِقُ صيوَانَ أُذُنَيْه...

هَؤُلَاءِ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ كَانَ ذَنْبُهُمْ اَلْوَحِيدُ فِرَارَ بَعْضٍ مِنْ رُؤُوسِ اَلْمَاشِيَةِ أَثْنَاءَ اَلرَّعْيِ، فَكَانَ لِزَاماً أَنْ يُعَاقِبُوا عَلَى غَفْلَتِهِمْ، وَسُوءِ تَصَرُّفِهِمْ بِالْجِلْدِ، وَالسِّيَاطِ، وَالْحَرْقِ، وَالسَّلْخِ إِنْ اِسْتَدْعَى اَلْأَمْر... فَفِي ذَلِكَ اَلْعَالَمِ اَلْجُنُونِيِّ اَلْمُفْتَقِرِ لِلرَّحمَةِ اَلْإِنْسَانِيَّة كَانَ مِنْ اَلْمُمْكِنِ أَنْ يُعْدَمَ عَدَدٌ مِنْ اَلْعَبِيدِ لِأَجَلِ نُفُوقِ بَقَرَة!!... أَوْ ضَيَاعِ دَجَاجِة!!... بَيْنَمَا لَا يَتِمُّ اَلنَّظَرُ لِأُولَئِكَ اَلسُّودِ عِنْدَ اَلْمَرَضِ، وَالْمُعَانَاةِ إِلَّا لِمَنْ حَالَفَهُ اَلْحَظُّ، وَرَحِمَهُ رَبُّ اَلْعَالَمِيْن...

كَانَ أَيوبا يَعْلَمُ أَنَّ طقُوسَ اَلتَّعْذِيبِ تِلْكَ لَنْ تَنْتَهِيَ بِانْتِهَاءِ مَرَاسِمِ اَلْجَلْد... فَلِلجُرُوحِ فِي عَالَمِ اَلزُّنُوجِ حِصَّةٌ كَذَلِكَ مِنْ اَلْأَلَم... لَقَدْ شَهِدَ أَيُوبَا اَلْكَثِيرَ مِنْ عَمَلِيَّاتِ اَلتَّعْذِيبِ فِي اَلْأَشْهُرِ اَلْقَلِيلَةِ اَلَّتِي قَضَاهَا فِي هَذِهِ اَلْمَزْرَعَةِ، وَاَلَّتِي كَانَتْ تُخْتَمُ بِفَرْكِ اَلْجُرُوحِ بِالْمِلْحِ

اَلْخَشِنِ بَيْنَمَا يَظَلُّ اَلْعَبْدُ مُقَيَّداً تَحتَ حَرَارَةِ اَلشَّمْسِ لِأَيَّامٍ طَوِيلَةٍ لِيَتُوبَ عَنْ فِعْلَتِه...

عَايَنَ الأميرُ العبد اَلْكَثِيرَ مِنْ حَالَاتِ سَكْبِ اَلْمَاءِ اَلْمُغْلِيِّ عَلَى أَرْجُلِ اَلْعَبِيدِ، وَأَطْرَافِهِمْ... بترَ آذَانِهِـم... وَشَمَ أجسَادِهَم... شَنْقَهُمْ حَتَّى اَلْمَوْت... وَلَقَدْ تَعَجَّبَ مِنْ وَحْشِيَّةِ اَلْبَشَرِ تُجَاهَ بَعْضِهِمْ اَلْبَعْضِ!!... وَكَيْفَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَقِّرَ مِنْ إِنْسَانٍ مَثَلِهِ لِأَجَلِ لَوْنِهِ، أَوْ عِرقِهِ، أَوْ جِنْسِهِ!!...

وَلأنَّ لَأَيُوبَا قَدْرٌ آخَرُ مُخْتَلِفٌ عَنْ بَقِيَّةِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِهِ مِنْ اَلْعَبِيد... فَقَدْ لَحِظَ اَلْمَسْؤُولُ عَنْهُ قَاشِيلْ دِينْتُونْ اِخْتِلَافَ طِبَاعِهِ، وَتَبَايُنَ سُلُوكِهِ عَنْ سُلُوكِ اَلْبَقِيَّة... كَانَ يُفَضِّلُ اَلْوَحْدَةَ، وَالْعُزْلَةَ عَلَى اَلِاجْتِمَاعِ بِبَقِيَّةِ اَلزُّنُوجِ اَلْعَامِلِينَ مَعَهُ فِي حُقُولِ اَلتَّبغ... قَلِيلَ اَلْكَلَام... كَثِيرَ اَلشُّرُودِ... يُقَدِّمُ اَلْمُسَاعَدَةَ لِأَصدِقَائِهِ فِي اَلْعَمَلِ، وَالسَّكَن... هَادِئاً بِرغْمِ اَلْحُزْن، مُتَصَبِّرَاً بِرغمِ اَلْأَلَمِ... وَكَأَنَّهُ كَانَ يَعِيشُ فِي عَالَمٍ مُخْتَلِفٍ عَمَّا يَعِيشُهُ اَلْآخَرُونَ مِمَّنْ مَعَه...

– يَقُولُ إِنَّهُ أَمِيرٌ اِبْنُ مَلِك سَيِّدِي... قَالَ نُوَا مُخَاطِباً قَاشِيلْ اَلَّذِي كَانَ يُمعنُ اَلنَّظَرَ فِي أَيُوبَا، وَيَسْتَفْسِرُ مِنْ نُوا عَنْ حَالِهِ قَبْلَ تَوَاجُدِهِ هَا هُنَا كعَبْد

– قُلْتَ أَنَّ وَالِدَهُ مَلِك؟؟

– نَعَمْ بِالضَّبْط... مِلْكٌ لِمَدِينَةٍ مِنْ مُدُنِ اَلسِّنْغَال... قَالَ نُوَا بَيْنَمَا كَانَ يَنْظُرُ نَحو أَيُوبَا اَلَّذِي كَانَ يَرْبِطُ قَطْعَةَ قُمَاشٍ عَلَى قَدَمِ طِفْلٍ جُرِحَتْ سَاقُهُ أَثْنَاءَ اَلْعَمَلِ..

– كَيْفَ لِأَمِيرٍ أَنْ يُصْبِحَ عَبداً؟؟... قَالَ قَاشِيل بِاسْتِغْرَاب، وَهُوَ يَرْبَتُ بِعَصَاهُ النّاعِمَةُ عَلَى كَفِّهِ ربتاً خَفِيفاً لَا يَخْلُو مِنْ اَلدَّهْشَةِ، وَالْعَجَب!!

– إِنَّهُ يَجِيدُ اَلْقِرَاءَةَ، وَالْكِتَابَةَ بِاللُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ... كَانَ يَهِمُّ بِشِرَاءِ اَلْوَرَقِ مِنْ أَسْوَاقِ تَانكرُول عَلَى شَوَاطِئِ غامْبيَا... وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ أغارت عَلَيْهِ إِحْدَى اَلْقَبَائِلِ، وَأَسرته، ثُمَّ بَاعَتْهُ لِسُفُنِ اَلرَّقِيقِ بِمَنْ مَعَه...

– وَوَالِدُه!! مَاذَا تَرَاهُ قَدْ فَعَل؟؟... قَالَ قَاشِيل

– أَحْرَقَ اَلْأَخْضَرَ، وَالْيَابِسَ لْاَسْتَرْجَاعه... يُقَال أَنَّهُ أَشْعَلَ حَرْباً عَلَى مَنْ أُسروه... وَحَاوَلَ اِفتِدَاءَهُ بِعَشَرَاتِ اَلْعَبِيد، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ... لَقَدْ وَصَلَتْنا اَلْأَخْبَارُ مِنْ اَلْعَبِيدِ الجُدُدِ اَلْقَادِمِينَ مِنْ هُنَاكَ... قَالَ نُوا مُشِيراً بِيَدِهِ نَحوَ اَلشَّرْق...

– قِصَّةٌ غَرِيبَةٌ بِالْفِعْل... مِنْ اَلْمُؤْسِفِ أَنْ يَتَحَوَّلَ اَلْحُرُّ إِلَى عَبْد!!... وَلَكِنَّ أَصْحَابَ اَلْبَشَرَةِ اَلسَّوْدَاءِ قَوَّادُونَ عَلَى بَعْضِهِمْ اَلْبَعْضِ... يُغيرُونَ عَلَى قَبَائِلِ بَعْضِهِم، وَيسبونَ اَلنِّسَاءَ، وَالرِّجَالَ،

وَالْأَطْفَال لِيَحْصُلُوا عَلَى اَلْمَال!!... أَغْبِيَاءُ فِعلاً...

قَالَ ذَلِكَ بَيْنَمَا هَزَّ رَأْسُهُ مُبْتَسِماً، ثُمَّ أَرْدَف:

- لَا أَظُنُّ أَنَّ شَخْصاً أبيَضاً سَيَأْسِرُ جَمَاعَةً مِنْ اَلْبَيْضِ، ثُمَّ يُقَايِضهُمْ بِبَضَائِعَ، وَأَثَاثٍ لِيَتِمْ اِقْتِيَادَهُمْ لِلْعَمَلِ كَعَبِيدٍ فِي أَفرِيقْيَا... لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلّا اَلْأَغبِيَاء... شَعبٌ ساذج!!

قَالَ قاشِيلْ كَلِمَاتُهُ مُنْصَرِفاً، وَقَدْ رَكِبَ فَرَسَهُ اَلسَّوْدَاءَ، وَانْصَرَفَ مِنْ جَانِبٍ نُوا بَعْدَ أَنْ شَتَمَ اَلْعِرقَ اَلْأَسْوَدَ لَاعِناً إِيَّاهُ دُونِ أَنْ يُعِرِ اَهْتِمَامَاً لِمَشَاعِرِ نُوا... اَلرَّجُلِ اَلْأَسْوَدِ اَلَّذِي نَسِيَ رُبَّمَا لِطُولِ اَلْمُدَّةِ أَنَّهُ مِنْ اَلسُّود... فَقَدْ كَانَ عَبْداً مُطِيعاً أَمِيناً عَلَى مُمْتَلَكَاتِ سَيِّده... حَرِيصاً عَلَى تَنْفِيذِ اَلْأَوَامِرِ دُونَ خَلَل... وَهُوَ اَلَّذِي فَقَدَ اَلْعَزْمَ، وَالْقُدْرَةَ عَلَى مُقَاوَمَةِ اَلْوَضْعِ اَلرَّاهِن... وَاَلَّذِي كَانَ يَعْتَبِرُهُ قَدَراً لَا فَكَّاكَ مِنْه... لِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ قَبُولِهِ، وَمُعَامَلَتِهِ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ وَاقِعٌ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى وَجْهِ اَلْبَسِيطَةِ مهما عَلَا قدرهُ، أَوْ عَلَى رُتْبَتِهُ، أَوْ مَكَانَته أَنْ يَقُومَ بِتَغْيِيرِهِ، أَوْ تَحْسِينِ ظُرُوفِهِ عَلَى أَقَلِّ تَقْدِير...

- 7 -

كَانَ أَيوبا رَجُلاً مُؤْمِناً شَدِيدَ التّمسُّكِ بِحَبْلِ رَبِّ اَلْعَالَمَيْن... لَمْ تَسْتَطِعْ سِيَاطُ اَلْجَلَّادِ، وَلَا صَرَخَاتِ اَلْعَبِيدِ أَنْ تَسْرِقَ مِنْ نَفْسِهِ اَلْعَزْمَ، وَالْإِرَادَة... كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ اَلْحُرِّيَّةَ هِيَ أَسْمَى مَا يَمْلِكُهُ اَلْمَرْءُ، وَأَثْمَنُ مَا يُفْقِدُهُ لِذَا، وَانْطِلَاقاً مِنْ ذَلِكَ اَلْفَهْمِ اَلْعَمِيقِ لِلْحَيَاة لَمْ يَكُنْ اَلْأَمِيرُ اَلْعَبْدُ قَادِراً عَلَى اَلِاسْتِمْرَارِ فِي ذَاكَ اَلْوَضْعِ اَلْمَأْسَاوِيّ.... فَجَسَدُهُ غَيْر اَلْمُهَيِّئِ لِمِثْلِ هَكَذَا أَعْمَال لَمْ يَسْتَطِعْ إِعَانَتَهُ عَلَى اَلِاسْتِمْرَارِ أَكْثَر!!... فَصَارَتِ اَلْآلَامُ تَغْزُو مَفَاصِلَهُ، وَعِظَامَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، فَلَا يَكُفُّ عَنْ اَلْأَنِينِ، وَالتَّلَوِّي عَلَى فِرَاشِهِ اَلرَّث، وَاَلَّذِي لَا يَصْلُحُ لِنَوْمِ بنِي اَلْبَشَر... وَمَعَ مُرُورِ عِدَّةِ أَشْهُرٍ عَلَى عَمَلِهِ فِي مَزْرَعَةِ أَلِكْسَنْدَر تولستوي بَدَأَ يَلْحَظُ اِسْتِسْلَامَ اَلْعَبِيدِ مِنْ حَوْلِهِ لِوَاقِعِهِمْ اَلْجَدِيدِ، وَتَقَبُّلِهِمْ لِذَاكَ اَلْحَالِ اَلْمُزْرِي اَلَّذِي آلوا إِلَيْهِ بَيْنَمَا كَانَ يَقْرَأُ اَلْقُرْآنَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ فِي لَيْلِهِ اَلدَّامِسِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ اَلْمُتْعَبَةِ اَلْمُثْقَلَةِ بِهُمُومِ اَلْعَمَلِ اَلَّذِي يَسْرِقُ أَيَّامَ عُمْرِهِمْ دُونَ شَفَقَةٍ، أَوْ رَحمة....

وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ اَلْقُيُودِ اَلْمَفْرُوضَةِ، وَالْمُرَاقَبَةِ اَلْحَثِيثَةِ إِلّا أَنَّ أَيوبا كَانَ مُلْتَزِماً بِأَدَاءِ صِلَاتِهِ كُلَّ يَوْم... تِلْكَ اَلصَّلَاةُ اَلَّتِي لَمْ يَعي العبيدُ

مِمَّنْ يَرَوْنَهَا كُنْهَ حَرَكَاتِهَا... وَأَبْعَادِ كَلِمَاتِهَا!!... كَانُوا يَرَوْنَهَا طُقُوساً غَرِيبَةً يُعَاقَبُ عَلَيْهَا أَيوبا أَحْيَاناً فِي حَالِ تَمَّ ضَبْطُهُ مُتَلَبِّساً بِالْقِيَامِ بِهَا...

– نَصَحْتُكَ مِراراً، وَلَمْ تَرْتَدِعْ... أَتْرَاهنُ عَلَى صَبْرِهِمْ فِي سَلْخِ جِلْدِكَ عَنْ بَدَنِكَ جُوبْ... قَالَ نُوَا مُؤَنِّباً أَيُوبَا اَلَّذِي تَعَرَّضَ لِلْجَلدِ بَعْدَ أَنْ ضَبَطُوهُ أَثْنَاءَ صِلَاتِه...

– اَلْمَوْتُ أَهْوَنُ عَلَيَّ مَنْ تَرْكِ صَلَاتِي أَيُّهَا اَلطِّيب... لَا تَأْبَه لِحَالِي... سَأَكُونُ بِخَيْرٍ بِإِذْنِ اَللهَّ... قَالَ أَيوبا بَيْنَمَا كَانَ يَتَلَوَّى تَحتَ أَيْدِي نُوا اَلَّذِي كَانَ يُحَاوِلُ وَضْعَ عشْبةٍ مَحَلِّيَّةٍ عَلَى جُرُوحِ أَيوبا بِقَصدِ مُسَاعَدَتِهِ عَلَى التّشَافِي سَرِيعاً...

– إِنَّهُمْ أَوْغَادٌ يا جوب... لَنْ يَتَفَهَّمُوا أَنَّ لَكَ دِيناً جَدِيداً تَتّبِعُ تَعَالِيمِهُ... لَا دِينَ هُنَا إِلَّا دِينُ اَلنَّصْرَانِيَّه... وَلَا رَبَّ لَدَيْهِمْ إِلَّا رَبُّه... لَا تَفْقِد تَعَاطُفَ قَاشِيل مَعَك... صَدّقَنِي لَنْ يَتوانَوا فِي بَترِ أَطْرَافِكَ أَمَامَ اَلْجَمِيعِ فِي حَالِ خَالَفَتهُمْ...

– أأنتَ بِخَيْر؟؟ قالَ جونيس متلفّتاً حولهُ خشيةَ أن يراهُ أحد بعدَ أن تركَ موقعهُ في العملِ، وجاءَ يسألُ عن حالِ أيوبا، ويطمئنَّ عن جراحهُ التي يعلمُ أنّها لن تكونَ على ما يُرام!!

– بخير جونيس.. اِلْتَحِقَ بِعَمَلِكَ قَبلَ أن تَنَالَ مَا نَالَ صَدِيقِك... قَالَ نوا مُحَذِّراً...

– بِخَيْرٍ عَزِيزِي... بَارَكَ اَللهُ بِك... عُد إِلَى عَمَلِكَ كَمَا طَلَبَ مِنْك... لَا أَوَدُّ أَنْ يَلحقَ بِكَ اَلْأَذَى بِسَبَبِي... هَزَّ جونيس رأسهُ مُوَافِقاً بَيْنَمَا انصَرفَ خِلسةً نَحْوَ حُقولِ اَلتُّبْغِ مَرَّةً أُخْرَى لِيَسْتَأْنِفَ اَلْعَمَلَ اَلَّذِي لَنْ يَنْتَهِيَ حَتَّى تَنْتَهِيَ أجسادُ اَلعبيْدِ أَنْفُسهُمْ... فَهَذِهِ اَلْأَرْضُ لَا تَعْرِفُ اَلرَّحْمَةَ، وَلَا اَلْعَطْفَ، وَلَا اَلْإِنْسَانِيَّة... فَتِلْكَ لَا تَذْهَبُ إِلَّا لِأَصْحَابِ اَلْبشَرَةِ اَلْبَيْضَاء!!... لِأَطْفَالِهِم... وَرِجَالِهِم... وَنِسَائِهِم... لِعُيُونِهِمْ اَلْمُلَوَّنَة... وَشِعْرِهِمْ اَلْأَشْقَرِ، وَالنَّاعِمِ اَلْمُسْتَرْسِل... وَلَيْسَتْ لِذَوِي اَلْبَشَرَةِ اَلْفَاحِمَةِ اَلَّتِي قَامَرتْ اَلْحَيَاةُ عَلَى حُرِّيَّاتِهِمْ، وَسَعَادَتِهِمْ، وَرَاحَةِ أَجْسَادِهِمْ...

- 8 -

عَلَى وَقْعِ آلَامِ تِلْكَ اَللَّيْلَةِ، وَبَيْنَ ضَجِيجِ أَفْكَارِهَا... كَانَتْ مَشَاعِرُ أَيُوبَا تَدْفَعُهُ نَحْوَ قَدَرٍ جَدِيد... تَحُثُّهُ عَلَى سُلُوكِ طَرِيقٍ آخَرَ قَدْ يَكُونُ صَعباً، وَمُضْنِياً، وَشَاقّاً، وَلَكِنَّهُ سَيَحْمِلُ اَلْخَلَاصَ حَتْماً... وَمَعَ هَذِهِ اَلْأَفْكَار... لَمْ يَعُدْ لِلْأَلَمِ أَثَرٌ، وَلَا لِلجُرُوحِ نَزٌّ، وَلَا للمَفَاصِلِ صَرَخَـاتٌ، وَ استغَاثات... كَانَتْ رُوحُ أَيُوبَا تَهِيمُ لِلتَّحلِيق... وَأَرْجُلُهُ اَلْمُدْمَاةُ تَتُوقُ لِلرَّكْضِ بَعِيداً عَنْ ذَلِكَ اَلْعَالَمِ اَلْمَجْبُولِ عَلَى اَلدَّمِ، وَالْحَرِيقِ، وَالْأَلَمِ...

وَمِنْ هَذِهِ اَللَّيْلَةِ بِالذَّاتِ أَصْبَحَ اَلْهُرُوبُ هَدَفاً لَا مُنَاصَ مِنْه... وَطُمُوحاً سَيُكَلِّفُ أَيوبا اَلْكَثِيرَ اَلْكَثِيرَ... طَرِيقٌ سَيَسْلُكُهُ اَلْأَمِيرُ اَلْعَبْدُ إِن عَاجِلاً، أَمْ آجِلاً... وَذَاكَ عَلَى اَلرَّغْمِ مِمَّا عَلِمَ أَنَّهُ سَيُلَاقِيهِ فِي حَالِ فَشِلَتْ خُطَّتُهُ، وَلَمْ يَكْتُبْ لِهُرُوبِهِ اَلنَّجَاح...

وَلَكِنْ لَا فِكَاكَ مِنْ اَلْمُحَاوَلَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْه... فَإِمَّا اَلْحَيَاةُ بِحُرِّيَّةٍ، وَكَرَامَةٍ، وَإِمَّا اَلْمَوْتُ فِدَاءً لَهَا... أُمَّا أَنْ تَعِيشَ أَمِيراً بِحَياةِ عَبْد، فَلَمْ يَكُنْ ذَاكَ اَلْأَمْرِ مُمْكِناً عَلَى اَلْمَدَى اَلْبَعِيْدِ بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ مِثْلِه يَمْتَلِكُ مِنْ اَلذَّكَاءِ، وَالْفِطْنَةِ، وَالْبِدِاهةِ مَا لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ... لِذَلِكَ لَمْ

يَسْتَطِعْ اَلصَّبْرَ أَكْثَرَ مِنْ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ عَلَى آلَامِهِ تِلْك حَتَّى وَدَّعَ اَلْكُوخَ اَلْفَقِيرَ ذَاك... وَ أجسادَ أَصْحَابِهِ اَلَّتِي تَغُطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ بَعْدَ تَعَبٍ شَاقٍّ... وَوَجَّهَ جُونيس اَلصَّدِيقُ اَلْأَقْرَبُ إِلَى قَلْبِهِ هَا هُنَا... ثُمَّ حَمَلَ قِرْبَةَ مَاءٍ، وَبَعْضَ اَلطَّعَامِ فِي شَالٍ مِنْ الصّوفِ الرّقِيقِ الذي رَبْطَهُ حَوْلَ جَسَدِهِ، وَتَرْكَ لِإِقْدَامِهِ مهمّةَ الانْطِلَاقِ فِي رِحْلَةٍ تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ مُكَلَّلَةً بِالنَّجَاح... وَلَكِنَّهَا مَعَ اَلْأَسَف... لَنْ تَكُونَ كَذَلِك!!

اَلْفَصْل اَلرَّابِع
اَلْهُرُوبُ، وَالسَّجْن:
- 1 -

يُطِلُّ اَلصَّبَاحُ مِنْ وَرَاءِ اَلْجِبَالِ اَلشَّامِخَةِ أَمَامَ أَعْيُنِ أَيُّوبَا الْمُتْعَبَتَيْنِ بَيْنَمَا تُطوى المسَافَاتُ تَحتَ أَقْدَامِهِ، وَقَدْ رَكَضَ بِكُلِّ مَا أُوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَبَأْسٍ، وَعَزِيمَة... لقْدِ اِنْقَضَتْ لِلتَّوِّ لَيْلَةٌ مِنْ أَصْعَبِ اَللَّيَالِي اَلَّتِي مَرَّتْ عَلَى أَيُّوبَا بَعْد لَيْلَةِ أَسْرِهِ اَلْأُولَى... كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَجْرِيَ مُنطلقاً كانطلاقِ اَلسَّهْمِ فِي أَيِّ اِتِّجَاهٍ كَان... فَذَاكَ لَا يَهُمُّ بِالنِّسْبَةِ لِهَارِبٍ مَثَلِهُ... فَكُلُّ اَلطُّرُقِ تَعْنِي اَلْحُرِّيَّةَ، وَالْانعِتَاق إِلَّا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمْضَى اَلْوَقْتَ وَهُوَ يَلُفُّ حَوْلَ نَفْسِه... وَلَكِنَّهُ اَلْآنَ وَبِمُجَرَّدِ أَنَّ طَلُعَت اَلشَّمْسِ أَضْحَى مُدْرِكاً أَنَّهُ اجتازَ أَرَاضٍ كَثِيرَةٍ تَبْعُدُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ اَلْمِنْطَقَةِ اَلَّتِي كَانَ يقطنُ بِهَا فِي مَزْرَعَةِ تُولِسْتُوي...

وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يَشْعُرُ بِكَثِيرٍ مِنْ اَلتَّعَبِ، وَالْإِرْهَاقِ، وَالْأَلَمِ إِلَا أَنَّهُ لَمْ يَتَجَرَّأْ عَلَى اَلْجُلُوسِ طَلَباً لِلرَّاحَةِ بُعِيدَ ذَاكَ اَلْجَرَيَانِ اَلْقاسِي فِي ظَلَامِ اَللَّيْلِ، وَسُكُونِهِ اَلْمَحْفُوفِ بِالْمَخَاطِرِ...

رَاقَبَ طُلُوعَ اَلشَّمْسِ بِعَيْنَي شَخْصٍ تاقَ لِصَبَاحٍ حُرٍّ كَهَذَا....

صَبَاحٌ يَخْلُو مِنْ اَلسِّيَاطِ، وَالْحُقُولِ، وَالْعَبِيدِ اَلْمُتْعَبِين... مِنْ صَرَخَاتِ هَؤُلَاء... وآلامِّ أُولَئِك... مِنْ وُجُوهٍ بَيْضَاءَ لَا تَعْكِسُ مَا بِأَنْفُسِ أَصْحَابِهَا....مِنْ كُوخٍ فَقِيرٍ يَلِيقُ بِحَياةِ اَلْعَبِيد...

فِي مَزْرَعَةِ أَلِكْسَنْدَرْ تولستُوي... كَانَ لِلصَّبَاحِ نَكْهَةٌ أُخرى... عَبدٌ فَـارٌّ... عبيدٌ مُتَّهَمُونَ بِالتَّوَاطُؤ... أَصَابِعُ اِتِّهَـام تَمُدُّ نَحْو جُونِيسْ... وَحُرَّاسٌ تُجلَدُ لِغَفْلَتِهَا عَلَى مَرْأًى، وَمَسْمَعٍ مِنْ اَلْعَبِيد...

كَانَ قَدْ سَبَقَ لِأَيُّوبَا أَنْ حَضَرَ مَرَاسِمَ اَلتَّحْقِيقِ بِفِرَارِ اَلْعَبِيد... وَلِذَلِكَ كَانَ يَعْلَمُ مَا سَتَؤُولُ إِلَيْهِ اَلْحَالُ فِي تِلْكَ اَلْمَزْرَعَةِ اَلْمَشْؤُومَةِ، وَفِي كُوخِ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِي لَا يَتَحَمَّلُ اَلْمَزِيدَ مِنْ اَلْأَلَم، وَالظُّلْم، وَالْخَوْف... كَانَ يَتَمَنَّى فِي سِرِيرِيتَهْ أَن لَا يُلْحِقَ اَلْأَذَى بِأَيِّ شَخْصٍ مِنْ اَلْبَشَرِ لِأَجْلِهِ فِي تِلْكَ اَللَّيْلَةِ اَلَّتِي حَاوَلَ بِهَا أَنْ يَكُونَ حُرّاً مِنْ جَدِيد...

فِي حُقولِ أَمْيركا اَلْغَرِيبَةِ عَلَى أَقْدَامِ اَلْعَبْدِ اَلْأَسْوَدِ، وَبَيْنَ أَشْجَارِهَا، وَمُحَاذَاةِ أَنْهَارِهَا... دُهِشَ أَيُّوبَا لِسُخْرِيَةِ اَلْقَدَر!!... فَمُنْذُ عِدَّةِ أَشْهُرٍ فَقَطْ كَانَ هُنَاكَ فِي أَفْرِيقْيَا يَجْلِسُ بَيْنَ أَبْنَائِهِ، وَزَوْجَتِيه... يَقُومُ اَلْخَدَمُ عَلَى خِدْمَتِهِ، وَالِاهْتِمَامِ بِحَمْلِ أَغْرَاضِهِ شَدِيدَةِ اَلْبَسَاطَة!!... طَعَامُهُ سَاخِنٌ، وَشْهِيٌّ اَلْأَصْنَافِ زاكيَ اَلرَّوَائِح... وَالِدُهُ اَلْمَلِكُ بِعِظَمِةِ قَدْرِهِ، وَكَمِّ جَبَرُوتِهِ... يَقْضِي مُعْظَمَ وَقْتِهِ فِي قِرَاءَةِ اَلْقُرْآنِ، وَارْتِيَادِ حَلَقَاتِ اَلْوَعْظِ، وَالذِّكرِ، وَالتَّفْسِير.... كَانَ هَادِئَ اَلْبَالِ بِكُلِّ مَا لِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ

مِنْ مَعْنىً... وَلَمْ يَكُنْ لِيَحْلُمَ بِأَنَّهُ سَيطأُ أَمْيركَا عَبْداً مُقَيَّداً حَافِيَ اَلْقَدَمَيْنِ...حَلِيقَ اَلرَّأْسِ، وَاللِّحْيَةِ، وَقَدْ اِخْتَرَقَ اَلْحَدِيدُ اَلْحَارُّ جَسَدُهُ لِيَتْرُكَ ذَاكَ اَلْوَشْمَ اَلَّذِي سَيُرافِقُ رُوحَهُ، وَجَسَدُهُ إِلَى اَلْأَبَد...

وَالْأَغْرَبُ فِي ذَلِكَ اَلْمَشْهَدِ أَنَّ أَيُوبَا لَمْ يَكُنْ عَلَى عِلْمٍ بِالوجْهَةِ اَلَّتِي سَيَنْتَهِي بِهَا سَفَرُهُ الطّوِيل!!

لَقَدْ تَرَكَ لَقَدَمَيهِ مُهِمَّةَ اَلْهُرُوبِ دُونَ أَنْ يُوَجِّهَهَا اَلْعَقْلُ، وَالْمَنْطِق... وَكَفِكْرَةٍ أُوَلِّيهْ خَطَرَ لَهُ تَسَاؤُلٌ رهِيب!!... حَدَّثَهُ اَلصَّوْتُ الدّاخِلِيُّ بِهُدُوءٍ، وَتَروٍّ سَائِلاً إِيَّاهُ إِلَى أَيْنَ تَتَّجِهُ يَا أَيُوبَا؟؟...لَقَدْ سارَتْ بِكَ اَلسُّفُنُ قُرَابَةَ شَهْرَيْنِ، وَأَكْثَرَ حَتَّى وَصَلَتَ هَذِهِ اَلْيَابِسَة!!... فَإِلَى أَيْنَ تَظُنُّ أَنَّكَ تَهَرُّبُ، وَكُلُّ مَا حَوَّلَكَ بَيْضُ بِقُلُوبٍ سَوْدَاء؟؟... بَيْنَكَ، وَبَيْنَ أَفْرِيقْيَا بَحَّاراً، وَمِيَاهاً لا انْتِهَاءَ لَهَا... فَأينَ مُبْتَغَاكَ يَا تُرَى؟؟... وَإِلَى أَيِّ مَكَانٍ سَتَرْتَمِي بَعْدَ هَذَا اَلْهُرُوبِ اللّاعَقْلَانِي؟؟

تَوَقّفَ أَيوبا فَجْأَةً عِنْدَ سَمَاعِهِ لِذَاكَ الصّوْت... كَانَ مُحِقّاً إِلَى اَلدَّرَجَةِ اَلَّتِي لَا يَمْتَلِكُ أَمَامَهُ دَلِيلاً لِيدَحِضه، أَوْ سَبَباً لِيُدَافِعَ بِهِ عَنْ قَرَارِه.!!

خَرَّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ أَخِيراً، وَتَوَقَّفَ عَنْ اَلْمُسِيرِ لِأَجَلِ اَلْمَسِيرِ، ثُمَّ رَاحَ يُهَدِّئُ حَوَاسهُ، وَأَعْضَاءَ جَسَدِهِ لِيُفَكِّرَ بِعَقْلٍ، وَحِكْمَة... رَاحَ يُرَاقِبُ أَنْفَاسَهُ اَلْعَمِيقَةَ، وَيُرَدِّدُ اَللهُ أَكْبَرُ مَعَ كُلِّ شَهِيقٍ، وَزَفِير.... شَعَرَ

بِلَحَظَاتٍ مِنْ اَلسَّكِينَةِ، وَاللُّطْفِ بَيْنَمَا بَدَلا يَشْحَنُ جَسَدهُ،وَرُوحَهُ مِنْ نُورِ اَلشَّمْسِ اَلْقَوِيِّ اَلسَّاطِعِ اَلَّذِي كَانَ يَغْمُرُهُ كَشَلَّالٍ مِنْ اَلضَّوْء... ضَوْءٌ يَتَخَلَّل جَسَدَهُ، وَيَمْنَحُ اَلْأَمَانَ، وَالدِّفْءَ لِخَلَايَاه مَعَ تَرَقْرُقِ مِيَاهِ النَّهْرِ اَلْقَرِيبَةِ مِنْه، وَاَلَّتِي كَانَ عَلَى أَيُوبَا أَنْ يَمْشِيَ بِمُحَاذَاتِهَا كَيْ لَا يَظَلَّ اَلطَّرِيق...

- 2 -

بَيْنَ اَلْخَـوْفِ، وَالْأَمَــان... وَالسُّرْعَةِ، وَالْبُطْءِ... وَالْجُـوعِ، وَالشِّبَع... قَضَى أيوبا أَيَّاماً لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْدِيرَ كم انقَضَى مِنْ سَاعَاتِهَا أَثْنَاءَ تَوَجُّهِهِ نَحْوَ اَلشَّمَال... فَعَلَى وَقْعِ تَقَلُّبَاتِ اَلْمُنَاخِ بَيْنَ اَلْحَرَارَةِ، وَالْبُرُودَةِ، وَتَناوبِ باللَّيْلِ، وَالنَّهَارِ عَلَى جَسَدِهِ اَلْأَسْوَدِ، وَرُوحَهُ اَلنَّقِيَّةِ اَلْبَيْضَاءَ اَلصَّافِيَة... كَانَ قَدْ اِنْقَضى مَا يُقَارِبُ اَلسِّتُّونَ سَاعَة عَلَى اِنْطِلَاقِهِ اَلَّذِي تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ مُوَفَّقاً مِنْ كُوخِ اَلْعَبِيدِ ذَاك... وَلِأَنَّ قُدْرَةَ اَلْإِنْسَانِ تَفُوقُ مَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَيَّلَ هُوَ نَفْسُه... فَقَدْ مَشَى أيُوبَا عَلَى قَدَمَيْهِ اَلْحَافِيَتَيْنِ... وَبِرَأْسِهِ اَلْحَاسِرُ... وَجَسَدُهُ اَلْمُنْهك دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بَأَلْمِ تِلْكَ اَلسَّاعَاتِ اَلَّتِي تَرَكَهَا خَلَفَهُ فِي رِحْلَةِ اَلْخَلَاصِ مِنْ نيرِ اَلْعُبُودِيَّةِ، وَالْبَحْثِ عَنْ اَلْحُرِّيَّة...

رَاقَبَ اَلنُّجُومَ فِي اَللَّيْل... حَمّلَهَا اَلسَّلَامَ لِأَشَانْتِي، وَبِيجُوم، وَأَطْفَالِهِ اَلْأَرْبَعَة... أَرْسَلَ عَبْرَهَا اَلْقُبَلُ لكفّي وَالِدِهِ سُلَيْمَان عَلَى رَغْمِ مَا اِقْتَرَف!!... طَلَبَ مِنْهَا أَن تَمسحَ دُمُوعَ عَيْنَيْه، وَأَنْ تَغْسِلَ عَايَ كَفِيَّه، وَهُوَ اَلْأَثِمُ بِبَيْعِ أَبْنَاءِ جَلَدتِه... اَلْمُذنبُ بِتَعْرِيضِ عَشَرَاتِ اَلْبَشَرِ لِمَصِيرٍ قَدْ أَذَاقَهُ اَللهُ لِابْنِهِ عَلَى يَدَيْهِ ذَاتَ يَوْم...

فِي تِلْكَ السّاعَاتِ اَلْقَصِيرَةِ تَعَلَّمَ أَيُوبَا اَلْكَثِيرَ مِنْ دُرُوسِ اَلْحَيَاةِ، وَعِبَرِهَا... فَالْحُرُّ قَدْ يُمْنَى بِالْعُبُودِيَّة!!... بل إنَّ ذاكَ ضَرْبٌ مِنْ ضرُوبِ اَلْأَقْطَابِ فِي كَوْنِنَا اَلَّذِي يَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ اَلسَّالِبِ، وَالْمُوجب... فَكُلُّ ليلٍ سيتلوهُ نَهار... وَكُلُّ أَلَمٍ سَيَعْقُبُهُ فَرَج... وَكُلُّ طُلُوعٍ سَيَنْتَهِي بِالنُّزُولِ، وإنْ اِمْتَدَّ إِلَى أَبْعَدِ اَلْحُدُود... فِي سَاعَاتِ اَلْمَسِيرِ اَلْأَخِيرَةِ، وَاَلَّتِي اِمْتَدَّتْ نَحْوَ ثلاثٍ، وسبعينَ سَاعَةٍ... أَيْ مَا يُقَارِبُ ثَلَاثَةَ أَيَّام، وَنِصْف بَدَأَ أَيُوبَا يُلَمحُ مُزَارِعاً تُشْبِهُ مزارعَ تُولِسْتُويْ اَلَّتِي كَانَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهَا... كَانَتْ تَلُوحُ لَهُ مِنْ بَعِيدٍ بِعَبِيدِهَا، وَأسيادهَا، وَمَاشِيَتِهَا، وَأَكْوَاخِهَا... لِذَلِكَ فَضَّلَ عَدَمَ اَلْمَشْيِ أَثْنَاءَ اَللَّيْلِ كَيْ لَا يَدْخُلَ إِحْدَاهَا دُونَ قَصْدٍ، أَوْ دِرَايَةٍ فَيُفتَضحَ أَمْرُهُ، وَيَتِمَّ إِرْجَاعُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَى... كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ طُلُوعَ اَلْفَجْرِ اِلَيَوْمِ اَلتَّالِي كَي يَسْتَأْنِفَ مَسِيرُهُ بِاتِّجَاهِ اَلْمَجْهُول...

... فَلَعَلَّ صُدْفَةً مِنْ صُدفِ اَلْحَيَاةِ اَلْجَمِيلَةِ تلفُّ جَسَدَهُ اَلْمُتْعَبَ... أَوْ أَنَّ بَاباً مِنْ أَبْوَابِ اَلْفَرَجِ اَلْمُهِيبِ يَفْتَحُ لَهُ مِصْرَاعَيْهِ لِيَدْخُلَ عَالَماً جَدِيداً مُخْتَلِفاً كُلِّ اَلِاخْتِلَافِ عَنْ عَالَمِ أَمْيركَا اَلْجَدِيد...

- 3 -

لَيْلَةٌ أخيرةٌ فِي حُلْمِ اَلْحُرِّيَّة... لَيْلةٌ ملأى بِالذُّعْرِ، وَالْكَوَابِيسِ... لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يخلدَ أَيوبا فِيهَا لِنَوْمٍ هَادِئٍ عَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ اِخْتِيَارِهِ لِمَكَانٍ مُرْتَفِعٍ عَنْ اَلْأَرْضِ يَسْتَطِيعُ مِنْ خِلَالِهِ اَلنَّوْمَ بِحُرِّيَّةٍ، وَأَمَانٍ بَعِيداً عَنْ مَشَاعِرِ اَلشَّكِّ، وَالرّيبة... وَلَكِنَّهُ لِسَبَبٍ يَجْهَلُهُ لَمْ يَسْتَطِعْ اَلنَّوْمُ بِعُمْقٍ فِي تِلْكَ اَللَّيْلَة... فَكُلَّمَا دَخَلَ مَرْحَلَةَ اَلنَّوْمِ اَلْعَمِيقِ اِنْتَفَضَ جَسَدُهُ بِشِدَّةٍ، وَكَأَنَّهُ قَدْ سَقَطَ مِنْ حَافَّةِ جَبَلٍ شَاهِق... وَلِلْأَسَف، فَقَدْ تَكَرَّرَ ذَاكَ اَلشُّعُورِ عَلَى اَلرَّجُلِ اَلْمُتْعَبِ مِنْ طُولِ اَلْمَسِيرِ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، فَقَامَ أَخِيراً، وَبَدَأَ يَتَفَحَّصُ قَدَمَهُ اَلْعَرْجَاءَ مِنْ شِدَّةِ اَلْأَلَمِ، وَيَمْسَحُ عَلَى كَاحِلِهِ بِرِفْقٍ، وَقَدْ غَمرهُ ضَوْءُ اَلْقَمَرِ بِشُعُورٍ آمِنٍ لِلْمَرَّةِ اَلْأُولَى هَذِهِ اَللَّيْلَة....

كَانَتْ أَصْوَاتُ اَلْكِلَابِ فِي اَلْمَزَارِعِ اَلْمُحِيطَةِ سَبَباً، وَلَا شَكّ لِقَلَقِ أَيوبا فِي هَزِيعِ ذَلِكَ اَللَّيْل... وَلَكِنَّ صِلَاتِهِ مِنْ أَعْلَى تِلْكَ اَلصَّخْرَةِ اَلَّتِي اِخْتَارَهَا فِي لَيْلَتِهِ اَلْأَخِيرَةِ تِلْكَ بَعَثَتْ فِي دَاخِلِهِ شُعُوراً بِالسُّكُونِ، وَالْأَمَلِ مِنْ جَدِيد... شَعَرَ أَنَّهُ مُحَاطٌ بِطَاقَةٍ إِلَهِيَّةٍ غَايَةٍ فِي اَلرَّوْعَةِ سَتُمْكِنُهُ مِنْ اَلتَّغَلُّبِ عَلَى كُلِّ اَلصِّعابِ اَلَّتِي سَتَتَحَدَّى صَبْرَهُ فِي تِلْكَ اَلْفَتْرَةِ اَلْمُقْبِلَة..

- اَللَّهُمَّ لَا تُحِد طَرِيقِي عَنْكَ، وَلَا تَتَخَلَّ عَنْ عَبْدِكَ اَلْمَنْكُوبِ فِي دَرْبِهِ اَلطَّوِيل... قَالَ أَيُّوبَا بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ، وَقَدْ بَدَأَ مُنَاجَاةَ اَللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - بَعْدُ أَنْ أَنْهَى صِلَاتَهُ، وَفَتْحِ كَفَّيْهِ اَلْمُتَقَارِبَتَيْنِ، وَقَدْ عَلَّقَ بَصَرُهُ بِغيومِ اَلسَّمَاءِ اَلْمُتَحَرِّكَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ:

- اَللَّهُمَّ إِنِّي جِئْتُكَ حَافِياً عَارِيًا لَا حَوْل لِي، وَلَا قُوَّة... بُلِيتُ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ صَبْرِي... وَمُنِيتُ بِمَا تَسْتَسْلِمُ أَمَامَهُ حِيلَتِي... وَأَنْتَ اَلْوَاحِدُ اَلْأَحَد... مِنْ يَسْمَعُ، وَيَرَى، وَيَمُدُّ لِعَبادهُ اَلْمَنْكُوبينَ يَدَ اَلْخَلَاص...

اَللَّهُمَّ إِن كَانَ طَرِيقِي هَذَا هُوَ طَرِيقِي إِلَيْكَ، فَإِنَّنِي رَاضٍ بِمَا اِبْتَلَيْتَنِي بِهِ... مُسْلِّماً لَكَ اَلْأَمْرَ، وَالرُّوحَ، وَالْجَسَد... لِيُمْضِي بِي حُكْمُكَ، وَلْتَكُنْ مَشِيئَتُك... قَالَ أَيُّوبا كَلِمَاتَهُ اَلْأَخِيرَةَ بَيْنَمَا سَجدَ للهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - وَقَدْ غَسلَتْ الدّمُوعُ الغَزِيرَةُ وَجْهَهُ، وَأَتْعَبَتِ اَلصَّخْرَةُ رُكَبَهُ، وَأَدِيمَ جَبْهَتِه... وَلَكِنَّ اَلْعَبْدَ اَلَّذِي قَصَدَ وَجْهُ رَبِّهِ كَانَ قَدْ اِعْتَادَ عَلَى اَلْأَلَمِ اَلْجَسَدِيِّ نَوْعاً مَا، وَلَمْ يَعُدْ ذَاكَ اَلْأَمِيرَ اَلَّذِي يَرَى آلَامَ مِنْ هُم أَدْنَى مِنْهُ مِنْ مَسَافَةٍ شَاهِقَة... لَقَدْ صَارَ فِي لُجَّةِ اَلْعُبَاب... فِي مَرْكَزِ اَلْحَرِيق... وَفِي قَلْبِ اَلْعَاصِفَة... وَها هِيَ اَلشَّمْسُ تَبزغُ مِنْ خَلْفِ اَلْجِبَالِ لِتُعْلِنَ بِدَايَةَ يَوْمٍ جَدِيدٍ مِنْ اَلْمَسِيرِ اَلَّذِي سَيَنْتَهِي... وَلَكِنْ لَيْسَ عَلَى لَيْلَةٍ كَهَذِهِ اَللَّيْلَةِ، وَإِنَّمَا عَلَى وَاقِعٍ سَيَتَمَنَّى أَيوبا لَوْ أَنَّهُ كَانَ حُلْماً، أَوْ لَوْ أَنَّهُ سَقَطَ حَقِيقَةً مِنْ عَلَى حَافَّةِ ذَلِكَ اَلْجَبَلِ اَلشَّاهِق!!

- 4 -

صَبَاحٌ لَيْسَ كَأَيِّ صَبَاح... ويَوْمٌ لَيْسَ كَأَيِّ يَوْم... بَعْد سَاعَاتٍ مِنْ اَلْمَشْيِ، وَالرَّكْضِ بَيْنَ فَتْرَتَيْ اَلْفَجْرِ، وَسَاعَاتِ اَلصَّبَاحِ اَلَّتِي تَسْبِقُ وَقْتَ اَلظَّهِيرَةِ... وَقْفَ أَيُوبَا مُتَجَمِّداً أَمَامَ لُهَاثِ اَلْكِلَابِ اَلَّتِي تَمُدُّ أَلْسِنَتَهَا اَلَّتِي تَقطرُ لُعَاباً بَيْنَمَا تَكَادُ تُجْنُّ لِلْوُثُوبِ عَلَى جَسَدِهِ لَوْلَا أَنَّهَا كَانَتْ مَرْبُوطَةً بِسَلَاسِلَ حَدِيدِيَّةٍ تُمْسكُ بِهَا أَكُفُّ أَصْحَابِهَا...

فِي ذَاكَ اَلْمَشْهَدِ اَلْمَهِيبِ اَلْمُرَوِّعِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَيوبا اَلِالْتِفَاتَ حَوْلَهُ، أَوْ اَلْحَرَاك... جَثا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضْعِ كَفَّيْهِ خَلْفَ رَأْسِهِ بِوَضْعِيَّةِ اَلِاسْتِسْلَامِ، وَقَدْ شَعَرَ بِدَقَّاتِ قَلْبِهِ تَكَادُ تَكْسِرُ أَضْلَاعَ جَسَدِه... كَانَ عَاجِزاً عَنْ فَهْمِ اَلْكَلِمَاتِ اَلَّتِي يَصْيحونَ بِهَا، وَالْغَرَضِ اَلَّذِي كَانُوا يَوَدُّونَ أَنْ يَفْهَمَه... وَلَكِنَّهُ عَرَفَ مِنْ حَرَكَاتِ أَصَابِعِهِم، وَنَظَرَاتِ عُيُونِهِمْ أَنَّهُ اَلْآنَ فِي مَأْزِقٍ حَقِيقِيّ... مَأْزِقٌ لَا يُمْكِنُ لِبُشْرَيٍّ أَنْ يُحسدهُ عَلَيْه...

فِي أَدْغَالِ تِلْكَ اَلْوِلَايَةِ اَلَّتِي عَرفَ بَعْدَهَا أَنَّ اِسْمَهَا بنْسَلْفَانْيَا... سَارَ أيوبَا أَمَامَ مُعْتَقِلِيهِ مِنْ اَلْبَيْضِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَحَاشَى أَنْيَابَ كِلَابِهِمْ اَلَّتِي مَا فَتِئتُ تَحُكُّ وَبَرَ أَجْسَادِهَا بأديمِ ساقيه...

لَقَدْ عَادَتِ اَلْقُيُودُ اَلْحَدِيدِيَّةُ مِنْ جَدِيد... قَالَ أَيُوبَا مُحْدِّثًا نَفْسُهُ سِرّاً، وَقَدْ بَدَأَ الْيَأْسُ، وَالْعَجْزُ يَقْضِي عَلَى لِسَانِ شَمْعَةِ اَلْأَمَلِ اَلَّذِي تَأَجَّجَ لَدَيْهِ فِي أَيَّامِهِ اَلسَّابِقَة... فكّر فِي اَلْمَصِيرِ اَلَّذِي سَيَلْقَاهُ بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى مَزْرَعَةِ تُولِسْتُوي... اَسْتِذكرَ كُلَّ اَللَّحَظَاتِ اَلْعَصِيبَةِ اَلَّتِي مَرَّ بِهَا... دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَاحْتَقَنَ صَدْرِهُ... وَشِعرَ بِحُزْنِ كُلِّ أُولَئِكَ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ حَاوَلُوا اَلْهُرُوبَ، وَوَقعُوا فِي شِبَاكِ أسيادِهِمْ اَلْبَيْضِ مَرَّةً أُخْرَى...

كَانَ اَلْمَشْيُ صَعْباً هَذِهِ اَلْمَرَّة... أَحَسَّ بِكُلِّ تِلْكَ اَلْحَصَى، وَالصُّخُورِ اَلَّتِي اِعْتَرَضَتْ طَرِيقَهُ، وَاَلَّتِي لَمْ يُلِ لَهَا اِهْتِمَاماً أَثْنَاءَ تَحلِيقِهِ فِي فَضَاءِ اَلْحُرِّيَّةِ اَلْقَدِيم... وَالْآن، وَبَعْدِ أَن قصَّ مِنْ يَقْتَادُهُ جَنَاحَيه... أَصْبَحَ أَيوبا كَالْفَرَاشَةِ اَلَّتِي اِحْتَرَقَتْ أَجْنِحَتَهَا حَوْلَ قَبَسِ اَلنُّورِ عِنْدَمَا ظَنَّتْ أَنَّهُ طَرِيقُ اَلْحُرِّيَّة...

اِنْتَهَى اَلْمَسِيرُ أَخِيراً، وَهَا هُوَ مَبْنَى سِجنِ بِنسفانيا اَلْكَبِيرِ اَلْمُمْتَدِّ عَالِي اَلْأَسْوَارِ يَفْتَحُ ذِرَاعَيهِ مُرَحِّباً بِنَزِيلِهِ اَلْجَدِيد... وَعَلَى وَقْعِ صَفَعَاتِ اَلْحَارِسِ اَلَّذِي اِسْتَقْبَلَ أَيُوبَا بِأَكُفٍّ مِنْ حَدِيد... تَسَمَّرَ أَيُوبَا فِي مَكَانِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْمِيَهُ اَلْأَخِيرُ نَحْوَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلْمُظلمةِ شَدِيدَةِ اَلنَّتِن... كَانَت حَوَاسُّهُ حَاضِرَةً إِلَى أَبْعَدِ اَلْحُدُود، فَقَدْ اِسْتَطَاعَ بِثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ أَنْ يَشُمَّ رَائِحَةَ اَلْمَكَانِ اَلَّتِي تَبْعَثُ عَلَى اَلتَّقَيُّؤِ، وَ أن يَرَى مَدَى بَشَاعَةِ اَلْغُرْفَةِ، وَقَذَارَتِهَا... وَ أن يَسْمَعَ ضَحِكَاتٍ مُنْبَعِثَةٍ مِنْ أَفْوَاهِ اَلسُّجَنَاءِ اَلَّذِينَ يَتَقَاسَمُونَ مَعَهُ ذَاتَ اَلْجَحِيم... لَمَسَ وَجْهُهُ اَلْأَرْضُ، وَقَدْ

اِلْتَصَقَ بِهَا مُبَاشَرَةً... لَمْ يُحَاوِلْ اَلتَّحَرُّكَ، أَوْ اَلْقِيَامَ تَارِكاً لِجَسَدِهِ حُرِّيَّةَ اَلِاسْتِسْلَامِ، وَافْتِرَاشِ اَلْأَرْضِ اَلْقَاسِيَةِ، وَاَلَّتِي لَنْ تَكُونَ بِأَيِّةِ حَالٍ أَقْسَى مِنْ أَكُفٍّ أُولَئِكَ اَلَّذِينَ يَدَّعُونَ اَلْمَحَبَّةَ، وَالْإِنْسَانِيَّة...

وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ أَنَّ أَيُوبَا كَانَ اَلْآنَ بَيْنَ أَصَابِعِ اَلْجُدْرَانِ اَلسَّمِيكَةِ جِدّاً، وَاَلَّتِي تَخْتَرِقُها نَوَافِذٌ صَغِيرَةُ اَلْحَجْمِ، تُقَطِّعُهَا قُضْبَانُ اَلْحَدِيدِ اَلسَّمِيكَةِ... إِلّا أَنَّ سَجَّانَيْهِ لَمْ يُفَكِّرُوا فِي نَزْعِ اَلْقيودِ مِنْ يَدَيْهِ، وَكَاحِلَيْهِ... فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ عُقُوبَةٌ إِضَافِيَّةٌ عَلَى أَيُوبَا تَحْمّلهَا إِضَافَةً إِلَى حِرْمَانِهِ مِنْ اَلطَّعَامِ لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَامِلَة....

اَلْإِيمَانُ اَلْعَظِيمُ هُوَ اَلْخَلَاصُ اَلرَّحِيم... فِي صِعَابِ اَلْحَيَاةِ، وَنَوَائِبِهَا تَخْتَبِرُ اَلظُّرُوفُ قُوَّةَ إِيمَانِنَا، وَمِقْدَارَ تَحَمُّلِنَا، وَعَزْمَ إِرَادَتِنَا... تَقَدَّمُ لَنَا اَلِامْتِحَانَاتُ اَلَّتِي نَسْتَحِقُّهَا، وَاَلَّتِي تَتَمَاشَى مَعَ مَقْدِرَتِنَا عَلَى اَلتَّحَمُّل... وَكَمَا يُقَال إِنَّ اَللهَّ يَمْنَحُ أُصْعبَ مَعَارِكِهِ لِأَقْوَى جُنُوده... لَقَدْ كَانَ أَيوبا مُؤْمِناً قَوِيّاً لَمْ تُزَحْزِحْهُ اَلْمَصَائِبُ عَنْ دِينِ اَللهَّ قَيْدَ أُنملة... وَلَمْ تُشِح بِهِ اَلْخُطُوبُ عَنْ دَرْبِ اَلرَّحْمَنِ مَسَافَةَ شَعْرَةٍ وَاحِدَة... وَقَدْ اِسْتَطَاعَ اَلْعَبْدُ اَلْأَسْوَدُ اَلسَّجِينُ فِي سجُونِ بنسَلْفَانْيَا أَنْ يَظَلَّ مُحَافِظاً عَلَى صِلَاتِه، وَنَجْوَاه عَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ كُلِّ تِلْكَ اَلْمُعَوِّقَاتِ... وَمِنْ كُلِّ ذَاكَ اَلتّضييقِ، وَالتَّعْذِيب... صِلَاتُهُ اَلَّتي كَانَتْ سَبَباً إِضَافِيّاً فِي اِسْتِهْزَاءِ اَلسُّجَنَاءِ بِهِ، وَإِلْحَاقِهِمْ اَلْأَذَى اَلنَّفْسِيَّ، وَالْجَسَدِيَّ بِذَاكَ اَلشَّخْصِ اَلَّذِي لَمْ يُؤْذِ بِالْمُقَابِلِ نَمْلَةً، أو صخرةً، أَوْ

غُصْنَ شَجَرَة...فَرَاحَتِ اَلْمُعَامَلَةُ اَلْقَاسِيَةُ تَنْهَشُ بِجَسَدِهِ اَلَّذِي تَحمّلَ كُلَّ أَنْوَاعِ اَلتَّعْذِيبِ بَعْدَ أَنْ تَجُرَّأَ عَلَى اَلْفِرَارِ مِنْ مَزْرَعَةِ وَلِيِّ نِعْمَتِهِ...

جلدٌ، وَحَرْقٌ، وَتَجْوِيعٌ، وَتَنْكِيل... وَلَمْ يَجِدْ هُنَاكَ إِلَّا إِيمَاناً بِاَللهَّ، وَإِلَّا تَقَرُّباً مِنْ وَجْهِهِ اَلْكَرِيم... وَبِالْمُقَابِلِ لَمْ يَحتَجْ اَلْأَمْرُ سِوَى يَوْمٍ وَاحِدٍ حَتَّى وَصَلَ خَبَرُ اِحْتِجَازِهِ لِمَالِكِ اَلْمَزْرعةِ تُولِسْتُويْ، وَلِلْمَسْؤُولِ عَنْهُ قَاشِيل دينتون، وَاَلَّذِينَ تَأَخَّرَا فِي اَلذَّهَابِ فِي أَثَرِهِ لِاسْتِعَادَتِهِ بَعْدَ أَنْ أُوصَيا بِإِلْحَاقِ اَلْكَثِيرِ مِنْ اَلْعَذَابِ، وَالْأَلَمِ بِجَسَدِ جُوب... ذَاكَ اَلْعَبْدُ الضّعِيفُ اَلَّذِي مَا كَانَ يُتَوَقَّعُ مِنْهُ أَنْ يَجْرُؤَ عَلَى اَلتَّفْكِيرِ بِسلوكِ سِكَّةِ اَلْهَرَب!!

- 5 -

عَلَى طينِ أَرْضِ اَلْغُرْفَةِ اَلصُّلْبَةِ اَلْقَاسيةِ كَانَ أَيُوبَا يُمَارِسُ طُقُوسَ صِلَاتِهِ غَيْرُ آبهٍ بِنَزِيفِ جَسَدِهِ، وَكَدَمَاتِ أَعْضَائِهِ اَلَّتِي لَمْ يَتَّضِحْ لَوْنُهَا اَلْأَزْرَقُ عَلَى جِلْدِه اَلْأَسْوَد...

كَانَ يَنْفَصِلُ بِصِلَاتِهِ عَنْ آلام جَسَده، وَعُنْفِ مَنْ حَوْلِهِ مِنْ اَلسُّجَنَاء... يَفْتَحُ كَفَّيْهِ قَاصِداً اَللهَ غَيْرَ مُعْتَرَضٍ عَلَى مَا أَلَمَّ بِهِ، ذارفاً اَلدُّمُوعَ أَمَامَ وَجْهِهِ اَلْكَرِيم... بَاثّاً شَكْوَاهُ لِمَنْ لَا يُرُدُّ عِنْدَهُ طَلَب، وَلَا يُرْفَضُ أَمَامَ مَلَكُوتِهِ أَحَد... فَجَمِيعُنَا هُنَاكَ سَوَاسِيَة... أَبْيَضُنَا، وَأَسُودُنَا... تائِبُنَا، وَمُخْطِئنا... سَجَّانُنَا، وَسْجنينَا...

وَمَعَ هَذَا اَلْحَالِ مِنْ اَلِاسْتِسْلَام، وَالْحُبِّ اَلْغَامِرِ تَسَرَّبُ شَيْءٌ مِنْ اَلنُّورِ إِلَى قُلُوبِ اَلسُّجَنَاءِ، وَالسَّجَّانِين... رَاحُوا يُرَاقِبُونَهُ بِاهْتِمَام... يعْجَبُونَ لِذَاكَ اَلْكَمِّ اَلْهَائِلِ مِنْ اَلْقَبُولِ، وَالتَّقَبُّلِ، وَذَاكَ اَلِالْتِزَامُ اَلَّذِي يَدْعُو لِلدَّهْشَةِ مِنْ رَجُلٍ تَعَرَّضَ لِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلتَّعْذِيبِ، وَالتَّنْكِيلِ، وَهُوَ لَا يَزَالُ قَابِضاً عَلَى دِينِهِ مُتَمَسِّكاً بِصِلَاتِهِ فَاتِحاً قَلْبُهُ، وَيَدَيْهِ لِرَبِّهِ اَلرَّحْمَنِ الرَّحِيم...

وَمَعَ مُرُورِ اَلْوَقْتِ وَانْقِضَاءِ اَلْأَيَّام تَحَسَّنَتْ عَلَاقَةُ أيوبَا بِزُمَلَائِهِ مِنْ اَلسُّجَنَاءِ، وَبْسَجَانِيَّه...وَشَيْئاً، فَشَيْئاً بَدَأَتِ اَلْمُعَامَلَةُ تَتَحَسَّنُ مِنْ

قِبَلِهِمْ حَتَّى اِنْقَلَبَتْ إِلَى مُعَامَلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ بِنَحو لَافِتٍ مِمّا مكّنَهُ مِنْ طَلَبِ اَلْخِبْرِ، وَالْوَرَق لِتتَسَنَّى لَهُ كِتَابَةُ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيم أَثْنَاءَ فَتْرَةِ مُكُوثِهِ فِي اَلسِّجْنِ، وَهُوَ اَلَّذِي كَانَ حَافِظاً لَهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْب مُنْذُ أَنْ كَانَ عُمْرُهُ لَا يَتَجَاوَزُ الخمسَ عشرةَ سَنَة...

تَحَوُّلِ اَلسِّجْنُ حَوْل أيُوبَا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ تَمَاماً...تَلَاشَتْ مَظَاهِرُ اَلْخَوْفِ، وَالْعُنْفِ، وَالْجَلد... وَعَمِّ اَلسُّكُونُ، وَالْهُدُوءُ أرجَاءَ اَلْمَكَان... اِقْتَرَبَ مِنْهُ اَلسُّجَنَاءُ أَكْثَرَ لِيَسْمَعُوا حَدِيثَهُ عَنْ اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – وَعَنْ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيم، وَ الدّينِ اَلْإِسْلَامِيِّ... كَانَ حَدِيثُهُ شَيِّقًا مُلْهَماً، وَاعِظاً يَعْكِسُ مَدَى وَرَعِهِ، وَتَقْوَاه، وَالْتِزَامِهِ مِمَّا جَلَبَ لَهُ اَلْمَزِيدَ مِنْ تَعَاطُفِ سجّانِيه، وَالْمَزِيدَ مِنْ اِحْتِرَامِهِمْ لَهُ، وَإِعْجَابُهُمْ اَلشَّدِيدُ بِه...

أَمْضى أيوبَا فَتْرَةَ سَجنِهِ تِلْكَ فِي كِتَابَةِ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيم عَلَى وَرَقٍ أَبْيَضٍ صَغِيرٍ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى مَصَاحِفَ بَعْدَ أَنْ أَخَاطَهَا بِطَرِيقَتِهِ، وَجَعْلَ لَهَا شَكْلاً كَشَكْلِ اَلْمَصَاحِفِ، وَقَدْ غَلَّفَهَا بِدَفَّتَيْنِ مِنْ اَلْجِلْد...

كَانَ لِوُجُودِهِ فِي ذَاكَ اَلْمَكَانِ تَأْثِيراً كَبِيراً عَلَى مَنْ جَاوَرَهُ مِنْ اَلسُّجَنَاء، وَمِنْ أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنْ اَلسَّجَّانِين، فَأَثْمَرَ اِلْتِزَامُهُ فِي تِلْكَ اَلْفَتْرَةِ، وَأَخْلَاقِهِ اَلْعَالِيَةِ بِكَسْبِ مَحَبَّةِ اَلْجَمِيعِ هُنَاكَ، وَاحْتِرَامُهُم، وَبِخَلْقِ فَتْرَةٍ جَدِيدَةٍ سَيَخْتَبِرُهَا أيُوبَا لَاحِقاً بَعْدَ أَنْ يَحْضُرَ تُولِسْتُوي لِاسْتِلَامِهِ مِنْ اَلسِّجْنِ اَلَّذِي حَوّلَهُ بِإِيمَانِهِ، وَتَقْوَاه إِلَى جَنَّةٍ، وَزَاوِيَةٍ لِلْحُبِّ، وَالْإِخَاءِ، وَالْمُسَاعَدَة....

- 6 -

عَلَى بَابِ اَلسِّجْنِ اَلْعَرِيضِ ذي اَلْعَوارضِ اَلْحَدِيدِيَّةِ اَلسَّمِيكَةِ وَقْفَ أَيُوبَا مُنْتَظِراً خُرُوجَ سَيِّدَهِ تُولِسْتُوي اَلَّذِي كَانَ يُوَقِّعُ عَلَى اِسْتِلَامِهِ بَيْنَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ تَصْدِيقُ ذَاكَ اَلْكَمَّ اَلْهُولِ مِنْ عِبَارَاتِ اَلْمَدِيحِ، وَالثَّنَاءِ بِحَقِّ اَلسّجينِ اَلَّذِي سَيَجُرُّ قَيْدُهُ لِلتَّوِّ عَائِداً بِهِ نَحْوَ اَلْمَزْرَعَةِ اَلَّتِي فَرَّ مِنْهَا مُنْذُ أَشْهُر....

سَمِعَ أَحَادِيثَ مِنْ عَايَشُوهُ مِنْ اَلسَّجَّانِين، وَ.ذُهِلَ لِمَدَى اَلْحُبِّ اَلَّذِي لَمَسَهُ فِي وُجُوهِهِمْ أَثْنَاءَ حَدِيثِهِمْ عَنْ أَيُوبَا اَلَّذِي كَانَ اِسْمُهُ جوبَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ....وَلِأَنَّ تُولْسِتُوي كَانَ رَجُلاً أَقَلَّ عُنْفاً مِنْ بَاقِي أَصْحَابِ اَلْمَزَارِعِ عَلَى عَبِيدِهِمْ، وَلَا سِيمَا أَنَّهُ كَانَ يُولِي مَهَامَ اَلْعَبِيدِ لَقَاشِيل دينْتُونْ دُونَ تَدَخُّلٍ بِعَمَلِه، فَقَدْ لَاقَتْ أَصْدَاءُ مَدِيحِ أَيُوبَا تَرْحِيباً فِي أُذُنَيْهِ، وقد رأهُ هَذِهِ اَلْمَرَّةَ بِعَيْنِ اَلِاحْتِرَام، وَالْودِّ، وَالْعَطْفَ عِنْدَمَا اِقْتَرَب مِنْهُ فِرَأهُ يرْتَدِي ثِيَاباً بَيْضَاءَ لَمْ تَرْقَ لِنَصاعةِ اَللَّوْنِ اَلْأَبْيَضِ، وَقَدْ حَمَلَ كِيساً عَلَى كَتِفِهِ فِيهِ بَعْض اَلْخَبْزِ، وَالْوَرَق... وَقَدْ تَدلّى مُصْحَفاً بِاللَّوْنِ اَلْأَحْمَرِ فَوْقَ صَدْرِهِ، عندما اِحْتَشَدَ حَوْلَهُ سَجّانوهُ لِيُلْقُوا عَلَيْهِ اَلسَّلَامَ، وَالْوَدَاعَ اَلْأَخِير... وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ

كُلِّ تِلْكَ اَلسُّمْعَةِ اَلطَّيِّبَةِ إِلّا أَنَّ اَلْقُيُودَ ظَلَّتْ تُلَفُّ حَوْلَ معصميهِ، وَكَاحِلَيْهِ خَوفَ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اَلْهُرُوبِ مَرَّةً أُخْرَى... فَإِن كَانَتْ نَظْرَةُ تولستوي قَدْ تَغَيَّرَتْ عَنْ ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلْأَمِينِ اَلْمُلْتَزِمِ اَلَّذِي يُتْقِنُ اَلْقِرَاءَةَ، وَالْكِتَابَةَ، وَاللُّغَةَ اَلْعَرَبِيَّةَ بِشَكْلٍ مُذْهِلٍ إِلّا أَنَّ النّوَايَا لَمْ تَكُنْ لِتَصْفُوَ إِلَى اَلدَّرَجَةِ اَلَّتِي يُسْمَحُ لَهُ بِهَا بِنَزْعِ قُيُودِه...

أَخِيراً مَشَى أيوبَا أَمَامَ سَيِّدَهِ مَرَّةً أُخْرَى لِيُغَادِرَ اَلْمَكَانَ اَلَّذِي أَتَاهُ عَبْداً وضِيعاً فَارّاً لَا يُجِيدُ لُغَةَ مُقتَادِيهِ، وَلَا يَسْمَحُ لَهُ اَلنَّظَرُ فِي وَجوهِهم... إِلَى رَجُلٍ يَحْمِلُ كُلُّ ذَلِكَ اَلِاحْتِرَامِ، وَالتَّبْجِيل... رَجُلٌ تَرَكَ أَثَراً فِي كُلِّ اَلنُّفُوسِ اَلَّتِي جَاوَرَهَا لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ كَفِيلَةً بِالْمُسَاهَمَةِ مَعَهُ فِي قَلْبِ مَجْرَى اَلْأَحْدَاثِ، وَحَرفِ مَسَارِ اَلْمَرْكَبِ اَلَّذِي بَدَا، وَكَأَنَّهُ قَدْ بَدَأَ يَسْتَقِيمُ فِي دَرْبِ اَلْعَوْدَةِ... دَرْبِ اَلرُّجُوعِ اَلْحَبِيبِ إِلَى أَرْضِ اَلسَّلَامِ... إِلَى أَرْضِ أَفْرِيقْيَا.

اَلفَصل اَلخَامِس:

- 1 -

اَلسِّجن... هُوَ سِجنُ الجسَدِ... لَا سِجْنُ اَلرُّوح... فَـ للرّوحِ عَالمَهَا اَلْخَاصّ اَلَّذِي لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْجُنَهُ، أَوْ يَأْسِرُه... وَلِهَذَا كَانَ أَيُوبَا قَادِراً عَلَى اِحْتِمَالِ كُلِّ اَلْعَذَابَاتِ اَلَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِ فِي فَتْرَةِ اَلسَّجْنِ، وَالْفَتْرَةِ اَلَّتِي سَبَقَتْهَا... فَجَسَّدَهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَرَّضَ لِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلْعَذَابَاتِ، وَالْمَوَاجِعِ إِلّا أَنَّ رُوحَهُ كَانَتْ تُحَلِّقُ فِي فَضَاءِ اَلْحُبِّ اَلْإِلَهِيِّ، وَتَحُطُّ فِي سَمَاوَاتِ اَللُّطْفِ، وَالْعَدْلِ، وَالْفَرَجِ اَلْقَرِيب...

فِي ذَلِكَ اَلصَّبَاحِ اَلَّذِي تَلَا خُرُوجَ أَيُوبَا مِنْ اَلسِّجْنِ، وَوُصُولِهِ إِلَى مَزْرَعَةِ سَيِّدِهِ تُولِسْتُوي مَرَّةً أُخْرَى... جَلَسَ اَلْأَخِيرُ مُتَأَمِّلاً صُدَفَ اَلْحَيَاةِ، وَأَقْدَارَهَا اَللَّطِيفَة!!... لَقَدْ عَرَفَ تَأْثِيرَ اَلْآيَةِ اَلْقُرْآنِيَّةِ {إِنَّ مَعَ اَلْعُسْرِ يسرا}... حَقَّ اَلْمَعْرِفَةِ... فَقَدماهُ اَللَّتَانِ سَاقَتَاهُ نَحْوَ بنسَلْفَانِيا كَانَتَا مُنصِفَتَيْنِ فِي حَقِّهِ، وَإِنْ تَحمّلَ مِنْ اَلْعَذَابِ، وَالْمُشَقَّةِ مَا لَم يَتَخَيَّلْ ذَاتَ يَوْمٍ أَنْ يَتَحَمَّلَه...

وَمِنْ مَكَانِهِ اَلْحَالِيِّ عَلَى صَخْرَةٍ عَالِيَةٍ كَتِلْكَ اَلصَّخْرَةِ اَلَّتِي جَلَسَ عَلَيْهَا قُبَيْلَ اَلْإِمْسَاكِ بِهِ بِسَاعَات... رَاحَ يَستَذكرُ اَلْحِوَارَ اَلَّذِي دَارَ بَيْنَهُ،

وَبَيْنَ أَحَدِ اَلْمُحَامِينَ غَيْرِ اَلتَّقْلِيدِيِّينَ فِي أَيَّامِهِ اَلْأَخِيرَةِ دَاخِلَ تِلْكَ اَلْمِصيَدَة...

– أمسِكْ... تَنَاوُلِ اَلزُّجَاجَةِ، وَحَلِّقَ مَعِي فِي عَالَمٍ آخَرَ بَعِيداً عَنْ هَذِهِ اَلْقَذَارَةِ هَا هُنَا... خُذْ... لَا تَتَرَدَّد... أَنَا هُنَا كَيْ أُسَاعِدَكَ، وَكُلَّ اَلْمُسَاجِين... قَالَ اَلرَّجُلُ اَلْأَشْقَرُ لأيُوبَا بَيْنَمَا مَدَّ زُجَاجَةَ اَلْخَمْرِ نَحْوَ وَجْهِهِ لَا نَحْوَ يَدِهِ، وَهُوَ يَطْلُبُ مِنْهُ اَلْإِمْسَاكَ بِهَا، وَمُشَارَكَتَهُ لَذَّةَ اَلشُّرْبِ، وَالسُّكر...

كَانَ رَجُلاً اَرْبَعِينِيّاً بِمَلَامِحَ جَذَّابَةٍ جِدّاً... شعراً أَشْقَراً مَلْفُوفاً فَوْقَ أُذُنَيْهِ، وَصَدغيه... مَعَ قَمِيصٍ أَبْيَضٍ بِأَزْرَارِ مُقْفَلَةٍ حَتَّى أَعلَى اَلرَّقَبَةِ اَلَّتِي تُحِيطُ بِهَا يَاقَةٌ عَالِيَةٌ مَعَ سِرْوَالٍ فَضْفَاضٍ مِنْ اَلْوَسَط، ضِيّقٍ مِن نَاحِيَةِ اَلْكَوَاحِل... وَسَترةٍ ضِيّقَةِ اَلْأَكْمَامِ بَكتّافِيّاتٍ عَالِيَة... وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْ أَسْفَلِ اَلظَّهْرِ شَكْلَ اَلرَّقْمِ 7...

كَانَ اَلرَّجُلُ يَرْتَدِي حِذَاءً جِلْدِيّاً يَعْكِسُ مَدَى نَظَافَتِهِ، وَاهْتِمَامِهِ بِمَظْهَرِه... نَاهِيكُمْ عَنْ لكنَتِهِ اَلْأَرسْتَقَراطِيَّةِ، وُ عِينِيّهِ الدّافِئَتَيْنِ، وَاَلَّتِي لَمْ يَرَ مِثْلَهُمَا فِي أَعْيُنِ جَمِيعِ اَلْبَيْضِ اَلَّذِينَ قَابَلَهُمْ...

رَفْعُ أَيوبا حَاجِبَيْهِ، وَلَوَّحَ بِيَدِهِ مُشِيحاً بِقَارُورَةِ اَلْخَمْرِ بَعِيداً عَنْ وُجْهَهِ رَافِضاً اِلْتِقَاطَهَا...

– لِمَ؟؟ مَا خَطْبُكَ؟؟... قَالَ اَلْإِنْجِلِيزِيُّ تُومَاس بلويت مُسْتَغْرَباً مِنْ سُلُوكِ أَيُوبَا اَلَّذِي كَانَ بِالنِّسْبَةِ لِذَاكَ اَلْقَسِّ اَلْمُحَامِي اَلْإِنْجِلِيزِيِّ

عَبْداً وضِيعاً يَفْرَحُ بِأَيِّ مَكْسَبٍ يَأْتِيهُ مِنْ طَبَقَةِ اَلْأَغْنِيَاء...

وَلَأنّ أَيوبا لَمْ يَفْهَمْ لُغَةَ بلويت، وَلَكِنَّهُ فَهِمَ إِيمَاءَاتِ وَجْهِهِ اَلْمُسْتَغْرِبَة... فَقَد فَهِمَ أَنَّ اَلْأَخِيرَ يَوَدُّ تَوْضِيحاً لِرَفْضِ أَيوبا اَلْإِمْسَاكَ بِالْخَمْرِ، وَمُشَارَكَتِهِ فِي شُرْبِهَا....وَلِذَلِكَ قَالَ أَيوبا:

اَللهَّ... مُحَمَّد...

كَانَتِ اَلْكَلِمَتَانِ كَفِيلَتَانِ فِي إِيصَالِ فِكْرَةِ أَيُوبَا لِلْقسِّ اَلْإِنْجِلِيزِيِّ اَلَّذِي مَا أَنْ سَمِعَ اِسْم مُحَمَّد حَتَّى فَهِمَ أَنَّ أَيوبا مُحَمَّدِيّ... أَي مُسْلِم فِي فَهْمِ اَلْبِرِيطَانِيِّينَ... وَلِذَلِكَ لَمْ يَحْتَج بلُوِيت لِأَكْثَر مِنْ تِلْكَ اَلْكَلِمَةِ لِيَفْهَمَ سَبَبَ اِلْتِزَامِ أَيُوبَا بِالِابْتِعَادِ عَنْ اَلْخَمْر، فَأَدْرَكَ بعْدَهَا أَنَّ هَذَا اَلرَّجُل لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ كَبَقِيَّة اَلْعَبِيد اَلْآخَرِين مِنْ اَلْأَفَارِقَةِ، وَالْأَمْرِيكِيِّين!!

وَمِنْ هُنَا بِالذَّات... وَمِنْ تِلْكَ اَلنُّقْطَةِ اَلْحَاسِمَةِ بَدَأَت ذروَةُ اَلْحَبْكَةِ بِالنِّسْبَةِ لِقصَّةِ أَيُوبَا، وَاقْتَرَبَ اَلْفَرَجُ مِنْ عَيْنَيْهِ اَلْوادعَتِينْ... وَلأنّ بلُويت كَانَ مُحَامياً حَاذِقاً... وَشَخْصاً لَهُ مِنْ اَلْمَكَانَةِ، وَالْقِيمَةِ مَا فَاقَ تَصَوُّرَ أَيُوبَا، فَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ اَلصَّدفةُ مِنْ أَجْمَلِ اَلْمُصَادَفَاتِ اَلَّتِي حَمَلَهَا اَلْقَدَرُ لِبَطَلِنَا بَعْدَ كُلِّ تِلْكَ اَلتَّعَاسَةِ اَلَّتِي جَلَبَتْهَا ذَات اَلْمُصَادَفَاتِ لِجَسَدِهِ اَلْمُمَزَّقِ، وَقَلْبِهِ اَلَّذِي أَنْهَكَهُ اَلْخَوْفُ، وَالْأَلَم....

فِي ذَاكَ اَلسِّجْنِ اِسْتَطَاعَ اَلْمُحَامِي مُسْتَعِيناً بِبَعْضِ اَلْأَشْخَاصِ اَلْمُتَوَاجِدِينَ مَعَهُمْ فِي ذَاكَ اَلْمَكَانِ أَنْ يَفْهَمَ قَصّةَ أيوبَا، وَأن يَقِفَ عَلَى

أَهَمِّ أَحْدَاثِهَا، وَعَظِيمِ اِبْتِلَاءَاتِهَا... وَعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ قَسّاً يَدْعُو إِلَى اَلتَّنْصِير... فَقَدْ أُعْجِبَ بِالْفِكْرِ اَلَّذِي يَحْمِلُهُ أَيُوبَا، وَبِمَدَى اَلِالْتِزَامِ بِدِينِهِ، وَعَقِيدَتِهِ، وَبِقُدْرَتِهِ عَلَى اَلتَّمَسُّكِ بِمَبَادِئِهِ عَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ اَلْأَلَمِ، وَالنَّوَازِلِ...

وَالْأَهَمُّ بِرَأْيِهِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَذْكِراً لِلْقُرْآنِ اَلْكَرِيمِ كَلِمَةً بِكَلِمَة... وَأن يقُومَ بِنسخِهِ بَيْنَ جُدْرَانِ اَلزِّنْزَانَةِ لِيَكُونَ لَهُ اَلْحَافِظَ، وَالمُعين...

استذكَرَ أَيُوبَا مِنْ صَخْرَتِهِ تِلْكَ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ ذَاكَ اَلنَّفَقِ اَلْمُظْلِم كُلَّ اَلْأَحْدَاثِ اَلَّتِي مَرَّتْ بِهِ مُسْبَقاً... وَعَرَفَ أَنَّ مَا حَصَلَ كَانَ لِغَايَةٍ مَا كَمَا هُوَ وُجُودُنَا فِي هَذِهِ اَلْحَيَاةِ بِالضَّبْط... فَلِكُلٍّ مِنَّا رِسَالَتُهُ اَلَّتِي وَجَبَ عَلَيْهِ إِتْمَامَهَا... وَامْتِحَانُهُ اَلَّذِي لَا بُدَّ مِنْ اَلنَّجَاحِ فِيه...

- 2 -

مَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ عَلَى رُجُوعِ أَيُّوبَا، وَلَكِنَّ اَلْوَاقِعَ اَلَّذِي يُحِيطُ بِهِ كَانَ يَتَغَيَّرُ نَحْوَ اَلْأَفْضَلِ يَوْماً بَعْدَ يَوْم، وَلَا سِيمَا أَنَّ سَيِّدَهُ تُولِسْتُوي قَد عَرَفَ مِنْ اَلْمُحَامِي بَلَويتْ عِنْدَمَا ذَهَبَ لِاسْتِرْدَادِهِ أَنَّ لَأَيُّوبَا قِصَّةً لَا يَعْرِفُهَا عَنْهُ... فَهُناك... قَدْ رَوَى بَلويت كَيْفَ أَنَّ أَيُّوبَا يَنْحَدِرُ مِنْ عَائِلَةٍ ثَرِيَّةٍ جِدّاً... ثَرِيَّةٍ، وَمُلْتَزِمَةٍ، وَذَاتِ سُلْطَةٍ، وَنُفُوذٍ كَبِيرَيْن...

حَدَّثَهُ أَنَّ وَالِدَهُ مَلِكَ بُونْدُو... وَأَنّ أَيُّوبَا كَانَ أَمِيراً حُرّاً يُجِيدُ اَلْقِرَاءَةَ، وَالْكِتَابَةَ، وَالتَّفْسِيرَ، وَالْفِقْه... وَأَنَّ اَلْقَدَرَ، وَغَدْرَ بَنِي اَلْبَشَرِ قَدْ أَوْدَى بِهِ إِلَى هَذَا اَلْمَكَانِ اَلْمُظْلِمِ، وَالْخَاتِمَةِ اَلْمُؤلمة...

هَذِهِ اَلْقِصَّةُ اَلَّتِي عَرَفَهَا تُولِسْتُوي، وَاَلَّتِي بَدَأَتْ بِحَرفِ مَجْرَى اَلْأَحْدَاثِ نَحْوَ يَابِسَةٍ أُخْرَى، أَوْ مَصَبٍّ آخَر...

فمن هُنَا أَعْطَى اَلسَّيِّدُ أَمْراً لِلْمَسْؤُولِ عَنْ اَلْعَبِيدِ قَاشِيل دِينْتُون لِتَخْفِيفِ اَلْأَعْبَاءِ عَنْ جوب، وَلِمُعَامَلَتِهِ مُعَامَلَةً أَقَلَّ عُنْفاً بَلْ، وَقَدْ أَمَرَ بِإِيْكَالِ مَهمَّةِ اَلرَّعْيِ بِالْمَوَاشِي إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يَعْمَلُ فِي حُقُولِ اَلتَّبَغ... مِمَّا أَعْطَى لِأَيوبا حُرِّيَّةً أَكْبَر وَتَعَباً أَقَلَّ وَطْأَة...

وَلَكِنَّ اَلْأَهَمَّ فِي نَظَرِ اَلْعَبْدِ اَلْأَمِيرِ أَنَّ تُولِسْتُوي قَدْ أَمَرَ بِتَخْصِيصِ

رُكْنٍ خَاصٍّ لأيُوبَا كِي يمَارسَ بِهِ طُقُوسَ عِبَادَتِهِ بِشَكْلٍ يسيرٍ، وَ سهل...

فَأَخَذَ يُقَارِنُ بَيْنَ اَلْمُعَامَلَةِ اَلَّتِي تَلَقَّاهَا أَوَّلَ اَلْأَمْرِ، وَبَيْنَ اَلْمُعَامَلَةِ اَلَّتِي يَخْتَبِرُهَا اَلْآن... وَشَتَّان مَا بَيْنَهُمَا!!... وَلَا سِيمَا أَنَّهُ رُمِيَ بَالْقَاذوراتِ ذَاتِ يَوْمٍ عَلَى يَدِ تولستوي نفسه عِنْدَمَا شَاهَدَهُ يُصَلِّي للهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – فَازدراه، وَسَخِرَ مِنْهُ، وَرَمَاهُ بِمَا ذُكرَ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِجَلْدِهِ لِصِلَاتِهِ تِلْكَ أَثْنَاءَ فَتْرَةِ اَلْعَمَل...

كَانَتْ جَمِيعُ اَلْمُؤَشِّرَاتِ حَوْل أيُوبَا تَشِي بِأَنَّ اَلِانْفِرَاجَ بَدَأَ يَقْتَرِب، وَكوَّةَ اَلنُّورِ بَدَأَتْ تَتَّسِع... وَأنّهُ عَلَى بُعْدِ خُطُوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ اَلسَّعَادَةِ، وَالِارتِيَاح... وَلَكِنَّهُ رَغْمَ كُلِّ مَا تَقَدَّمَ كَانَ يَشْعُرُ بِمَرَارَةِ اَلِانْتِظَار... فَالْمُحَامِي القَسّ تُومَاسْ بَلَويت كَانَ قَدْ وَعَدَهُ أَنْ يَحْضُرَ إِلَيْهِ فِي مَكَانِ إِقَامَتِه... أَي فِي مَزْرَعَةِ سَيِّدِهِ تُولِسْتُويْ قَرِيباً جِدّاً لِيَقِفَ عَلَى مَفَاصِلِ قِصَّتِهِ مِنْ بِدَايَتِهَا إِلَى نِهَايَتِهَا... وَاَلَّذِي وَعَدَهُ أَنَّهَا سَتَكُونُ غَايَةً فِي اَلرَّوْعَةِ بِالْمُسَاعَدَةِ اَلَّتِي سَيُقَدِّمُهَا لَهُ عَلَى طَبَقٍ مِنْ ذَهَب!!

- 3 -

كَانَ أَيوبا يُرَاقِبُ مَاشِيَتَهُ بِعَيْنِ اَلصَّبُورِ اَلْحَكِيمِ اَلَّذِي يَرَى اَلْعَقْلَ اَلَّذِي يُعْقلُ حَيَاةَ اَلْإِنْسَانِ، وَيُمْسِكُ بِهَا لِيَشُدَّهَا نَحْوَ نُقْطَةِ اَلْمَرْكَزِ... هُنَاك... رَأَى كَيْفَ أَنَّ اِتِّحَادَ اَلْمَادَّةِ بِالْفِكْرِ، يولّدَانِ اَلطَّاقَةَ اَلْحَيَوَانِيَّةَ اَلَّتِي لَا تُدْرِكُ مِنْ اَلْحَيَاةِ سِوَى اَلْمَأْكَلِ، وَالْمَشْرَبِ، وَالْمَنَامَةِ، وَالتَّكَاثُرِ بَعِيداً عَنْ اَلتَّفْكِيرِ، وَالتَّأَمُّلِ اَلَّذِينَ لَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُمَا إِلَّا إِذَا اِتَّحَدَتِ اَلْمَادَّةُ بِالذّكَاءِ، وَالْفِكْرِ لِيَصِيرَ اَلْإِنْسَانُ اَلَّذِي عَلَيْهِ أَنْ يُنَقِّيَ جَوْهَرَتَهُ اَلدَّاخِلِيَّةَ مِنْ اَلشَّوَائِبِ اَلْكَثِيرَةِ اَلَّتِي تَعْتَرِضُهُ، وَتَخْفَى عَلَيْهِ كَالْحَسَدِ، وَالْحِقْدِ، وَالْغَضَبِ، وَالْكَرَاهِيَةِ، وَإِطْلَاقِ اَلْأَحْكَامِ...

كَانَ عَلَى ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلتّقيِّ اَلْوَرِعِ اَلَّذِي غَيَّرَ نَظَرَةَ أُورُوبَّا نَحوَ اَلْعَبِيدِ أَنْ يَخْتَبِرَ كُلَّ ذَلِكَ اَلسَّوَادِ... أَنْ يُوَاجِهَهُ، وَيَفْهَمُهُ لِيَكُونَ قَادِراً عَلَى دَحْرِهِ، وَهَزِيمَتِهِ... وَمِنْ مَكَانَهِ ذَاكَ اِسْتَطَاعَ أَنْ يُلْهِمَ عُقُولَ اَلْكَثِيرِ، وَأَفْئِدَتَهُمْ لِلْقُدْرَةِ الرّهيبَة لِلْإِنْسَانِ اَلَّذِي، وَإِنْ كَانَ عَبْداً مُقَيَّداً بِالْأَصْفَادِ، فَإِنَّهُ يَسْتَطِعُ بِإِيمَانِهِ، وَالْتِزَامِهِ، وَمَحَبَّتِهِ للهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – أَنْ يُغَيِّرَ مَجْرَى حَيَاتِه... إِنَّ لَمْ نَقُلْ أَنْ يُغَيِّرَ مَجْرَى اَلتَّارِيخِ بِأَكْمَلِه...

فِي ذَاكَ اَلرُّكْنِ اَلْمُرْتَفِعِ اَلْهَادِئِ اَلَّذِي كَانَ يَشِعُّ نُوراً، وَحُبّاً، وَلُطْفاً

جَلَسَ أَيُوبَا عَشِيَّةَ يَوْمٍ هَادِئ... بَعِيداً عَن سَكَنِ اَلْعَبِيدِ اَلْآخَرِينَ بِمَن فِيهِمْ صَدِيقَهُ اَلْمُقَرَّبَ جُونْيس... وَاَلَّذِي أَتَى مَسَاءَ هَذَا اَلْيَوْمِ بَعْدَ اِنْتِهَائِهِ مِنْ عَمَلِهِ لِزِيَارَةِ أَيُوبَا صَدِيقَهُ اَلْمُقَرَّبُ صَاحِبَ اَلْعَقْلِ اَلْمُخْتَلَفِ، وَالصُّدَفِ اَلْخَارِقَة... وَمَعاً... جَلَسَا يَتَبَادَلَانِ أَطْرَافَ اَلْحَدِيثِ عَنْ تَجْرِبَةِ أَيوبا اَلْأَخِيرَة... فَأَخْبَرَ أَحَدُهُمَا صديقهُ عَمَّا حَصَلَ مَعَهُ فِي غِيَابِ اَلْآخَر...

وَفِي ظِلِّ غِبْطَةِ جُونِيسْ لَأَيُوبَا عَلَى تَجْرِبَتِهِ اَلْفَرِيدَةِ تِلْك... وَعَلَى جُرْأَتِهِ فِي اَلْمُضِيِّ نَحْوَ اَلْمَجْهُول....وَمَعَ نَظَرَاتِ أَيوبا اَلَّتِي تَنْضَحُ بِالْحُبِّ، وَالْهُدُوءِ، وَالسَّلَام لِصَدِيقِهِ اَلْجَالِسِ قبالَتَه... سُمِعَ صَوْتُ أَحَدِهِمْ أَسْفَل اَلصَّخْرَةِ اَلْعَالِيَة... كَانَ صَوْتاً مَأْلُوفاً نَوْعاً مَا بِالنِّسْبَةِ لَأيوبَا اَلَّذِي اِبتسَمَ اِبْتِسَامَةً عَرِيضَةً جِدّاً عِنْدَمَا لَمَحَ تِلْكَ اَلْقَامَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّة... قَامةِ اَلْقَسَّ تُومَاس، وَقَدْ وَضَعَ حَقِيبَتَهُ اَلْجِلْدِيَّةَ عَلَى اَلْأَرْض، وَابْتَسَمَ بعدَ أن فَردَ ذِرَاعَيْه... عِنْدَمَا لَمَحَ جُوبْ بن سَولُمون... أَوْ بِالْأَحْرَى أَيُوبَا بن سُلَيْمَانْ جَالُو...

- 4 -

كَانَ لِقَاءُ أيوبَا بِالْقَسّ تُومَاس بلويت لَيْسَ لِقَاءً بَيْنَ مُحَام، وَعَبْد... وَإِنَّمَا كَانَ اِجْتِمَاعٌ لِشَخْصٍ مُثَقَّفٍ بِشَخْصٍ لَا يَقِلُّ عَنْهُ عِلْماً، وَثَقَافَةً، وَتَبَحُّراً فِي مَجَالِ اَلدِّينِ، وَالْفِقْهِ، وَالتَّفْسِير...

وَهُنَاكَ جَلَسَ أَيُوبَا، وَبلَّوِيتْ وَجْهاً لِوَجْه بَيْنَمَا شَارَكَهُمَا الجَلْسَةَ جونيس، وَ العبدُ اَلْقَدِيم نوَا لِيَتَمَكَّنَ اَلْأَخِيرُ مِنْ تَرْجَمَةِ مَا يَقُولُهُ اَلْمُحَامِي لِأَيُوبَا، وَمَا يَقُولُ أَيوبا لَهُ فِي تِلْكَ اَلْجَلْسَةِ اَلشَّيِّقَةِ، وَالْمُثِيرَةِ لِلاهْتِمَام...

لِيلتَهَا لَمْ يَسْتَطِعِ اَلْقَمَرُ الِاخْتِبَاءَ خَلْفَ اَلْغُيُوم... أَوْ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ اَلْبَشَر... لَقَدْ طَلَعَ بِضَوْئِهِ اَلْبَاهِرِ، وَسُطُوعِهِ اَلْجَلِيِّ لِيَشْهَدَ مَعَهُمْ عَلَى مُضِيِّ سَفِينَةِ أَيُوبَا نَحْوَ شَاطِئِ اَلْأَمَانِ بعدَ تيهٍ طَوِيل...

وَلِلْأَمَانَة... فَإِنّ تولِستُوي لَمْ يُصْبِحْ رَحِيماً عَلَى أيوبَا فَقَطْ، وَإِنَّمَا أَصْبَحَ أَكْثَرَ تَعَاطُفاً مَعَ بَقِيَّةِ اَلْعَبِيدِ... فَلَرُبَّمَا شعرَ ذَاكَ اَلسَّيِّد أنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ مَضْمُونٍ فِي هَذِهِ اَلْحَيَاة... وَأنّ السَّيِّدَ قَدْ يُصْبِحُ عَبْداً فِي أَيِّ وَقْت... فَلَا شَيْءَ صَعب... وَلَا أَمْرَ عَسير عَلَى دُولَابِ اَلْحَيَاةِ....

- أَنَا مُهْتَمٌّ جِدّاً بِقَضِيَّتِكَ أَيُوبَا... هِيَ قِصَّةٌ فَرِيدَةٌ لَا يُمْكِنُ

لَأيّ شَخْصٍ اِخْتِبَارَهَا!!... فَبَيْنَمَا كُنْتَ تَقْبَعُ هُنَاكَ هَادِئَ اَلْبَالِ، مُرْتَاحَ الجَسَد طوَّحَتْ بِكَ اَلْحَيَاةُ لِتُصْبِحَ عَبْداً لَدَى أَحَدِهِمْ!!... قِصَّةٌ مُدْهِشَةٌ، وَمُؤْلِمَةٌ عَلَى حَدٍّ سَوَاء... قَالَ بِلُوِيت لَأيُوبَا، وَقَدْ رَفَعَ حَاجِبَيْهِ، وَحَرَّكَ يَدَهُ بِاسْتِغْرَابٍ بَيْنَمَا كَانَ يَجْلِسُ عَلَى قَدَمٍ، وَيُسْنِدُ ذِرَاعَهُ عَلَى اَلْأُخْرَى...

– إنَّ كَوْنَنَا المُتَغَيِّرَ بِاسْتِمرَارٍ يَجعَلُنِي لَا أُبَالِي بِفِكرَةِ أَنَّ اَلْأَشيَاءَ سَتَكُونُ ثَابِتَةً دَائِماً.... كُلَّ شَيءٍ مُتَغَيِّر!!... أَجْسَادِنَا... أَعْمَارُنَا... اَلطَّبِيعَةُ مِنْ حَوْلِنَا... ظُرُوفُنَا... اِنتِصَارَاتنَا، وَانكِسَارَاتنَا... كُلَّ شَيْء!!... كُلِّ شَيْءٍ دُونَ اِسْتِثْنَاءٍ يَجْعَلُنِي لَا أَسْتَغْرِبُ فِكْرَةَ أَنَّنِي كُنْتُ سَيِّداً، وَغَدَوْتُ عَبْداً... نَحنُ بَيْنَ يَدَي اَللهَّ... وَهُوَ اَلْوَحِيدُ اَلْقَادِرُ عَلَى تَقْلِيبِ أَوْضَاعِنَا كَيْفَمَا شَاء... قَالَ أَيُوبَا ذَلِكَ بَيْنَمَا كَانَ نُوا مُنغَمِساً بِالتَّرجَمَةِ بَينَ اَلِاثْنَينِ، وَقَدْ جَلَسَ جُونِيس ضَاحِكاً مُسْتَمْتِعاً بِذَاكَ اَلْحَدِيث، طاوياً رُكبَتَيهِ نَحوَ صَدرِهِ، وَضَامَّاً كَاحِلَيْهِ بِيَدَيهِ، وَهُوَ يَتَطَلَّعُ بِسَعَادَةٍ لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ اَلْحِوَارِ بَين بلويت، وَ أبوبَا....

– تَقْصِدُ لا حيلةَ لَنَا بِمَا يَمُرُّ عَلَينَا مِنْ صُعُوبَاتٍ، وَاخْتِبَارَاتٍ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟؟... أَجَابَهُ بلويت، وَقَدْ اِهتَزَّ اَلصَّلِيبُ اَلْمُتَدَلِّي عَلَى صَدْرِهِ بَعْدَ أَنْ بَدَأَ اَلْحَدِيثُ يَأْخُذُ مِنحىً آخر مِنْ اَلْعُمْق!!

– أَقْصِدُ أَنَّنَا مُسَيَّرُونَ، وَمُخَيَّرُون... فَعَلَى هَذِهِ اَلْأَرْضِ قَدْ وُلِدنَا

لِعَائِلَةٍ مُعَيَّنَةٍ مُتَمَثِّلَةٍ بأبٍ، وَأُمٍّ يَنْحَدِرُونَ مِنْ عَائِلَاتٍ مُخْتَلِفَة... نُعْطَى اِسْماً مُعَيَّناً، وَنَكُونَ عَلَى دِينٍ مُحَدَّد... قَدْ نُولدُ بِعَاهَاتٍ، أَوْ أَمْرَاضٍ، أَوْ بِحَالَاتٍ، وَصُوَرٍ خَاصَّةٍ... بِأَمَاكِنَ، وَأَشْكَالَ، وَأَلْوَانَ، وَمَلَامِحَ مُحَدَّدَة...

كُلُّ ذَلِكَ لَا يَدَ لَنَا فِي تَغْيِيرِه... فَهُوَ قَدرٌ لَا خِيَارَ لَنَا بِه... قَالَ أَيوبا ذَلِكَ بَيْنَمَا وَقْفَ لَيُعَدَّ شَرَابَ اَلْكَاكَاو، وَلْيَحْضّرَ بَعضَ اَلْفَاكِهَةِ اَلْمَحَلِّيَّةِ الشّائِعَةِ آنَذَاكَ لِتَقْدِيمِهَا لِضُيُوفِهِ قَبلَ أَنْ يَسْتَطْرِد:

– أَمَّا عَنْ خِيَارَاتِنَا بِالْحَيَاة، فَأَعْتَقِد أَنَّنَا مَجْبُولُونَ عَلَى اَلْخَيْرِ، وَالشَّرِّ... تَمَاماً كَمَا هُوَ اَللَّيْلُ، وَالنَّهَار... وَلِذَاكَ أَرَى أَنَّ عَلَيْنَا دَائِماً أَن نُزَكِّيَ أَنْفُسُنَا، وَأَنْ نُنَقِّيهَا مِنْ اَلشَّوَائِبِ لِتَعلُوَ نَسَبَةُ اَلْخَيْرِ عَلَى اَلشَّرِّ دَائِماً... لِذَلِكَ نَحْنُ مُخَيَّرُونَ فِي دُرُوبِنَا اَلَّتِي نَسْلُكُهَا... فِي تَعَامُلَاتِنَا مَعَ غَيْرِنَا مِنْ اَلْبَشَرِ، وَالْكَائِنَات... فِي عَلَاقَتِنَا مَعَ اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – ... وَفِي اِلْتِزَامِنَا بِكتابِهِ، وَسَنّةِ نَبِيِّه..

– مُذهِل... قَالَ جُونِيس هَذِهِ اَلْمَرَّة....وَقَدْ بَدَأَ يَنْخَرِطُ فِي ذَاكَ اَلْحَدِيثِ اَلَّذِي اِرْتَآهُ شَيِّقاً جِدّاً، وَلَا سِيمَا أَنَّهَا كَانَتْ اَلْمَرَّةُ اَلْأُولَى اَلَّتِي يَسْمَعُ فِيهَا مِثْلَ تِلْكَ اَلْأَحَادِيثِ اَلْعَمِيقَةِ، وَالسَّامِيَة...

– أَنْتَ عَمِيقٌ جِدّاً!!... أَكْثَرُ مِمَّا تَصَوَّرْتُ يَا صَدِيقِي... لَدَيْكَ فِكْرٌ مُخْتَلِفٌ، وَبَصِيرَةٌ حَيَّةٌ، وَفِطرَةٌ سَلِيمَة.... خَطَرَ لِي اَلْآنِ خَاطِرٌ قَدْ

يُساعِدُك... مَا رَأْيُكَ أَنْ تَكْتُبَ رِسَالَةً مِنْ هُنَا لِأَبِيكَ سُلَيْمَان؟؟...
لَا أَظُنُّ أَنَّ هُنَاكَ أَمْراً أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ... هَاااه؟؟ مَا رَأْيُك؟؟ قالَ بلويت، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ اَلْحَمَاسُ هَازّاً رَأْسُهُ، وَقَدْ اِلْتَمَعَت عَيْنَاهُ اَلْمُلَوَّنَتَانِ، وَكَأَنَّ رُوحُهُ تَفَتَّحَتِ اَلْآنِ عَنْ زهْرَةٍ مَخْمليَّةٍ نَادِرَةٍ كَانَ عَلَى وَشْكِ تَقْدِيمِهَا لَأَيُّوبَا... أَيُوبَا اَلَّذِي كَانَ سَعِيداً أَيّمَا سَعَادَةٍ بِمِثْلِ هَذَا اَلْحَلِّ اَلَّذِي قَدْ يَجْلِبُ لَهُ اَلْحُرِّيَّةَ مَرَّةً أُخْرَى...

سَعَادَةٌ غَيْرُ مُكْتَمِلَةٍ كَاكْتِمَالِ قَمَر تِلْكَ اَللَّيْلَة... فَقَدْ شَعَرَ اَلْأَخِيرُ بِالْقَلَقِ حيالَ كَيْفِيَّةِ إِرْسَالِ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ، وَمَدَى ضَمَانِ وُصُولِهَا إِلَى كَفِّي وَالِدِه... وَلَكِنَّ ذاكَ كَانَ سَهْلاً جِدّاً عَلَى صَدِيقِهِ اَلْجَدِيد... صَاحِبِ اَلْحَنْكَةِ، وَالْبَرَاعَة... وَاَلَّذي تَكَفَّلَ بِإِيصَالِ اَلرِّسَالَةِ اَلَّتِي كَانَ عَلَى أَيُوبَا أَنْ يَكْتُبَهَا بِأَسْرَع وَقْت!!

- 5 -

لَمّ يِشَأ أَيُوبَا أَنْ يَكْتُبَ رِسَالَتِهُ بَعِيداً عَنْ مُوَافَقَةِ سَيِّدِهِ تُولِستُوي اَلَّذِي قَدَّمَ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلتَّسْهِيلَاتِ، وَالْمُسَاعَدَاتِ فِي اَلْفَتْرَةِ اَلْأَخِيرَة... لِذَلِكَ أَرْسَلَ لَهُ مَعَ قَاشِيل دينْتُون طَلَباً لِيَسْمَحَ لَهُ بِكِتَابَةِ تِلْكَ اَلرِّسَالَة...

وَبِالْفِعْل... جاءَت اَلْإِجَابَةُ ممهورةً بِالْمُوَافَقَةِ كَمَا تَوَقَّعَ، لِيَبْدَأَ أَخِيراً بِكِتَابَةِ رِسَالَتِهِ بِمَهَارَةٍ عَالِيَةٍ، وَفَصَاحَةٍ غَيْرِ مَسْبُوقَةٍ، وَبِبَلَاغَةٍ سَيَشْهَدُ بِهَا أَهْلُ اَلْعِلْمِ، وَالِاخْتِصَاصِ فِيمَا بَعْد...

كتبَ أَيوبا تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ لِوَالِدِهِ اَلَّذِي بَاتَ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئاً اَلْآن... أَخْبَرَهُ عَنْ ظُرُوفِ أَسَرِهِ، وَاقِتِيَادِه... عَنْ عَذَابِهِ لِأَشْهُرٍ عَلَى مَتنِ اَلسَّفِينَة... عَنْ اَلسِّيَاطِ اَلْمُؤْلِمَةِ، وَالْمَرَضِ، وَالذُّلِّ، وَالْجُوع....عَنْ ذَاكَ اَلْبازَارِ اَلَّذِي وَقَفَ بِهِ شَبَهَ عَارٍ بَعْدَ أَنْ وَطِئَ أرضَ أَميركَا لِأَوَّلِ مَرَّة... عَن كَمَّ اَلْخَوْفِ، وَالْأَلَم... حَدَّثَهُ عَنْ عَمَلِهِ بِحُقُولِ اَلتَّبَغ، وَمِقْدَارِ اَلصُّعُوبَةِ، وَالْإِعيَاءِ، وَالْمَشَقَّةِ... وَكَيْفَ حَمْلَتَهَ قَدَمَاهُ عَلَى اَلْفِرَارِ إِلَى اَلْمَجْهُولِ حَتَّى وَصَلَ بنْسَلفَانيَا، وَسُجِنَ فِيهَا مَرَّةً أُخْرَى...

لَقَدْ شَرَحَ أَيُوبَا كُلَّ مَا يُلَاقِيهِ اَلْعَبِيدُ مِنْ ذُلٍّ، وَآلام، وَعُبُودِيَّةٍ، وَانْتِهَاكٍ لِأَبْسَطِ اَلْحُقُوقِ فِي رِسَالَتِهِ اَلَّتِي كَانَ يَأْمَلُ أَنْ تُلَامِسَ كَفّي

وَالِدِه سُلَيْمَان كَيْ يَسْتَطِيعَ اِفتِدَاءهُ، وَتَخْلِيصَهُ مِنْ ذَاكَ اَلْكَابُوسِ اَلطَّوِيلِ اَلْمُرِيع...

فِي ذَلِكَ اَلْوَقت... كَانَ اَلْمُحَامِي تُومَاسْ بلويتْ يَتَجَوَّلُ بَيْنَ حُقُولِ اَلتَّبَغ، وَزَرَائِبِ اَلْمَوَاشِي، وَيُطَالِعُ أَحْوَالَ اَلْعَبِيدِ بِاهْتِمَامٍ، وَيُنَاظِرُ مُعَانَاتَهُمْ عَنْ كثب...

يُسَجِّلُ مُلَاحَظَاتهُ، وَأَقْوَالهُم اَلَّتِي لَمْ تَرُق لِأَصْحَابِ اَلْمَزْرَعَةِ، وَالْمَسْؤُولِينَ عَنْهَا بِأَيَّةِ حَالٍ لِذَلِكَ طَلَبُوا مِنْهُ اَلْكَفَّ عَنْ ذَلِكَ، أَوْ عَدَمِ ذِكْرِ اَلْأَسْمَاءِ بِطَرِيقَةٍ جَلِيَّةٍ إِنْ كَانَتْ وَثَائِقُهُ تِلْكَ سَتُنْشَرُ فِي مَكَانٍ مَا يَهْتَمُّ بِشُؤُونِ اَلْعَبِيد...

وفي تِلْكَ اَلْأَثْنَاءِ كَانَ قَدْ أَخَذَ أَيُوبَا وَقْتَهُ فِي تَنْسِيقِ، وَتَنْمِيقِ رِسَالَته لِتكُونَ شَافِيَةً، وَافِيَة... وَكَيْ لَا يَنْسَى أَيَّ تَفْصِيلٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَكُونَ عَامِلاً مُسَاعِداً فِي عَمَلِيَّةِ تَحريره...

ثمَّ، وَبَعدَ أَنْ شَعَرَ بِأَنَّهُ استوفى جَمِيعَ اَلشُّرُوطِ، وَالْمَعْلُومَات... قَامَ بِإِغْلَاقِ رِسَالَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَضَعَهَا فِي مظَروفٍ مُخَصَّصٍ لِلرّسَائِلِ لِيَكْتُبَ عَلَيهِ اَلْوُجْهَةَ، وَالْمَعْلُومَاتِ اَلْوَافِيَةِ، ثُمَّ أَخِيراً طَبَعَ قُبلَتهُ عَلَى الرّسَالَةِ اَلَّتِي تَأْمّلَ أَنْ تُلَامِسَ أَصَابِعَ أَبِيه، وَلَكِنَّهَا مَعَ اَلْأَسَفِ لَنْ تَتَجَاوَزَ حُدُودَ أَميرِكَا إِلَّا نَحوَ أوروبّا...

- 6 -

حَمَلَ اَلْمُحَامِي رِسَالَةَ أَيُوبَا، وَقَدْ غَمَرَهُ شُعُورُ اَلِانْتِصَار.... ثُمَّ دَزَّهَا فِي جَيْبِ سُتْرَتِهِ اَلْيَمِينِيَّةِ فَوْقَ صَدْرِهِ، وَقَدْ هَمَّ بالِانْطِلَاقِ بُغْيَةَ تَسلِيمِهَا لِلكَابتِن هِنري هَانت لِيَقُومَ اَلْأَخِيرُ بِدَوْرِهِ بِتَسلِيمِها لِلْكَابتِنِ بَايك اَلَّذِي سَيَحْمِلُهَا مَعَهُ عَلَى ظَهْرِ اَلسَّفِينَةِ اَلْمُتَوَجِّهَةِ فِي رِحلَتِهَا اَلتِّجَارِيَّةِ اَلْمُلَوَّثَةِ بِصَيْدِ اَلْعَبِيدِ فِي أَفرِيقْيَا كَيْ تَصِلَ لِوَالِدِ أَيوبا أَخِيراً، وَكَذَلِكَ لِيَدْفَعَ اَلْمَالَ مُقَابِلَ تَحرِيرِ ابْنِهِ اَلْأَمِيرِ اَلْأَسِير....وَرَغمَ أَنَّ أيوبا كَانَ قَد سَاوَرَهُ اَلشَّكُّ فِي مُسَاعَدَةِ أُولَئِكَ لَهُ فِي اَلتَّحَرُّرِ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ، وَلَا سِيمَا أَنَّهُمْ كَانُوا اَلْفَاعِلِينَ اَلْأَسَاسِيِّينَ فِي عَمَلِيَّةِ اِقْتِيَادِهِ، وَبَيْعِهِ إِلَى أَنَّ بلويت طَمأنهُ إِلَى حَقِيقَة أَنَّ هَؤُلَاء لَن يَتوَانوا عَنْ بَيْعِ أَنْفُسِهِمْ مُقَابِل اَلْحُصُولِ عَلَى اَلْمَال... قِيمَتَهُم اَلْوَحِيدَةُ هِيَ اَلْحُصُولُ عَلَى اَلْمَالِ يَا صَدِيقِي... لَا قِيَم أُخْرَى تَحْكُمُ أُولَئِكَ اَلْأوغاد... كُنَّ مُطْمَئِنّاً... قَالَ بَلَويت كَلِمَاتهُ بِحُضُورِ نُوا قَبلَ أَنْ يَرْكَبَ فَرَسُهُ، وَقَدْ بَدَأَتْ تُسَابِقُ الرّيح كَي يَحتَفِلَ أَيُوبَا بِاحْتِفَالَاتِ اَلْخَلَاصِ أَخِيراً، وَقَدْ لَوَّحَ لِصَدِيقِهِ اَلَّذِي لَمْ يَلْتَفِتْ، وَهُوَ يَهْتَزُّ عَلَى ظَهرِ فَرَسِهِ اَلْمُسرِعَةِ نَحوَ هنري هانت....

كَانَ أَيوبا شَدِيدَ اَلْإِعْجَابِ بِحَمَاسِ بلويت اَلَّذِي حَمَلَهُ اَلتَّعَاطُفُ عَلَى اَلْإِشْرَافِ عَلَى سَيْرِ إِرْسَالِ الرّسَالَةِ بِنَفْسِه... كَانَ رَجُلاً خَيّراً مُحِبًّا وَضَعَهُ اَللهُ – عَزَّ وَجَلَّ – فِي طَرِيقِ أَيُوبَا كَي يُسَاعِدَهُ عَلَى بَدءِ صَفْحَةٍ جَدِيدَةٍ بَيْضَاءَ لَا كَبَشَرَةِ البيض، وَلَا كَظُرُوفِ أَسْرِهِ، وَسَوَادِ لَيْلِهِ، وَمُعَانَاتِهِ...

وَهُنَاك... جَلَسَ بَطَلُنَا مُنْتَظَراً عُودةَ صَدِيقِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ أَمْرَ اِفْتِدَائِهِ، وَإِنْ وَصَلَ لِمَرْحَلَةِ اَلِافْتِدَاء... سَيَأْخُذُ وَقْتاً طَوِيلاً جِدّاً... وَقتاً لَا يَقِلُّ عَنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ رَيْثَمَا تَصِلُ السّفُنُ إِلَى أَفْرِيقْيَا، وَيَتِمَّ إِيصَالُ الرّسَالَةِ لِوَالِدِهِ... وَالْعَوْدَةِ بِالْمَالِ اَلْكَافِي لِتَحريرِهِ، وَلِتَأْمِينِ رِحْلَةِ عَوْدَتِهِ إِلَى بِلَادِهِ مَرَّةً أُخْرَى...

وَلَكِنَّهُ، وَعَلَى اَلرَّغمِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ تِلْك... وَمِنْ صَبْرِهِ اَلْكَبِيرِ، وَعِلْمِهِ اَلْغَزِيرِ لَمْ يَسْتَطِعْ ردعَ قَلْبِهِ عَنْ اَلنَّبْضِ بِسُرعَةٍ، وَحَيْرَةٍ، وَانْـشِرَاح... وَقَد بَدَأَ يَرَى اَلْوَجْهَ اَلْآخَرَ لِلْقَدَرِ اَلَّذِي رُسِمَ بَيْنَ قُضْبَانِ سِجْنِهِ فِي بَنِسَلفَانيَا... فَأَضْحَى مُدْرِكاً أَكْثَرَ أَنَّ اَلحَيَاةَ تُوَلِّدُ مِنْ اَلْمَوْت... وَالنَّهَارُ مِنْ اَللَّيْل... وَالْبَلَاءُ مِنْ اَلسَّقَم... وَكَذَلِكَ اَلْحُرِّيَّةُ تُولَدُ مِنْ قُضْبَانِ اَلسُّجُون!!

- 7 -

وَصَلَتِ اَلرِّسَالَةُ إِلَى هِنري هَانت أَخِيراً... وَلِأَنَّ قَصَّةَ أيوبَا كَانَتْ غَرِيبَةً مِنْ نَوْعِهَا... فَقَدَ تَذَكّرَ هَانت ذَلِكَ اَلْعَبْدَ اَلَّذِي أَقْسَمَ كَثِيراً أَنَّهُ أَمِيرٌ ابنُ مَلِك... وَتَذَكَّرَ أَيضاً أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا رَسُولاً لِصَدِيقِ وَالِدِهِ لِافتِدائِهِ، وَلَكِنّ ضِيقَ اَلْوَقْتِ حَال دُونَ عَوْدَةِ ذَلِكَ اَلرَّسُولِ بِمَا أَملوا أَنْ يَعُودَ بِه...

وَلَكِنَّ اَلْحَظَّ عَادَ لِيَلْعَبَ مَعَ أَيُوبَا لُعْبَةً جَدِيدَةً حَيْثُ أَنَّ هِنَرِي هَانت لَمْ يَسْتَطِعِ اَلْوُصُولَ بِالرِّسَالَةِ لِلْكَابتِنِ بَايك اَلَّذِي كَانَ قَدْ أَبْحَرَ مُنْذُ وَقتٍ قَصِيرٍ جِدّاً فِي رِحْلَتِهِ اَلْجَدِيدَةِ نَحوَ أَفرِيقيَا... وَهُنَاك... وَقْفَ هِنَرِي حَائِراً فِي أَمْرِ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ اَلَّتِي حَاوَلَ أَنْ يَقْرَأَهَا، وَلَكِنَّ لُغَتَهَا اَلْعَرَبِيَّةَ حَالَتْ دُونَ أَنْ يَفْهَمَ حَرْفاً وَاحِداً مِنْ حُرُوفِهَا... ففكّرَ بِحَلٍّ بَدِيلٍ بَعْدَ أَنْ شَعَرَ بِشَيْءٍ مِنْ اَلْفُضُولِ، وَالْمَسْؤُولِيَّةِ هَذِهِ اَلْمَرَّةِ لِتُرَاوِدِهُ فِكْرَةُ أَنْ يَعْرِضَ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ عَلَى أَحَدِ اَلسِّيَاسِيِّينَ اَلْمُخَضْرَمِينَ آنَذَاك... وهُوَ شَخْصٌ يَشْغَلُ مَنْصِبَ نَائِبِ مُحَافِظِ شَرِكَةِ «رُويَال أَفْرِيقا» اَلْمَسْؤُولَةِ عَنْ بَيْعِ اَلْعَبِيدِ، وَنَقْلِهِمْ نَحوَ اَلْعَالَمِ اَلْجَدِيد...

وَبالفِعل... لَمْ يَتَأَخَّر هَنْرِي هَانت فِي وَضْعِ تِلْكَ الرّسَالَةِ بَيْنَ يَدَي ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي شَعَرَ بِالْحَيْرَةِ بِدَوْرِهِ لِمعرفةِ فحوى تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ، وَمَا تَنْضَوِي عَلَيْهِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ، وَتَفَاصِيلَ شَغَلَتْهُ لِيَجِدَ تَرْجَمَةً لَهَا....

بَيْنَ قُطْعَانِ اَلْمَوَاشِي، وَغَابَاتِ مِيرِيَالَاند اَلْبَاسِقَةِ شَدِيدَةِ اَلْخُضْرةِ، وَالرُّطُوبَة... كَانَ أيوبَا يُحَاوِلُ إِشْغَالَ نَفْسِهِ بِالِالْتِزَامِ بِكُلِّ أَمَانَةٍ بِالْعَمَلِ اَلْمُوكَلِ إِلَيْهِ... مَعَ التفَاتِهِ نَحْوَ اَلْعِبَادَةِ، وَالصَّلَاةِ، وَالتَّفَكُّرِ، ومَعَ انخفاضٍ، وتراجعٍ مَلْحُوظٍ فِي شَهِيَّتِه... فعَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ صُعُوبَةِ اَلْحُصُولِ عَلَى وَجَبَاتِ اَلسَّمَكِ اَلَّتِي اِعْتَادَ أَيُوبَا أَنْ يَتَنَاوَلَهَا فِي بَلَده اَلْأُمِّ... فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَذَوَّقَ أَيّاً مِنْ لَحْمِ اَلْخِنْزِيرِ اَلَّذِي كَانَ، وَلَا يَزَالُ مِنْ اَلْوَجَبَاتِ اَلْأَسَاسِيَّةِ فِي أُورُوبَّا، وَأَمِيرِكَا... لِيَقتصرَ أَكْلَهُ لِلَّحمِ عَلَى ذَبَائِحَ يَذْبَحُهَا بِيَدِهِ فَقَط، أَوْ بِيَدِ مُسْلِمٍ آخَر... لِيَتَسَنَّى لَهُ، وَلِلْمُسْلِمِينَ غَيْرهُ اَلْأَكْلُ مِنْ تِلْكَ اَللُّحُومِ اَلَّتِي مَا كَانَ لِيُقْرَبهَا لَوْ لَمْ تَخْضَعْ لِشُرُوطِ اَلذَّبْحِ اَلَّتِي لَا يَتَهَاوَنُ بِهَا أَيُوبَا وَفقاً لِدِينِهِ، وَعَقِيدَتِهِ اَلْإِسلَامِيَّةِ...

كَانَتْ تِلْكَ اَلْأُمُورُ، وَغَيْرهَا اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْأَشْيَاءِ اَلَّتِي لَفَتَتْ اَلِانْتِبَاهَ نَحْوَ اِلْتِزَامِ أَيُوبَا، وَأَخْلَاقِهِ اَلْعَالِيَةِ، وَتَرْبِيَتِهِ اَلدِّينِيَّةِ اَلْقَائِمَةِ عَلَى قَوَاعِدَ ثَابِتَةٍ لَا يُمْكِنُ لِلْمُغْرِيَات أَنْ تَهُزَّ بُنْيَانَهَا، أَوْ أن تَقتَلِعَ جُذُورَهَا...

هُنَاك... كَانَ يَمْشِي مُسْتَذْكِراً أَوْلَادَهُ اَلْأَرْبَعَةَ... يَتَخَيَّلُ كيفَ أَنَّ فَاطِمَةَ لَا زَالَتْ بِانْتِظَارِهِ عَلَى بَابِ اَلْبَيتِ... رَآهَا تَقْفُ مَضفُورَةَ الجَديلَتَيْن... تَرْتَدِي ثَوْبَهَا اَلْأَزْرَقَ اَلسَّمَاوِيَّ اَلصَّغِيرَ اَلَّذِي لَطَالَمَا أَحَبَّهُ عَلَيْهَا... تَذَكَّرَ حِينَ أَوصى إِخْوَتَهَا أَنْ يَعْتَنيوا بِهَا... وَبَكَى لِكَمِّ اَلْخَيْبَةِ، وَالْآلَمِ، وَالْخَوْفِ اَلَّذِينَ تَسَبَّبَ بِهِمَ لَهَا بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهَا ذَلِكَ اَلْوَقْتَ اَلطَّوِيل...

لَقَدْ كَانَت اَلشَّمْعَةُ اَلَّتِي أَضَاءَهَا بلويت لَهُ شَمْعَةً ذَاتَ حَدَّيْنِ... فَهِيَ، وَإِنْ كَانَتْ قَد أَشْعَلَتْ بِدَاخِلِهِ جَذوةَ اَلْأَمَلِ لِلعَوْدَةِ إِلَى أَفْرِيقْيَا ثانِيَةً... فإِنَّ لَهِيبَها كَانَ يَحرُقُ صَبرَ أَيُوبَا اَلَّذِي لَمْ يَعُد يَقْوَى عَلَى اَلِانْتِظَارِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك... بَل، وَإِنّهُ صَارَ أَكْثَرَ إِلْحَاحاً، وَاسْتِذْكَاراً لِأَبْنَائِهِ، وَزَوْجَاتِهِ، وَوَالِدِهِ، وَإِخْوَتِهِ...

– لَمْ يَسْبِقْ لِي أَنْ رَأَيْتُ عَبداً أَتَى إِلَى هَذِهِ اَلْبِلَادِ، وَعوملَ كَمَا تُعَامَلُ أَنْت... هَنِيئاً لَكَ أيوبَا... إِنَّكَ مُخْتَلِفٌ يَا بُنَيّ... قَالَ نُوا، وَهُوَ يُشْرِفُ عَلَى عَمَلِ أَيُوبَا فِي رَعيِ اَلْأَغْنَامِ، وَقَدْ عَكَفَ عَلَى اَلْمُرُورِ عَلَيْهِ كُلِّ يَوْمٍ بَعْدَ أَنْ صَارَت عَلَاقَتُهُ مَعَه أَكْثَرَ تَوَطَّدَاً، وَأَكْثَر قُرْباً...

– ذَاكَ مِنْ فَضْلِ اَللهَّ عَلَيّ... وَإِنّي لِأَتَمَنَّى أَنَّ تُمْنَحُ اَلْحُرِّيَّةُ لِكُلِّ عَبِيدِ اَلْأَرْض... فِي هَذَا اَلْوَقْتِ اَلْقَصِيرِ أدركتُ كم مِنْ اَلْمُؤْلِمِ أَنْ يَسْتَعْبِدَ اَلْإِنْسَانُ أَخِيهِ اَلْإِنْسَان... اِخْتَبرتُ تَجْرِبَةً قَاسِيَةً، وَلَا زلت...

وَلَكِنَّنِي قَطَعَتُ أَشْوَاطاً مَا كَانَ لِي أَن أقطَعْهَا مِنْ مَكَانِي اَلْرِيحِ فِي بُونْدُو...

يَبْدُو أَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَدْخُلَ لُجَّةَ اَلْمَاءِ أَحْيَاناً لَنَتَطَوّرَ أَكْثَرَ فِي مِشْوَارِ اَلْحَيَاة...

– لَيْتَ اَلدُّرُوسَ تُمْنَحُ بِلَا قَسْوَة... قَالَ نوا خافِضاً رَأْسُهُ، وَقَدْ شَعَرَ بِالْخَيْبَةِ عَلَى كُلِّ تِلْكَ اَلسَّنَوَاتِ اَلَّتِي قَضَاهَا تَحتَ نيرِ العُبُودِيَّة... مُذعِناً لِوَضْعِهِ اَلَّذِي لَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْهُ أَبٌ، وَلَا سُلْطَةٌ قَبِيلَةٍ، وَلَا جَبَرُوتُهَا...

شَعَرَ بِالْأَلَمِ لِكُلِّ ذَاكَ اَلْعُمْرِ اَلَّذِي دَفَعَهُ ثَمناً لِكَفِّ اَلْأَذَى عَنْهُ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ به اَلْعُمْرُ، وَأَصْبَحَ مَسْؤُولاً عَنْ تَأْهِيلِ، وَتَدْرِيبِ اَلْعَبِيدِ...

– لَنْ يَكُونَ لَهَا أَيّةُ فَائِدَةٍ مَا لَمْ تَكُنْ دُرُوساً قَاسِيَة!!.. اَلْبَشَرُ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا يَأْتِيهِمْ بِيُسْرٍ، وَسُهُولَة!!... يَعْتَقِدُونَ أَنَّ قِيمَةَ اَلْأَشْيَاءِ تَتَوَقَّفُ عَلَى كَمِّ اَلثَّمَنِ اَلَّذِي نَدْفَعُهُ لِنَحْصُلَ عَلَيْهَا...

– ذَاكَ صَحِيحٌ مَعَ اَلْأَسَـف!!... قَالَ نُوا ذَلِـكَ بَيْنَمَا هَمَّ بِالِانْصِرَافِ، وَقَد فَتَحَ ذَاكَ اَلْحَدِيثُ جُرْحاً قَدِيماً فِي دَاخِلِه... فَالْعَبِيدُ هَا هُنَا... اَلْقُدَمَاءُ، وَالْجُدُد... كَانُوا يَغبِطُونَ أَيوبا كَوْنُهُ أَمِيرٌ ابنُ مَلِك... فَهُوَ قَدْ اِرْتَاحَ مِنْ اَلْأَعْبَاءِ اَلَّتِي لَازَالَتْ تَرزحُ عَلَى كُوَاهلهمْ... كَمَا، وَأَصْبَحَ يُمَارِسُ طُقُوسَهُ اَلْخَاصَّةَ دُونَ تَضْيِيقٍ،

وَسُخْرِيَةٍ، أَوْ تَرْهِيب...

وَلَكِنَّ اَلْأَهَمَّ مِنْ ذَلِكَ فِي نَظَرِهِمْ أَنَّهُ يَسْتَعِدُّ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِهِمْ أَفْرِيقْيَا... إِلَى أَشْجَارِهَا... وَبُيُوتِهَا... وَسُكَّانِهَا... وَنَسِيمِ طَبِيعَتِهَا... وَدِفْءِ شِتَاءَاتِهَا... إِلَى اَلْبُيُوتِ اَلَّتِي اِشْتَاقوا لَهَا حَدَّ اَلْمَوْت... وَإِلَى اَلْعَائِلَاتِ اَلَّتِي لَا يَدْرُونَ كَيْفَ، وَأينَ فِرّقهَا الزّمَن...

وَعَلَى اَلْجَانِبِ اَلْآخَر... فَقَد عَرَفَ أَيُوبَا أَمْرَ تِلْكَ اَلْمَشَاعِرِ اَلَّتِي يُكِنُّهَا لَهُ اَلْبَقِيَّةُ، وَقَدْ عذَرَ لَهُمْ مَا يُرَاوِدُهُمْ مِنْ أَفْكَار... وَمَا يَعْتَرِيهِمْ مِنْ أَحَاسِيسَ ارتأى بِأَنَّهَا مَشْرُوعَةٌ لِأُولَئِكَ اَلْأَصْدِقَاءِ اَلَّذِينَ أَحَبَّهُم، وَتَعَاطُفَ مَعَ آلَامِهِم حَدَّ اَلْبُكَاء...

- 8 -

كَانَ اَلْحَلُّ اَلْوَحِيدُ بِالنِّسْبَةِ لِجيمْسْ اُوغليثورب نَائِبُ مُحَافِظِ شَرِكَةِ رُويَالْ أَفْرِيكَا أَنْ يُرْسِلَ رِسَالَةً إِلَى رَئِيسِ قِسْمِ اَللُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ فِي جَامِعَةِ إِكْسِفُورْد جُونْ جَاجْبِير لِيُتَرْجِمهَا لَهُ...

وَلَكِنَّ اَلْمُدْهِشَ فِي اَلْأَمْر أنَّ جَاجبير أثنى، وَالْمُسْتَشْرِقِينَ فِي إِكْسِفُورْد على أُسْلُوبِ كَاتِبِ هَذِهِ اَلرِّسَالَةِ اَلْأَدَبِيِّ، وَفَصَاحَتِهِ اَللُّغَوِيَّةِ، وَمَقْدِرَتِهِ اَللَّافِتَة...

كَانَ لِذَاكَ اَلثَّنَاءِ أثراً كَبِيراً فِي ذِهْنِ جِيمْس أَوْغليثورب...وَلَكِنَّ ما استوقفهُ أَكْثَر، وَمَا أَثَارَ تَعَاطُفَهُ، وَحُزْنُهُ كَانَ أَمْراً آخَر... أَمْراً آخَر تَمَاماً... حَيْثُ أنَّ اَلْأَخِيرَ تَعَاطُفَ تَعَاطُفاً شَدِيداً مَعَ اَلْقِصَّةِ اَلَّتِي خَطّهَا أيوبا... وَشَرَحَ بِهَا كمَّ اَلتَّعْذِيبِ، وَالتَّنْكِيلِ، وَالْخَوْفِ اَلَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ فِي رِحْلَةِ اَقتِيَادِهِ إِلَى اَلْعَالَمِ اَلْجَدِيد...

لَمْ يَكُنْ لأيُوبَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ رِسَالَتَهُ اَلَّتِي تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ اَلْآن عَلَى مَتْنِ سَفِينَةِ اَلْكَابتِن بَايك... تَشُقُّ طَرِيقَهَا مَعَهَا نَحْوَ أَفْرِيقْيَا... لَمْ تُفَارِقْ أرضَ أَميركَا إِلَّا نَحْوَ بِرِيطَانْيَا لِتتِمَّ تَرْجَمَتهَا بَعْدَ أَنْ أَثَارَتْ فُضُول سِيَاسِيٍّ مُحَسَّنٍ أَحَبَّ أَنْ يَقِفَ عَلَى مَا حَمْلَتْهُ مِنْ حُرُوفِ،

وَتَفَاصِيل لِتَكُونَ اَلنَّجْدَةُ اَلْإِلَهِيَّةُ لَأيوبَا سَرِيعَةً هَذِهِ اَلْمَرَّة... سَرِيعَةً إِلَى اَلدَّرَجَةِ اَلَّتِي لَمْ يَتَخَيَّلْ أَيُوبَا حُدُوثَها... وَهُوَ اَلَّذِي كَانَ عَلَى بُعْدِ خُطُوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنْ اَلِانْعِتَاقِ، وَالْعَوْدَةِ إِلَى أَحْضَانِ اَلْحُرِّيَّةِ... لِتُحَلِّقَ أَجْنِحَتُهُ مِنْ جَدِيد...

كَانَ اَلْقَسُّ اَلْمُحَامِي توماس بلويت يُسَابِقُ أَعنّةَ اَلرِّيحِ مِنْ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ اَلَّتِي لَمْ تَكُنْ عَلَى مَا يَبْدُو أَقَلَّ فَرَحاً مِمَّنْ اِعْتَلَى صهْوَتَها... كَيْفَ لَا!! وَقَدْ جَلَبَ بِيَدِهِ لَأيوبَا رِسَالَةَ اَلْخَلَاصِ اَلَّتِي طَالَ اِنْتِظَارُهُ لَهَا...

كَانَ سَعِيدًا جِدّاً لِدَرَجَةِ أَنَّ عَيْنَيْهِ اَلْمُلَوَّنَتَيْنِ لَمْ تَكْفّا عَنْ اَلِابْتِسَامِ طَوَالَ رِحْلَتِهِ اَلَّتِي اِسْتَغْرَقَتْ يَوْماً كَامِلاً فِي رِحلَةِ الرّجُوعِ لَأيوبَا... وَاَلَّتِي كَانَ خِتَامُهَا مِسكٌ كَمَا يَشِي لِسَانُ حَاله...

– هِيَيي... جووووب... صَاحَ بلوِيتِ، وَهُوَ يُمْسِكُ رِسَالَةً مَلْفُوفَةً بِلَوْنٍ بُنِّيٍّ فَاتِحٍ بَيْنَمَا تَرَجَّلَ عَنْ صَهْوَةِ حِصَانِهِ، وَأَخْذٌ يَصْعَدُ إِلَى اَلْمَكَانِ اَلَّذِي يَقْبَعُ بِهِ أَيُوبَا، وَاَلَّذِي مَا أَنْ سَمِعَ صَوْتَ بلويت حَتَّى خَرَجَ مُسْرِعاً لِيُعَانِقَهُ اَلْأَخِيرُ بِكُلِّ سَعَادَةٍ، وَهُوَ يُطْلِقُ كَلِمَاتِهِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةَ، وَاَلَّتِي لَمْ يَفْهَمْ أَيوبا مِنْهَا شَيْئاً، وَلَكِنَّهُ عَرَفَ أَنَّ فِي اَلرِّسَالَةِ مَا سَيُسْعِدُ قَلْبُهُ، وَيَطْمَئِنُّ رُوحَهُ، بَلْ، وَسَيَمْنَحُهُ اَلْحُرِّيَّةَ اَلَّتِي مَا كَانَ يَتَصَوَّرُ نَفْسَهُ مُؤَخَّراً إِلَّا، وَقَدْ عَادَ إِلَى أَحْضَانِهَا....

فِي كُوخِ أَيوبا اَلْمُتَوَاضِعِ جَلَسَ نُوا بَيْنَ بلويت، وَصَدِيقِهِ لِيُتَرْجِمَ لِكِلَيْهِمَا ردودَ بَعْضِهِمَا اَلْبَعْض...

– كُنْتَ مَحْظُوظاً جِدّاً هَذِهِ اَلْمَرَّة... لَقَدْ دَفَعَ جِيمْسْ اُوغليثورب مَالاً مِنْ مَالِهِ اَلْخَاصَّ لِاقْتِدَائِكَ... كَانَتْ قِصَّتُكَ مُؤَثِّرَةً إِلَى أَبْعَدِ اَلْحُدُودِ مِمَّا جَعَلَهُ يَدْفَعُ كُلَّ ذَلِكَ اَلْمَالِ لِمَنْحِكَ حُرِّيَّتَك أيوبا!!...

ما أن انتهى نوا من ترجمةِ ذلكَ اَلْكَلَامِ اَلَّذِي تَفَوَّهَ بِهِ بلويت للتَّوُّ حَتَّى قَفَزَ أيوبَا مِنْ مَكَانِهِ، وَسَجَدَ للهَّ سُجُوداً طَوِيلاً بَيْنَمَا رَاحَ يَذرفُ دُمُوعَهُ بِغَزَارَةٍ لِجَمَالِ ذَلِكَ اَلْخَبَرِ اَلَّذِي سَمْعُه... وَلِذَاكَ اَلْخَيْرِ اَلْوَفِيرِ اَلَّذِي سَاقَهُ اَللهُ لَهُ ثَوَاباً لِصَبْرِهِ، وَالْتِزَامِهِ، وُسْعَةِ صَدْرِهِ، وَدَمَاثَةِ أَخْلَاقِهِ... بَيْنَمَا أَمْسَكَ بلويت بِصَلِيبِهِ اَلْمُعَلِّقِ عَلَى صَدْرِهِ مُغْمِضاً عَيْنَيْهِ شَاكِراً الرَّبِّ لِذَاكَ اَلتَّوْفِيقِ اَلْعَظِيمِ، وَالنَّصْرِ اَلْمُؤَزَّر...

اَلْفَصل اَلسَّادِس:

- 1 -

اَلْآن... عَادَ لِلْحَيَاةِ لَوْنُهَا، وَلِلْأَيَّامِ أَلْقُهَا... وَالْيَوْمِ لَا سِيَاطَ تَعلُو، وَلَا جُرُوحَ تَرْسُم... إِنَّهُ صَبَاحُ اَلْحُرِّيَّةِ مِنْ جَدِيد... صَبَاحُ اَلطُّيُورِ اَلَّتِي عَادَتْ تُحَلِّقُ بِأَجْنِحَتِهَا فِي سَمَاءِ أَميرِكَا قَاصِدَةً أَدْغَالَ أَفْرِيقْيَا...

وَبِالرُّجُوعِ لِتِلْكَ اَللَّيْلَةِ اَلَّتِي عَلِمَ بِهَا أَيُوبَا بِأَمْرِ افتِدَاءِهِ مِنْ قِبَلِ اَلْمُحْسِنِ جِيمْس أوغليثورب... فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ لَيْلَةً عَادِيَّةً عَلَى اَلْإِطْـلَاق... كَانَت اِحْتِفَالاً تَخْتَلِطُ بِهِ اَلضِّحْكَاتُ بِالدُّمُوع... وَالذِّكْرَيَاتُ بِالْآمَال... وَالْأَوْهَامُ بِالْحَقَائِق...

فَقَدْ جَلَسَ أَيُوبَا اَلَّذِي عَادَتْ لَهُ حُرِّيَّتُهُ اَلْمَسْلُوبَةُ لِلتَّوِّ قُبَالَةَ صَدِيقِهِ بلويت مُنصتاً لِتَرجمةِ نُوا مَعَ اِسْتِمْرَارِ مُحَاوَلَاتِهِ لِتَعَلُّمِ اَللُّغَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّة...

غَدا اِحْتِكَاكُهُ بِالْقَسِّ مُفِيداً إِلَى أَبْعَدِ اَلْحُدُود... حَدَّثَهُ بَلويت كَيْفَ أَنَّ رِسَالَتَهُ لَمْ تُوَفَّقْ فِي رُكُوبِ سَفِينَةِ بَايك... وَأَنّ هِنْري، وَبُعْدِ أَنْ ضَاقَتْ بِهِ جَمِيعُ اَلسُّبُلِ، وَضْعَهَا بَيْنَ يَدِي اَلسِّيَاسِيِّ جِيمْس

أُوغليثورب اَلَّذِي أَرْسَلَهَا بِدَوْرِهِ إِلَى بِرِيطَانْيَا... وَتَحدِيداً إِلَى جَامِعَةِ إِكْسفُورد لِيَتَسَنَّى لَهُمْ فَهْمُ مُحْتَوَاهَا...

حَدَّثَهُ أَيْضاً كَيْفَ عَادَتْ رِسَالتهُ مَعَ اَلْإِشَـادَةِ، وَالدَّهْشَةِ، وَالْإِعْجَابِ بِلُغَتِهَا اَلْفَصِيحَةِ اَلرَّصِينَة... وَكَيْفَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ سَبَباً فِي دَفْعِ أُوغليثورب الْفِدية لِتَحريرِ أيوبَا، فحسب... بَلْ إِنَّهَا كَانَتْ اَلسَّبَبَ اَلرَّئِيسِيَّ لِتَحْرِيمِهِ تِجَارَةَ اَلْعَبِيدِ فِي جُورجيا بِشَكْلٍ قَطْعِيٍّ تَماماً...

– اَللهُ أَكْبَر... قَالَ أَيوبا رَافِعاً يَدَيْهِ نَحْوَ اَلسَّمَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْمُرَ رَأْسُهُ، وِيجهشَ بِالْبُكَاء...

– لَمْ تَكُنْ صَلَاتُكَ لَكَ وَحْدَكَ يَا صَدِيقِي... لَقَدْ اِسْتَطَاعَتْ أَنْ تُسَاعِدَ أَشْخَاصَ آخَرِين أيضاً... أَظُنُّ أَنَّهَا نُقْطَةُ تَحَوُّلٍ هَامَّةٍ فِي تِجَارَةِ اَلرِّقِّ، وَالْعَبِيد... إِنَّهُ لِأَمْر لَيْسَ بِالسَّهْلِ أَنْ يَقُومَ نَائِبُ مُحَافِظِ شَرِكَةِ رُوياَلْ أُفريكا بِتَحْرِيمِ بَيعِ اَلْعَبِيدِ أَيُوبَا!!... هَلْ تُدْرِكُ مَعِي مَدَى أَهَمِّيَّةِ اَلْأَمْر؟؟

هزَّ بلويت رأسهُ مادّاً يدهُ المُستفهمةَ لسؤالِ أيوبا اَلَّذِي كَانَ شَغْلُهُ الشّاغِلُ اَلِامْتِنَانَ للهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – عَلَى كُلِّ تِلْكَ اَلتَّسْهِيلَاتِ، وَالْحُلُولِ اَلَّتِي صَارَتْ اَلْآنَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَدْ عَادَ حُرّاً مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنَّهُ حَتْماً لَمْ يَكُنْ حُرّاً بِالْمَفْهُومِ اَلَّذِي عَرَفَهُ مِنْ قَبلِ عَنْ اَلْحُرِّيَّة...

- 2 -

فِي اَلْفَتْرَةِ اَلَّتِي تَلَتْ اِسْتِرْدَادَ أَيوبا لِحُرِّيَّتِهِ... كَانَ اِهْتِمَامُهُ مُنْصِبّاً عَلَى تَعَلُّمِ اَللُّغَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّة... فَإِنَّهُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مُنِحَ أَعْظَمَ مِمّا تَمَنَّى لِيَعُودَ إِلَى بَلَدِهِ أَفْرِيقْيَا... فَقَدْ نَصَحَهُ صَدِيقُهُ اَلْمُقَرَّبُ تُومَاسْ بَالْسَفرِ مَعَهُ إِلَى لَنْدَن فِي بِرِيطَانْيَا... لِيَحْدّث قِصَّتَهُ لِمَنْ يَهْتَمُّونَ بِهَا، وَيُنْصِتُونَ لِسَمَاعِ أَحْدَاثِهَا، وَارْتِدَادَاتِهَا...

وَمِنْ هَذَا اَلْمُفْصِلِ بِالذَّات، كَانَ عَلَى بَطَلِنَا أَيُوبَا أَنْ يَدْخُلَ تَحَدّياً جَدِيداً بِتَعَلُّمِ اَللُّغَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِيَسْتَطِيعَ اَلتَّحَدُّثَ بِلُغَةِ مَحَاوِرِيهِ... وَلِيَشْرَح قِصَّتَهُ هُنَاكَ بِحُرِّيَّةٍ مُطْلَقَةٍ بَعِيداً عَنْ اَلتَّرْجَمَةِ اَلَّتِي قَدْ لَا تَنْقُلُ أَوْجُهَ اَلْحَقِيقَةِ كَامِلَةً... لَقَدْ اِسْتَطَاعَ اَلْعَبْدُ اَلْأَمِيرُ اَلَّذِي قَضَى حَوَالَي ثمانيةَ عشرَ شَهْراً فِي قُيُودِ اَلرِّقِّ، وَالْعُبُودِيَّةِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِذَاكِرَتِهِ اَلْفُولَاذِيَّةِ، وَذَكَائِهِ اَلْفَذِّ مُنْقَطِعِ اَلنَّظِيرِ لِيَتَعَلَّمَ تِلْكَ اَللُّغَةَ بِأَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ قَبْلَ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى اَلْمَكَانِ اَلَّذِي سَيَكُونُ لَهُ بِهِ شَأْنٌ عَظِيمٌ، وَمُرَتَّبَةٌ لَا يَصِلُهَا إِلَّا مِنْ دَعّمَ خُطَاهُ بِرِضَا رَبِّ اَلْعَالَمِيْنِ...

– إِنَّ كَلَامَهُ عَنْ اَللهِ اَلَّذِي يَعْبُدُهُ، وَالدِّينُ اَلَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ يَجْعَلُ اَلْقُلُوبَ تُطَمْئِنُ بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَة!!... لَا مَكَان لِلْأَلَمِ، وَلَا لِلْخَوْفِ، وَلَا

لِلْجِراحِ عِنْدَمَا يَنْطِقُ بِحُرُوفِهِ تِلْك... قَالَ جِونيس لِلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ يَقْطُنُونَ مَعَهُ فِي ذَاتِ اَلْبَيْتِ، وَقَدْ أَشْعَلُوا اَلنَّارَ، وَجَلَسُوا يَتَقَاسَمُونَ أَحَادِيثَهم، وَرِوَايَاتهَم...

- أَنَّهُ مَحْظُوظ... مَحْظُوظٌ جِدّاً!!...هَا نَحْنُ نَصحو كُلَّ يَوْمٍ لِنُصَلِّيَ للهَّ دَاخِلَ اَلْكَنِيسَةِ قَبلَ اَلْبَدءِ بِعَمَلِنَا فَجْراً... لَكِنَّ مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْدُث!!.... مَا مِنْ أَمْرَ تَغَيّرَ مُنْذُ أَنْ وَطِئنا هَذِهِ اَلْأَرْضِ اَللَّعِينَة... قَالَ عَبْدُ مِنْ اَلْعَبِيدِ مَسْتَنْكِراً أَنْ يَكُونَ سَبَبُ تَحرِيرِ أَيُوبَا هُوَ اِنْتِمَاؤُهُ لِدِينٍ مُعَيَّنٍ، أَوْ إِيمَانِهِ بِرَبِّهِ اَلَّذِي يُنَاجِيهِ، وَيُصَلِّي إِلَيْه...

- جونيس عَلَى حَقّ... لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نُنْكِرَ أَنَّ أَيوبا لَيْسَ مِثْلَنَا!!... مُذ كَانَ مَعَنَا هَا هُنَا كَانَ قَلِيلَ الاخْتِلَاطِ، وَالْكَلَام... يَتَعَبَّدُ طَوَالَ اَلْوَقْتِ، وَيَتَوَاصَلُ مَعَ رَبِّهِ بِشَكْلٍ غَيْرِ مُنْقَطِع... أَظُنُّ أَنَّ اَلْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِإِيمَانِهِ ذَاكَ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيءٍ آخَر... لَا زِلْتُ لَا أَنْسَى اِبْتِسَامَتُهُ الدّائِمَةُ عَلَى وَجْهِهِ رَغمَ كُلِّ مَا مَرَّ بِه!!... أَجَابَ عَبْدٌ آخَرُ بَيْنَمَا كَانَ اَلْجَمِيعُ يُنْصِتُونَ، وَيُشَارِكُونَ بِالْحَدِيثِ اَلدَّائِرِ حَوْل أَيُوبَا اَلَّذِي اِسْتَطَاعَ أَنْ يَبْذُرَ بَذْرَةَ اَلْإِسْلَامُ اَلْأُولَى فِي أَرْضِ اَلْعَبِيدِ اَلْقَاحِلَةِ، وَاَلَّتِي كَانَتْ تَحتَاجُ أَيّما حَاجَةٍ لِتِلْكَ اَلْبَذْرَة... لِتِلْكَ اَلْعَقِيدَةِ اَلَّتِي سَوْفَ تُخَفِّفُ عَلَى تِلْكَ اَلْأَرْضِ هولَ اَلْآلَام، وَتَمَسَّكُ بِيَدِهَا فِي طَرِيقِ اَلْخَلَاصِ اَلَّذِي غدا وَشِيكاً جِدّاً عَلَى جَمِيعِ اَلْعَبِيدِ فِي تِلْكَ اَلْحِقْبَة...

- 3 -

عَلَى بَابِ ذَلِكَ اَلْكُوخِ اَلَّذِي سَكَنُهُ أَيُوبَا فَتْرَةً لَا بَأْسَ بِهَا تَجَمّعَ اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلرِّفَاقِ كَيْ يُوَدِّعُوا صَدِيقَهُمْ اَلْمُسَافِرَ نَحْوَ لَنْدَن... وَفِي اَلدَّاخِلِ كَانَ أَيوبا يَجْمَعُ آخِر أَغْرَاضِهِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى للهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - رَكْعَتَيْنِ عَلَى نِيَّةِ اَلتَّوْفِيقِ، وَالْيُسْرِ، وَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يُرَاقِبَ اَلْفَجْرَ اَلْأَخِيرَ لَهُ فِي هَذَا اَلْمَكَانِ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ عُبَابَ اَلْبَحْرِ قَاصِداً اَلمَدِينَةَ اَلَّتِي سَيَصْنَعُ بِهَا مَا لَمْ يَصْنَعْ مِنْ قَبل مَنْ سَبَقَ وَوَطِئَ أَدِيمَهَا مِنْ اَلْعَبِيد...

هُنَاك... حَاوَلَ أَنْ يُلَامِسَ كُلَّ اَلْأَثَاثِ اَلْمَوْجُودِ عَلَى قِلّتِهِ... أَنْ يُرَتِّبَ اَلْأَشْيَاءَ تَرْتِيباً دَقِيقاً، وَأَلَّا يَبْقَيَ عَلَى تَفْصِيلٍ وَاحِدٍ دُونَ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْهِ نَظْرَةَ اَلْوَدَاع...

وَلَقَدْ أَرَادَ لِلشَّمْسِ أَن تَدَخلَ كَكُلِّ يَوْمٍ إِلَى أَنْحَاءِ ذَاك اَلْمَكَانِ، فَفَتَحَ اَلنَّوَافِذَ اَلْمَصْنُوعَةَ مِنْ اَلْقَصَبِ عَلَى وُسْعِهَا قَبْل أَنَّ يُجيلَ عَيْنَيْهِ فِي اَلْمَكَانِ جَوْلَةً أَخِيرَةً... لِيَخْرُجَ مِنْ اَلْبَابِ اَلَّذِي تَرَكَهُ مَفْتُوحاً، وَهَبَطَ إِلَى اَلْأَصْدِقَاءِ اَلْمُنْتَظِرِينَ، وَهُوَ يَحْمِلُ كِيسَ أَغْرَاضِهِ اَلْقُمَاشِيِّ عَلَى كَتِفِهِ بَيْنَمَا حَمَلَ بَعْضَ اَلْأَوْرَاقِ فِي يَدِهِ اَلْيُمْنَى لِيُوَزِّعَهَا عَلَى اَلْأَصْدِقَاءِ اَلْبَاكِينَ اَلْمُتَأَلِّمِين...

- لَا يُمْكِنُ أَنْ أَتَخَيَّلَ أَنَّكَ سَوْفَ تَرْحَلُ، وَأَنَّنِي لَنْ أَرَاكُ بَعْدَ ذَلِكَ!!... أَنَا وَحِيدٌ بِدُونِكَ أيوبَاااا... قَسْوَةُ هَذَا اَلْيَوْمِ لَا تُقِلُّ قَسْوَةً عَنْ يَوْمِ أَسْرِيَ، وَاقْتِيَادِي لِأَوَّلِ مَرَّة.... قَالَ جُونِيس بَاكْيَاً بِغَزَارَةٍ، وَقَدْ اِسْتَعْصَى عَلَيْهِ خُرُوجُ اَلْكَلِمَاتِ مِنْ فَمِه... وَكَأَنَّهُ كَانَ يَبْكِي نَفْسَهُ، وَكُلَّ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ يَرْزَحُونَ تَحْتَ تِلْكَ اَلتَّهْلُكَة...

- لَسْتُ وَحْدَكَ جُونيس... أَيْقن دَائِماً أَنَّ اَللهَّ مَعَكَ فِي كُلِّ وَقْت... ثُمَّ أَعْطَاهُ وَرَقَتَهُ اَلَّتِي كَتِبَ عَلَيْهَا أَيوبا بِخَطِّهِ اَلْجَمِيل

{يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا اِسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ، وَالصَّلَاةِ إِنَّ اَللهَّ مَعَ اَلصَّابِرِينَ} سُورَةُ اَلْبَقَرَة...

تَنَاوُل جونيس اَلْوَرَقَةَ مِنْ يَدِ أَيُوبَا، وَقَدْ تَوَقَّفَ عَنْ اَلْبُكَاءِ بَعْدَ أَنْ قَرأَ أَيوبا بِصَوْتِهِ اَلْعَذْبِ اَلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى اَلرَّاحَةِ، وَالْإِحْسَاسِ اَلْعَمِيقِ بِالْأَمَانِ مَا كَتَبَهُ عَلَى اَلْوَرَقَةِ قَبْلَ أَنْ يهِمَّ بِتَسْلِيمِ اَلْأَوْرَاقِ اَلَّتِي كَتَبَهَا لَهُمْ كَنَوْعٍ مِنْ تَرْكِ اَلْأَثَرِ اَلْجَمِيلِ آملاً أَنْ تَكُونَ هَذِهِ اَلْآيَاتُ، وَمَا جَاءَ بِهَا مَلْجَأً لِأُولَئِكَ اَلْمُعَذَّبِينَ كُلَّمَا ضَاقَتْ بِهُمْ سُبُلُ اَلْحَيَاةِ، وَأَغْلَقَتْ فِي وُجُوهِهِمْ أَبْوَابَهَا...

لَحَظَاتٌ قَلِيلَةً بَعْدَ اِسْتِلَامِ تِلْكَ اَلْأَوْرَاقِ، وَكَانَتْ رُؤُوسُ اَلْعَبِيدِ مُلَاصِقَةً لِأَدِيمِ اَلْأَرْضِ اَلتُّرَابِيَّةِ هُنَاك.... عندما سَجَدُوا جَمِيعاً بِرِفْقَةِ جُونِيس، وقد أسلموا، وهمّوا ها هُنا بنُطقِ شهَادَتَي الإسلام!!....

كانَ ذلكَ أَمَامَ أنظارِ أيُوبَا اَلَّذِي خَرَّ سَاجِداً مَعَهُمْ بَيْنَمَا غَرِقَ اَلْجَمِيعُ فِي بُكَاءٍ مَرِير....

وَقْفِ أيُوبَا بِرِفْقِةِ اَلْقَسِّ بِلويت مُصَافَحاً سيِّدِهُ اَلْقَدِيم تَولستوي، وَ المَسْؤُولَ عَنْه قاشيل دينتون... الّذَين حضرا لتوديعهِ بعدَ أن علما بِأَنَّهُ لَمْ يُوَافِقْ عَلَى اَلسَّفَرِ دُونَ إِلْقَاءِ تَحِيَّةِ اَلْوَدَاعِ عَلَى جَمِيعِ اَلرِّفَاقِ... وَعَلَى اَلسَّكَنِ... وَالْمَزْرَعَةِ... وَالْمَسْؤُولِينَ سَابِقاً عَنْهُ... وَ ها هُوَ اَلشَّخْصُ اَلَّذِي دَخَلَ عَبْداً يخرجُ سَيِّداً، وَقَدْ لَوَّحَتْ لَهُ اَلْأَيَادِي جَمِيعُهَا... وَلِأَوَّل مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ تِلْكَ اَلْمَزْرَعَةِ تَتَّحِدُ أَيَادِيَ اَلْأَسْيَادِ بِأَيَادِي اَلْعَبِيدِ... وتُلوّحُ مَعاً بِحَرَكَةٍ وَاحِدَةٍ لِشَخْصٍ وَاحِد...

شَخْصٌ رَكْبَ فَرَسهُ إِلَى جَانِبِ اَلْقَسِّ اَلَّذِي تَوَلَّى أَمْرَ تَحْرِيرِهِ، وَنَجَحَ بِالْفِعْل... وَقَدْ بَدَأَ يَغِيبُ شَيْئاً، فَشَيْئاً عَنْ أَنْظَارِ جَمِيعِ اَلْوَاقِفِينَ...

أَمَامَ اَلسَّفِينَةِ اَلْكَبِيرَةِ اَلَّتِي كَانَ أَيوبا عَلَى وَشكِ اَلِالْتِحَاقِ بِهَا... وَقْفَ اَلْأَخِيرُ مُتَأَمِّلاً أَيَّامَ اَلْحَيَاةِ، وَتَقَلُّبَاتِهَا!!... فَبِالْأَمْسِ كَانَ يُقَادُ فِي سَلَاسِلَ حَدِيدِيَّةٍ تَلفُّ عُنُقَه، وَمَعصميه، وَكَاحِلَيْهِ... وَقَدْ نَحُلَ، وَحُلِقَ شِعْرُ رَأْسِهِ، وَلِحْيَتِه... بَيْنَمَا تَتَسَاقَطُ اَلسِّيَاطُ عَلَى جَسَدِهِ، وَ أجسادِ مَنْ حَولهِ دُون أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ مقدرةً، وَلَا حَوْل...

وَالْيَوْم... هُوَ عَلَى وَشْكِ اسْتِقْلَالِ اَلسَّفِينَةِ اَلَّتِي سَتُبْحِرُ بِهِ،

وَبِصديقِهِ اَلْقِسّ اَلْمَسِيحِيّ تُومَاسْ بلويتْ إِلَى قَلْبِ لَنْدَن لِيَكْتُبَ بِكَفِّهِ، وَقَلْبِهِ، وَلِسَانِهِ تَارِيخاً جَدِيداً لَهُ... وَلِقِصَّةِ اَلْعُبُودِيَّةِ اَلْمُرِيعَةِ اَلَّتِي عَاشَهَا شَعْبُ أَفْرِيقْيَا اَلْمِسْكِينِ لِأَرْبَعَةِ قُرُونٍ، وَ نيّف...

– لَقَدْ حَانَ اَلْوَقْتُ أَيُّهَا اَلصَّدِيق... أَيوبا بْنْ سُلَيْمَانْ جَالُو لَا نَوَدُّ أَنْ نَتَأَخَّرَ بِالصُّعُودِ إِلَى مَتْنِ اَلسَّفِينَة... أَمْ أَنَّكَ قَدْ غَيَّرَتْ رَأْيَك؟؟ قَالَ بَلَويت لأيوبَا مُمَازِحاً بَيْنَمَا اِبْتَسَمَ اَلْأَخِيرُ، وَهَزَّ رَأْسُهُ بِرِفْقٍ، وَقَال:

– أَتُوقُ شَوْقاً لِذَلِك... وَأَتَمَنَّى أَن لَا تَطُولَ رِحْلَتِي قَبْلَ أَنْ أَرْكَبَ السّفِينَةَ اَلْمُتَوَجِّهَةَ إِلَى بَلَدِي أَفْرِيقْيَا... بَلَدَ اَلشَّعبِ اَلَّذِي دَفَعَ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْبَشَرِ، وَلَا يَزَال...

– آمُلُ ذَلِكَ أَيُّهَا اَلرَّائِع... قَالَ بلُويت بَيْنَمَا صَعَّدَ اَلْاِثْنَانِ دَرَجَ اَلسَّفِينَةِ الرّاسِية... وَاَلَّتِي كَانَتْ تُطْلِقُ صفِيرَهَا اَلْمُرْتَفِعَ جِدّاً، وَاَلَّذِي كَانَ يَحْمِلُ أَثَراً قَاسِياً فِي ذَاكِرَةِ أَيُوبَا اَلَّذِي تَنَفَّسَ بِعُمْقٍ، وَرَاحَ يصَعدُ آخِر اَلْأَدرَاج....

- 4 -

عَلَى ظَهْرِ اَلسَّفِينَةِ اَلَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ أَيُّوبَا إِلَى عَالَمٍ جَدِيدٍ حَقِيقِيٍّ هَذِهِ اَلْمَرَّةِ... وَقْفَ الأخيرُ بَعِيداً عن صخبِ المُسَافِرِينَ اَلْبَاقِين، وَضَجِيجِهِم...

حَاوَلَ أَنْ ينأى بِنَفْسِهِ عَنْ كُلِّ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ خَلْوَتَهُ مَعَ رَبِّ اَلْعَالَمَيْن... ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي عُرِفَ دَوْماً أن مَا مِنْ طَرِيقٍ لِلسَّعَادَةِ إِلَّا، وَسَيَبْدَأُ مِنْ بِنَاءِ عَلَاقَةٍ صَحِيحَةٍ مَعَ اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – ... تَنَفُّسَ هُنَاكَ بِعُمْقٍ، وَهُوَ يَسْتَمِدُّ اَلطَّاقَةَ، وَالْقُوَّةَ مِنْ بَهَاءْ غَسَقَ اَلشَّمْسِ اَلْغَائِبَةِ عَصْرَ ذَلِكَ اَلْيَوْم، وَقَدْ اِسْتَذْكَرَ أَنَّهُ سَيَرْكَبُ اَلسَّفِينَةَ اَلْمُتَّجِهَةَ نَحْوَ أَفْرِيقْيَا قَرِيباً... أَيْ بَعْدَ أَنْ يُتِمَّ مَا جَاءَ اَلْآنِ مِنْ أَجْلِه...

– مَرَّ كُلُّ مَا حَدَثَ كَالْحُلْم!!... رُبَّمَا بَعْدَ أَعْوَامٍ لَنْ أُصَدِّقَ أَنَّنِي مَرَّرَتْ بِتِلْكَ اَلتَّجْرِبَة... قَالَ أَيُّوبَا لِصَدِيقِهِ بلويت عِنْدَمَا وَقَفَ إِلَى جَانِبِهِ مُرَاقِباً هُوَ اَلْآخَرُ مَشْهَدَ اَلشَّمْسِ اَلَّتِي تَسْقُطُ بِسُرْعَةٍ فِي مِيَاهِ اَلْمُحِيط...

– وَهَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ اَلْمَاضِيَ أَكْثَرَ مِنْ حُلْم؟؟... حَاوِل أَنْ تَمُدَّ يَدُكَ إِلَيْهِ إِذَاً؟؟... حَاوِل أَنَّ تَغَيّرَ حَدَثَاً وَاحِداً مِنْ أَحْدَاثِه!!... قَالَ

بلويت مُعَلِّقاً..

– وَالْمُسْتَقْبَلُ وَهُمٌ أَيْضاً، وَكَأَنَّنَا لَا نَمْلِكُ سِوَى يَوْمِنَا اَلَّذِي نَعِيشُهُ!!... إِنَّهَا فَلْسَفَةٌ وُجُودِيَّةٌ بَسِيطَةٌ مُعَقَّدَة!!... وَلِذَلِكَ اِلْتَقَيْنَا أَنَا، وَأَنْت...

إِنَّهَا لَيْسَتِ اَلصُّدَفُ اَلَّتِي جَمَعَتْنَا، أَوَ اِلِّقَاءُ اَلْعَبَثِيُّ اَللّامَدْرُوس... كُلُّ مَنْ يَعْتَقِدُ بِذَلِكَ سَاذِجٌ بِرَأْيِي... فَالرَّبُّ لَمْ يَخْلُقِ اَلْأَشْيَاءَ عَبَثاً... لَقَدْ اِلْتَقَيْنَا مَعاً لِأَنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَمْشِيَ دَرْباً مَا سَوِيّةً... أَلَيْسَ كَذَلِك؟؟ قَالَ بلُويتْ... وَهُوَ يَرْشُفُ مِنْ زُجَاجَةِ اَلْخَمْرِ اَلَّتِي يَحْمِلُهَا بِيَدِهِ مُذْ اِعتَلَى ظَهْرَ تِلْكَ اَلسَّفِينَة...

– جَمِيعهَا أَقْدَارٌ سِيقَتْ لَنَا بِمَشِيئَةِ اَللهَّ رَبَّ اَلْعَالَمَيْن.... وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا اَلرِّضَا، وَالتَّسْلِيمُ، وَفَهْمُ إِشَارَاتِ اَلْكَوْنِ اَلَّتِي لَا أَظُنُّهَا دَائِماً وَاضِحَة...

– إِشَارَاتٌ مُبَطَّنَةٌ لَا يَنْتَبِهُ لَهَا إِلَّا اَلْعَارِفُون... قَالَ بلويت مُنْتَشِياً، وَقَدْ فَهِمَ اَلْمَعْنَى اَلْمُبَطِّنَ اَلَّذِي قَصَدَهُ أَيُوبَا قَبْلُ أَنْ يَسْتَمِرَّ بَيْنَهُمَا ذَاكَ اَلْحَدِيثَ عن اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – ...

حديثٌ بينَ رجلينِ مِنْ دِينَيْنِ مُخْتَلِفَيْن... وَمِنْ مَنْظُورَيْنِ مُتَغَايِرَيْن... لِيَكُونَ اِجْتِمَاعُهُمَا ذَاكَ شَامِلٌ لِلْحَضَارَةِ اَلْإِنْسَانِيَّةِ بِأَدْيَانِهَا.... وَمُعْتَقَدَاتِهَا... وَبُلْدَانِهَا... وَثَقَافَاتِهَا... وَكَذَلِكَ بِأَشْكَالِهَا، وَمَلَامِحِهَا، وَأَلْوَانِهَا...

- 5 -

فِي مَدِينَةِ لَنْدَن اَلَّتِي تُعْرِفُ بِأَسْمَاءَ عِدَّة كـ لُونْدَرس... لِندرةِ... وِلِينْدِرَا... تِلْكَ اَلْمَدِينَةِ اَلْوَاقِعَةِ عَلَى ضِفَافِ نَهْرِ التّايمز جَنُوبَ بِرِيطَانْيَا اَلَّتِي كَانَ أَيُوبَا يَفْتَحَ صَفْحَةً جَدِيدَةً، مِنْ كِتَابِ اَلْأَحْلَامِ هُنَاك...

فَالْحَيَاة اَلَّتِي فَتَحَتْ لَهُ صَفَحَاتِهَا اَلسَّوْدَاءِ أَوَّلاً راحتْ اَلْآنَ تَقَدُّمَ لَهُ اَلْمُفَاجَآتِ صَفْحَةً وَرَاءَ صَفْحَة... كَيْفَ لَا؟... وَقَدْ ضَرَبَ لَهُ اَلْقَدَرُ مَوْعِداً مَعَ مُؤَسِّسِ اَلْمُتْحَفِ اَلْبِرِيطَانِيِّ... اَلطَّبِيبِ هَانز سِلُون... وَاَلَّذِي كَانَ بِدَوْرِهِ مُتَحَمِّساً لِلِقَاءِ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي يَحْمِلُ تَجْرِبَةً فَرِيدَةً بَيْنَ عَالَمِيِّ اَلْحُرِّيَّةِ، وَالْعُبُودِيَّة... حَرِيصاً عَلَى إِضَافَةِ كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُثرِيَ ذَاكَرَةَ اَلْمُتْحَفِ اَلْبِرِيطَانِيّ، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا مَرْجِعاً هَامّاً بَعْدَ مُضِيِّ اَلزَّمَن...

وَلِهَذَا فَقَدْ رَحَّبَ أَيَّمَا تَرْحِيبٍ بِأَيُوبَا، وَصَدِيقِهِ بِلُويت اَلَّذِي أَخْبَرَهُ مُسْبَقاً عَنْ تِلْكَ اَلدُّرَةِ الثّمِينَةِ اَلَّتِي جَاءَ بِهَا إِلَيْه.. وَقَدْ عَنى بِذَلِكَ اَلْأَمِيرَ اَلْعَائِدَ مِنْ اَلْعُبُودِيَّةِ أَيُّوب بنْ سُلَيْمَان جَالُو...

اِسْتَمَعَ هانز لِحَدِيثِ أَيُوبَا اَلَّذِي أَضْحَى مُتْقِناً لِلُّغَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ

بِوَقْتٍ قَصِيرٍ جِدّاً، وَبِشَكْلٍ لَافِتٍ تَمَاماً... وَلَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ اَلرَّجُل اَلْمُحَنَّك أَنْ يَكْتُمَ كَمَّ إِعْجَابِهِ بِعِلْمِ أَيوبا اَلْغَزِير... وَبِفَصَاحَتِهِ، وَقُدْرَتِهِ عَلَى اَلتَّعبِيرِ بِذَكَاءٍ بِاسْتِخْدَامِ لُغَتِهِ اَلْعَرَبِيَّةِ، وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ عَلَى حَدٍّ سَوَاء...

وَهُنَاكَ قَدْ طَالَتِ اَلسَّاعَاتُ... وَقَدْ مَرَّ اَلْوَقْتُ بِكُلِّ خفّةٍ، وَسلاسةٍ عَلَى اَلْأَشْخَاصِ اَلَّذِينَ اِلْتَقوا مَعَ بَعْضِهِمْ اَلْبَعْضِ لِيُنَاقِشُوا مَسَائِلَ وُجُودِيَّةً هَامَّةً كَالْحَيَاة... وَاَللهَّ... وَالدِّينِ... وَالتَّجْرِبَةِ اَلْإِنْسَانِيَّة...

وَلْيُعْطِي كُلٌّ مِنْهُم رَأْيَهُ بِتَجَرُّدٍ، وَمِصْدَاقِيَّةٍ، وَعُمق... مِمَّا دَفَعَ هَانْز لَاحِقاً لِأَنْ يَطْلُبَ مِنْ أَيُوبَا أَنْ يُزَوِّدَ اَلْمَتْحَفَ اَلْبِرِيطَانِيَّ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيع مِنْ مَخْطُوطَاتٍ، وَمعلومَاتٍ مُسْتَقَاةٍ مِنْ اَلثَّقَافَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ، وَالْإِسْلَامِيَّةِ... وَفِي اِجْتِمَاعِهِمْ اَلْقَدَرِيِّ ذَاكَ لَمْ يَسْتَطِعْ هَانْز كَتْمَ مَدَى حُزْنِهِ، وَآلَمِهِ لِتِلْكَ اَلتَّجْرِبَةِ اَلْمُرِيرَةِ اَلَّتِي مَرَّ بِهَا أَيُوبَا... وَلِتِلْك اَلْجِراح اَلَّتِي لَا زَالَتْ تَرْتَسِمُ عَلَى أَنْحَاءِ جَسَدِهِ رَاسِمَةً مَلَامِحَ مُؤْلِمَةً لِتِلْكَ اَلْفَتْرَةِ اَلَّتِي عَايَشَهَا أَيُوبَا، وَذَاقَ مَرَارَةَ أَدوَائِهَا... فَشَعَرَ هَانز سلُون... اَلطَّبِيبُ اَلْمُثَقَّفُ... وَالْإِنْسَانُ اَلْمُحِبُّ.... بِحُزْنٍ عَلَى أَيوبا... وَبِحُزْنٍ عَلَى جَمِيعِ اَلْعَبِيدِ اَلَّذِينَ قَضَوا، أَو لا زَالُوا يَرْزَحُونَ تَحْتَ نيرِ العُبُودِيَّةِ اَلْمُضنِي... وَمَا يَحملُهُ فِي حَدِيدِهِ مِن...أَلَمٍ... وَنَزفٍ... وَجراح...

- 6 -

عَلَى اَلرَّغمِ مِنْ تَوَاجُدِ أيُوبَا لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ جِدّاً بِمِقْيَاسِ اَلزَّمَنِ فِي مَدِينَةِ لَنْدَن... إِلَا أَنَّهُ اِسْتَطَاعَ أَن يَترُكَ أَثراً رَهِيباً فِي أَذْهَانِ اَلْقَاطِنِينَ هُنَاك... وَبَعْد أَنْ تَكَرَّرَت اللّقَاءَاتُ بَيْنَهُ، وَبَيْنَ اَلطَّبِيبِ سِلونَ بِصُحبَةِ صَدِيقِهِ بلويت أَحْيَاناً، وَدُونَ ذَاكَ أَحْيَاناً أُخْرَى... بَدَأَ أيُوبَا بِتَرْكِ بَصَمَاتٍ وَاضِحَةٍ فِي أَرْجَاءِ اَلْمُتْحَفِ اَلْبِرِيطَانِيِّ... كَيْفَ لَا!! وَقَدْ سَاعَدَ صَدِيقُهُ اَلْجَدِيدُ هَانز عَلَى تَنْظِيمِ مَجْمُوعَةٍ مِنْ اَلْمَخْطُوطَاتِ اَلْعَرَبِيَّةِ فِي اَلْمُتْحَف... كَمَا، وَقَدْ قَدَّمَ أيُوبَا صُوَرَةً لِمُصْحَفٍ تَنْسُبُ كِتَابَتَهُ لِخَطِّ يَدِي أَيّوب بن سُلَيْمَان بن جَالُو أَثْنَاءَ تَوَاجُدِهِ فِي عَالَمِ اَلرِّقِّ، وَالْعُبُودِيَّة... فَضْلاً عَنْ كِتَابَةِ ثَلَاثِ نُسَخٍ كَامِلَةٍ مِنْ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيمِ خَطّهَا أيُوبَا بِالِاعْتِمَادِ عَلَى ذَاكِرَتِهِ اَلْفَذَّةِ اَلْقَوِيَّةِ، وَاَلَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ كُلُّ عَوَامِلِ اَلزَّمَنِ، وَمَصَاعِبِ اَلْحَيَاةِ أَن تُخْلِخُلَ مَا بِدَاخِلِهَا، أَوْ أَنَّ تَمسَحَ أَيّاً مِنْ مُحتَوَيَاتِهَا....

مَعَ مُرُورِ اَلْوَقتِ تَحَوَّلَ إِعْجَابُ هَانز فِي أيُوبَا إِلَى اِنْبِهَارٍ حَقِيقِيٍّ بِذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي اِسْتَطَاعَ تَعَلُّمَ اَللُّغَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ بَأشهرَ قَلِيلَةٍ جِدّاً حَتَّى غَدا قَادِراً عَلَى تَرْجَمَةِ نُصُوصٍ مِنْ اَللُّغَةِ اَلْعَرَبِيَّةِ إِلَى

اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ....

كانَ هَانز يُفتتنُ يَوماً بَعدَ يومٍ بخُلقِ أيوبا القَويم، وبالتزامهِ بتعاليمِ دِينهِ، وبعلاقتِهِ القويّةِ المتينةِ بِرَبِّهِ، وَقَدْ لَمَسَ بِهِ أُسْطُورَةَ اَلرَّجُلِ اَلْمُسْلِمِ اَلَّذِي لَمْ تَسْتَطِعْ مُغْرِيَاتُ اَلْحَيَاةِ، وَلَا صِعَابُهَا أَنَّ تَحَرُّك فِي جَسَدِهِ شَعْرَةً وَاحِدَة...

وَمَعَ اِلْتِزَامِ أيُوبَا بِتَقْدِيمِ اَلْمُسَاعَدَةِ لِصَدِيقِهِ اَلْجَدِيدِ ذِي اَلْمَكَانَةِ اَلْمَرْمُوقَةِ اَلْعَالِيَةِ فِي اَلْأَوْسَاطِ اَلْبِرِيطَانِيَّةِ آنَذَاكَ باتَ يَقضِي جُلَّ وَقْتِهِ فِي أروقةِ اَلْمَتْحَفِ اَلْبِرِيطَانِيِّ لِيَسْتَثْمِرَ ذَلِكَ اَلْوَقتَ اَلْقَصِيرَ اَلْمُتَبَقِّي لَهُ هَا هُنَا فِي تَقْدِيمِ أَكْبَرِ فَائِدَةٍ مُمْكِنَةٍ، وَمَرَجُوّهِ لِتَوَاجُدِهِ فِي ذَاكَ اَلْمَكَانِ...

وَبَيْنَ اَلْأَحَادِيثِ اَلدِّينِيَّةِ، وَتَبَادُلِ اَلْمَعْلُومَاتِ اَلثَّقَافِيَّةِ عَنْ أَفرِيقيَا، وَأُورُوبَّا بِعَادَاتِهِم، وَثَقَافَاتِهِم، وِطبَائِعِ شُعُوبِهِم، وَحَيَوَاتِهِم... كَانَتْ اَلْأَحَادِيثُ تَطُولُ، وَدَوَائِرُ اَلْمَعَارِفِ تَكْبُرُ، وَتَتَّسِعُ شَيْئاً، فَشَيئاً حَتَّى غَدا أيُوبَا مَرْكَزَ كُلِّ اجْتِمَاع... وَنَقْطَةَ اَلْوَسَطِ اَلَّتِي تَعقِلُ دفّتَي اَلْمِيزَان، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ مَكَانَتَهُ بِدُونِ أَنْ تَكُونَ لَهَا تِلْكَ اَلْمَكَانَة...

كَانَ تُومَاس بلويت اَلْقَسُّ اَلْمُحَامِي اَلَّذِي اِكتَشَفَ تِلْكَ اَلزُّمُرُدَةَ اَلْفَرِيدَةَ سَعِيداً أَيَّمَا سَعَادَةٍ بِاكْتِشَافِهِ ذَاك... كَانَ يَنْظُرُ نَحو أيوبَا بِالْكَثِيرِ مِن اَلْفَخر، وَالْكَثِيرِ مِنْ اَلْمَحَبَّةِ اَلَّتِي كَانَ يُبَادِلُهَا لَهُ أيوبا على حَدٍّ سَوَاء، وَقَدْ اِسْتَطَاعَ أَنْ يُسَاعِدَهُ فِي اَلتَّخَلُّصِ اَلكُلِّيِّ مِنْ ذَاكَ اَلْعَالَمِ

اَلْمَأْسَاوِيِّ اَلَّذِي اُبْتُلِيَ بِهِ لِمَا يُقَارِبُ 18 شَهْراً....

أَمَّا اَلْغَرِيبُ فِي اَلْأَمْرِ فَقَدْ كَانَ أَنَّ أَيُوبَا لَمْ يَحمِل أَيَّةَ كَرَاهِيَةٍ، أَوْ ضَغِينَةٍ لِأَصحَابِ اَلْبَشَرَةِ اَلْبَيْضَاء... لَمْ يُصْدِر حُكْماً مُطْلَقاً عَلَيْهِم... وَلَمْ يَتَعَامَل مَعَهُمْ بِمَا لَمَسَهُ مِنْ مُوَاطِنِيهِم، وَمُشَابِهِيهم مِن أَصحَابِ ذَلِكَ اَللَّوْن...

لَقَدْ كَانَ حِيَادِيّاً مُتَجَرِّداً مِنْ كُلِّ اَلْأَحْكَام اَلْمُطْلَقَةِ، وَاَلَّتِي قَد تَحمِلُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْحِقدِ اَلْمُبَطِّنِ لَوْ كَانَ أَيُوبَا قَدْ سَمَحَ لَهَا بِالدُّخُولِ إِلَى أَعْمَاقِ نَفْسِهِ، وَصَدْرِه... لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلْأَرْبَعِينِيِّ مِثَالاً لِلْحُبِّ، وَالتَّسَامُحِ، وَالتَّعَقُّلِ، وَالْوَعْيِ اَلْمَحْض... وَكَانَ قُدْوَةً تُقْتَدَى فِي اَلصَّبْرِ، وَالتَّفَهُّمِ، وَالْإِرَادَةِ اَلصُّلْبَةِ لِلْوُصُولِ إِلَى اَلْأَهْدَافِ اَلسَّامِيَّة، وَالطُّمُوحَاتِ اَلَّتِي هِيَ بِمَثَابَةِ اَلِاسْتِحْقَاقِ لِذَلِكَ اَلشَّخْصِ اَلَّذِي كَانَ أَمِيراً حرّاً، وَتَحَوَّلَ فِي لَيْلَةٍ مظلمةٍ إِلَى عَبْدٍ رَقِيقٍ فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ لَا يَعْكِسُ اَلْجَدَّةَ، وَلَا اَلْحَدَاثَة...

وَبَيْنَ لَوْنٍ أَسْوَدٍ، وَأَلْوَانٍ بَيْضَاء دَارتِ اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْأَحَادِيث... وَكُشِفتْ اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْحَقَائِق... وَدُوِّنَتْ اَلْعَدِيدُ مِنْ اَلْمَخْطُوطَاتِ اَلشَّاهِدَةِ عَلَى مَا قِيلَ بَيْنَ جُدْرَانِ اَلْمُتْحَفِ اَلْوَطَنِيِّ، وَخَارِجِهِ لِيَكْتُبَ اَلْقَدَرُ قِصَّةً جَدِيدَةً حَدِيثةً أيضاً... قِصَّةٌ مُستَحَقَّةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِحَبْلِ اَللهِّ، وَاعْتَصَمَ بِهِ رَغمَ ذَاكَ اَلطُّوفَانِ اَلَّذِي عَصَفَ بِسَفِينَتِهِ فِي فَبْرَايِرَ

اَلْمَاكِرِ... فَبْرَايِر اَلَّذِي أَشاحَ بِهِ بَعِيداً عَلَى سَفِينَةِ أَزْبِيَال اَلَّذِي وُسِمَ جِلْدُ جَسَدِهِ بِحرفيها يَوْماً... وَلَكِنَّ اَلْمَشِيئَةَ اَلْإِلَهِيَّةَ اَلْعَادِلَةَ كَانَتْ تُرِيدُ لِذَلِكَ اَلشَّخْصِ اَلْمُسْتَنِيرِ أَنْ يَخْتَبِرَ مَذَاقاً مُرّاً لَمْ يَخْتَبِرْهُ بَعدُ مِنْ مَذَاقَاتِ اَلْحَيَاةِ لِيَسْتَحِقَّ ذَاكَ اَلشَّرَفِ اَلَّذِي سَيُكَلَّلُ بِهِ بَعد فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ... وَهَا هُوَ اَلْكَوْنُ يَفِي بِوَعْدِه... وَها هُوَ هَانْز سلون يُمْسِكَ بِيَدَي أَيوبا لِيُقَدِّمَهُ كَعُضْوٍ فِي أَرْقَى جَمْعِيَّةٍ أَكَادِيمِيَّةٍ بريطانيّةٍ فِي وَقْتِهَا... جَمْعِيَّةِ Spalding gentlemen›s Society

اَلْعَظِيمَة آنَذَاكَ بِلَا مُنَازِع...

- 7 -

لَا جَهْلَ أَكْبَرَ مِن اَلْمَسِيرِ مَعَ اَلْقُطعَانِ الغَافِلَةِ اَلنَّائِمَة... وَلَا حُرِّيَّةَ أَكْبَرَ مِنْ مَعْرِفَةِ الذّات... قَالَ أيوبَا تِلكَ اَلْجُملَةِ مُحْدّثاً نَفسهُ بَينَمَا كَانَ يُرَاقِبُ غُرُوبَ اَلشَّمسِ اَلَّذِي لَطَالَمَا أَحَبَّ اَلنَّظَرَ إِلَيْهِ إِن كَانَ فِي بُونْدُو اَلْأَفْرِيقِيَّة... أَوْ فِي مِيرِيَالاند الأَمرِيكِيَّة... أَو فِي لَنْدَن اَلْبِرِيطَانِيَّة... فَغُرُوبُ اَلشَّمْسِ وَاحِدٌ بِالنِّسْبَةِ لِتِلْكَ اَلْمُدُنِ جَمِيعِهَا اَلَّتِي تَقْبَعُ عَلَى ذَاتِ اَلْكُرَةِ اَلْأَرضِيَّةِ، وَإِن اِخْتَلَفَ اَلتَّوْقِيتُ فَقَط فِيمَا بَينَهَا...

وَاليَومَ بِالذَّات شَعَرَ أيوبَا بِشَيْءٍ مِنْ اَلْحَمَاسِ اَلْمَجْبُولِ بِالْفَرَحِ، وَالْقَلَقِ اَلَّذِي يَعصِرُ رَأسَ مَعِدَته، وصدرهِ فِي آنٍ مَعاً... وَكَيفَ لِذَلِكَ اَلرَّجُلِ أَلَّا يَشعُرَ بِتِلكَ اَلمَشَاعِرِ اَلْمُتَنَاقِضة، وَقَد أَخبرَهُ اَلطَّبِيبُ أَنَّهُ سَيُقَدِّمُهُ فِي هَذِهِ اَللَّيلَة لِرِجَالَات، وَقَامَاتِ الجمعِيَّةِ اَلأَكَادِيمِيَّةِ اَلبِرِيطَانِيَّةِ... اَلَّتِي تُعَدُّ مِن أَهَمِّ تَجَمُّعَاتِ حِقبَةِ اَلتَّنوِيرِ آنَذَاك...

كَانَ أَيُّوبَا، وَعَلَى اَلرَّغمِ مِن مَعرِفَتِهِ اَلغزِيرَةِ، وَمَعلُومَاتِهِ اَلدِّينِيَّةِ، وَاللُّغَوِيَّةِ، وَالفِقهِيَّةِ اَلوَاسِعَةِ اَلشَّامِلَةِ إِضَافَةً إِلَى تَعَلُّمِهِ لُغَةَ اَلْبِرِيطَانِيّين الإِنجِلِيزِيَّةَ مُؤَخَّراً يشعُرُ بِشَيءٍ مِن اَلارتِبَاكِ عِندمَا عَلِمَ أَنَّ قَائِمَةَ

مَحَاوِريه تَزخرُ بِقَامَاتٍ ذَاتِ أَهَمِّيَّةٍ، وَمَكَانَةٍ عَالِيَةٍ جِدّاً فِي اَلْأَوسَاطِ اَلأُورُوبِّيَّة...

هُوَ اَلَّذِي أَتَى حَامِلاً دِينُهُ، وَعِلمهُ، وَجِرَاحُهُ اَلشَّاهِدَةَ عَلَى فَضَاعةِ اَلْقَسوَة اَلَّتِي يَتَعَامَلُ بِهَا اَلْإِنْسَانُ مَعَ اَلْإِنْسَانِ فِي عَالَمٍ تَحكُمُهُ السِّيَادَةُ، وَالْعُبُودِيَّة...

وَهُوَ اَلَّذِي بَاتَ يَعِي تَمَاماً مَا يَقبَعُ بَينَ اَلسَّادِيَّةِ، وَالْمَازُوخِيَّةِ مِن فَوَارِقَ، وَسُلُوكِيَّات... لذلكَ كانَ يَتلهّفُ شَوقاً لِتَبَادُلِ اَلْأَحَادِيثِ، وَالْفِكرِ مَعَ أَشْخَاصٍ جُدُدٍ لَهُم مَا لَهُم مِنْ اَلْقِيمَةِ، وَالْمَكَانَة...

رَاحَ بَطَلُنَا يَتَمَشَّى فِي شَوَارِعَ بِرِيطَانيَا اَلَّتِي عَلِمَ أَنَّهُ لَن يَقطُنَ بِهَا فَتْرَةً طَوِيلَةً... فَتْرَةً لَنْ تَتَجَاوَزَ اَلْبِضْعَةَ أَشهُرٍ اَلَّتِي عَدَّهَا كَافِيةً لِتَقْدِيم مَا لَدَيهِ مِنْ مَخطُوطَاتٍ، وَنُسخٍ عَرَبِيَّةٍ، وَفِكرٍ تَوعَوِيَّةٍ، وَدِينِيَّةٍ، وَاجتِمَاعِيَّة...

وَهُنَا رَاحَ يُحَاوِلُ تَدوِينَ بَعْضِ اَلْمَلَاحِظَاتِ عَن أُسْلُوبِ اَلْبِنَاءِ، وَتَنْسِيقِ اَلْمُدُنِ، وَإِنشَاءِ الجُسُورِ فِي بِرِيطَانيا... ورَاحَ يُسَجِّلُ طَبِيعَةَ اَلْعَمَلِ هُنَاك... وَطَبَائِعَ اَلنَّاسِ، وَأَحوَالِ مَعِيشَتِهِم...

تَحَدَّثَ فِي مُذَكِّرَاتِهِ عَن كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَصِفَ مَدِينَةَ لَندَن اَلَّتِي لَم يَتَخَيَّل يَوْماً أَن تَسِيرَ بِهِ السّفُن نَحوَ شَوَارِعِهَا الجَمِيلَةِ الوَاسِعَة....

أمَّا اَلصَّدِيقُ اَلْمُحَامِي تُومَاس بلويت، فَقَدْ رَاحَ يُمَارِسُ مِهنةَ اَلْمُحَامَاةِ فِي بِلادِهِ مِن جَدِيدٍ فِي اَلفَترَةِ اَلصَّبَاحِيَّةِ بَيْنَمَا يَتَرَدَّدُ كُلَّ مَسَاءٍ عَلَى صَدِيقِهِ أَيُوبَا لِيَحضرَ مُنَاظَرَتَهُ، وَمُحَاوَراتِه... وَلِيَكُونَ جزءاً لَا يَتَجَزَّأُ مِن تِلْكَ اَلْأَحَادِيثِ اَلشَّيِّقَةِ اَلزّاخِرةِ بِالْمَعْلُومَاتِ اَلْهَامَّة...

لَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ اَلْعَلَاقَةُ اَلَّتِي جمعَتْ اَلْاِثْنَيْنِ عَلَاقَةً مَتِينَةً إِلَى أَبعَدَ اَلْحُدُودِ، وَهِيَ اَلَّتِي بُنِيَتْ عَلَى إِنْقَاذِ حَيَاةِ أَيُوبَا اَلْمُهَدَّدَةِ بِالْعُبُودِيَّةِ طوَالَ اَلْحَيَاة...

وَمَعَ هُبُوطِ مَسَاءِ ذَلِكَ اَلْيَوْم... وَصَلَ بلُويت عَلَى مَوْعِدِهِ كَمَا فِي كُلِّ لَيلَةٍ لِيُرَافِقَ أَيُوبَا، وَالطَّبِيبِ هَانز سلُون إِلَى حُضُورِ أَوَّلِ لِقَاءٍ لأَيُوبَا بِأَعْضَاءِ الجَمعِيَّةِ اَلْأَكَادِيمِيَّةِ اَلْبِرِيطَانِيَّةِ...

فِي ذَاكَ اَلْمَحْفِلِ اَلْمَهِيبِ اِلْتَقَى أَيّوبَ بن سُلَيمَان جَالُو بِأَهَمِّ شَخْصِيَّاتِ تِلكَ اَلْمَرحَلَةِ، وَعَلَى رَأْسِهِم إِسحاق نِيُوتُن...

كَانَ مَسَاءً مُخْتَلِفاً بِكُلِّ اَلْمَقَايِيسِ... فَهُنَاك... وَعَلَى طَاوِلَةِ اَلْأَحَادِيثِ اَلَّتِي لَا تَنْتَهِي، وَالْمُنَاظَرَاتِ اَلَّتِي لَا تُعْقَدُ إِلَّا عَلَى نِيَّةِ اَلْعَلَمِ، وَالْمَعْرِفَةِ، وَالتِّبْيَان... جَلَسَ اَلْأَمِيرُ أَيُّوبْ بن سُلَيْمَان جَالُو، وَقَدْ مَنَحَهُ اَللهُ اَلْمَكَانَةَ اَلَّتِي يَسْتَحِقُّهَا بَعْدَ ذَلِكَ اَلصَّبرِ، وَالْيَقِين... جَلَسَ قُبَالَةَ من يُقَدِّرُ لَهُ عِلْمِهُ، وَمَعْرِفَتِهُ، وَفَصَاحَتِهُ، وَمَا يَحملهُ فِي

طَيَّاتِ صَدرِهِ مِن مَعْلُومَاتٍ، وَحَقَائِقَ هَامَّةٍ تُثْرِي تِلْكَ اَلتَّجَمُّعَاتِ، وَتَقَدَّمَ لَهَا نَظْرَةً جَدِيدَةً كُلِّيّاً عَنْ اَلْعَالَمِ اَلْأَسْوَدِ، وَالْقَارَّةِ اَلسَّوْدَاء... عَنْ حَيَاتِهِم... وَعَادَاتِهِم... وَثَقَافَاتِهِم... وَطُقُوسِ عِبَادَاتِهِم... وَكَيْفَ تَمَّ اِضْطِهَادُهُمْ لِمِئَاتِ اَلسِّنِينَ لِيُبَاعُوا عَبِيداً رَقِيقاً...

وَلَمْ يَنسَ أَيُّوبْ أَنْ يَشْرَحَ لِمُنَاظِرَيْهِ كَيْفَ أَنَّ ثَقَافَةَ اَلشَّعْبِ اَلْأَسْوَدِ اَلْفَقِيرَةِ كَانَتْ سَبَباً فِي تَفضِيلِهِ اَلمَالَ، وَالسَّعيَ مِن أَجلِهِ حَتَّى، وَلَو كَانَ ذَاكَ عَلَى حِسَابِ أَبْنَاءِ جِلْدَتِه... وَقَدْ ذَكَرَ لَهُمْ كَيْفَ أَنَّ اَلْأَيَادِيَ اَلْبَيْضَاءَ كَانَت سَبَباً رَئِيسِيّاً فِي إِشْعَالِ اَلْحُرُوبِ، وَإِذْكَاءِ نِيرَانِهَا لِتَسْتَمِرَّ اَلصِّرَاعَاتُ بَيْنَ أَبْنَاءِ اَللَّوْنِ اَلْوَاحِد... وَلِيَكُونَ اَلرَّابِحُ اَلْوَحِيد هُوَ تِجَارَةُ اَلْعَبِيدِ اَلَّتِي تَمْتَهِنُها أُورُوبَّا... وَعَلَى رَأْسِهَا أَمِيرِكَا...

وَلِأَنَّ اَلْحَيَاةَ بَدَأَتْ تَكْشِفُ وَجْهَهَا اَلْأَبْيَضَ لِأَيُّوبَا شَيْئاً، فَشَيْئاً، فَإِنَّ لِقَاءَاتهُ تِلْكَ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى أَصْحَابِ المَكَانِة اَلْعِلْمِيَّةِ، وَالثَّقَافِيَّةِ اَلْمَرْمُوقَةِ، وَالْعَالِيَةِ، فَحَسب... وَإِنَّمَا دَخَلَ أَيُّوبَا بَوَّابَةً جَدِيدَةً مُرَصَّعَةً بِالذَّهَبِ، وَالْجَوَاهِرِ هَذِهِ اَلْمَرَّة... حَيْثُ أَنَّهُ، وَبَعْد أَنْ غَدَا مِنْ اَلْأَسْمَاءِ اَلْمَعْرُوفَةِ، وَالْمَشْهُورَةِ فِي اَلْمُجْتَمَعِ اَلْإِنْجِلِيزِيِّ بِاعْتِبَارِهِ نَمُوذَجاً إِنْسَانِيّاً تَعَرَّضَ لِلْقَهْرِ، وَالتَّعْذِيبِ، وَالتَّنْكِيلِ، وَالِاسْتِعبَاد... اِسْتَطَاعَ أَنْ يَصِلَ إِلَى لِقَاءِ كِبَارِ مَسؤُولِي اَلْمُجْتَمَعِ اَلْإِنْجِلِيزِيِّ فِي أَعْلَى مُسْتَوَيَاتِه... وَلْيَصِلَّ أَخِيراً لِلِقَاءِ اَلْأُسْرَةِ اَلْحَاكِمَةِ اَلْمُتَمثّلَةِ بِالْمَلِكِ، وَالْمَلِكَة... أَي

أَنَّهُ وَصَلَ لِلعائِلَةِ اَلْمَلَكِيَّةِ اَلْبِريطَانِيَّةِ بِكُلِّ جَدَارَة...

كَانَ لِحَقبَةِ اَلتَّنْوِيرِ آنَذَاكَ صَالُونَاتٍ يَتِمُّ عَقْدُهَا بِإِشْرَافِ اَلْأُسْرَةِ اَلْحَاكِمَةِ فِي بِرِيطَانْيَا... وَهُنَاكَ اِسْتَطَاعَ أَيُوبَا أَنْ يَروِيَ قِصَّةَ اِقْتِيَادِهِ بَعْدَ أَسْرِهِ إِلَى أَمِيرِكَا عَن طَرِيقِ اَلْخَطَأ... وَكَيفَ أَنَّهُ تَعَرَّضَ لِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلتَّعْذِيبِ اَلَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا اَلْعَبِيدُ فِي اَلْقارَّةِ اَلْبَيْضَاء...

وَقَدْ لَاقَتْ قِصَّتُهُ تِلْكَ اَلْأَذَانَ اَلصَّاغِيَةَ، وَالْقُلُوبَ اَلْمُتَعَاطِفَةَ، وَالْعُيُونَ اَلدَّامِعَة لِمَا تَعَرَّضَ لَهُ بِتَجرِبَتِهِ اَلشَّخصِيَّةِ اَلَّتِي اِرْتَأَوْا أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهَا كَشَخْصٍ عَارِفٍ، عَالِمٍ، مُستَنِير...

وَكَأَمِيرٍ يَنْحَدِر مِن سُلَالَةِ اَلْمُلُوكِ فِي أَفْرِيقيَا... وَرُوَيداً رُوَيداً بَدَأَتْ عَلَاقَتُهُ بِالْأُسْرَةِ اَلْحَاكِمَةِ تَتَحَوَّلُ إِلَى عَلَاقَةِ صداقَةٍ متِينَة حَتَّى أَنَّ اَلْمَلِكَة كَارُولِينِي زَوْجَةَ اَلْمَلِكِ جُورج اَلثَّانِي اِسْتَقْبَلَتْ أَيُوبَا... وَأَهْدَتْهُ سَاعَةً ذَهَبِيَّةً غَايَةً فِي اَلْإِتْقَانِ، وَالْجَمَالِ، وَالرَّوْعَة...

وَلِلْعِلم، فَإِنَّ أَيُوبَا لَمْ يَكُنْ لِيَحْفُلَ بِتِلْكَ اَلْهَدِيَّةِ اَلذَّهَبِيَّةِ بِقَدرِ مَا كَانَ سَعِيداً بِذَلِكَ اَلْعَهْدِ اَلَّذِي تَسَلَّمَهُ مِنْ اَلشَّرِكَةِ اَلْمَلَكِيَّةِ لِلْعَمَلِيَّاتِ فِي أَفْرِيقيَا... وَاَلَّذِي كَانَ مُفَادهُ أَنَّهُ فِي حَالَةِ إِلْقَاءِ اَلْقَبضِ عَلَى أَيٍّ مِن اَلْعَبِيدِ اَلْمُسْلِمِين، فَإِنَّهُ سَيَتِمُّ إِطْلَاقُ سَرَاحهُ فَوْراً، وَيُعَادُ إِلَى بِلَادِهِ عَلَى عَجَل...

كَانَ ذَلِكَ اَلْعَهْدُ عُرْبُونَ مَحَبَّةٍ مِنْ بِرِيطَانْيَا اَلَّتِي عَرَفَتْ ذَاكَ اَلرَّجُلَ اَلْعَارِفَ اَلْمُسْتَنِيرَ حَقَّ اَلْمَعْرِفَة... وَكَانَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لَهُ وَثِيقَةً قِيمَةً يُقَدِّمُهَا لِكُلِّ أَبْنَاءِ شَعبِهِ اَلْمُستَضْعَفِينَ اَلْمَسَاكِينَ لِيُعِيدَ لَهُم حَقَّهم اَلْمُنْتَهِكَ عَلَى مَدَى قُرُونٍ اِنْصَرَمَتْ عَلَى جراحِ اَلسُّودِ، وَآلَامِهِم.

- 8 -

كَانَ بلويت سَعِيداً جِدّاً لِتِلْكَ اَلنَّتِيجَةِ اَلْمُذْهِلَةِ اَلَّتِي اِستَطَاعَ أَيوبا اَلْوُصُولَ إِلَيهَا، وَلَا سِيمَا أَنَّهُ كَانَ يَزْدَادُ إِعْجَاباً يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ بِذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي يُقَدِّمُ اَلْمَعْلُومَاتِ، وَلَا يَنْسَى أَنْ يَكتَسِبَ مَعلُومَاتٍ جَدِيدَةٍ يُسَجِّلُهَا عَلَى دَفْتَرِ مُلَاحَظَاتِهِ اَلَّذي يُرَافِقُهُ أَيْنَمَا ذَهَب...

وَمَعَ مُرُورِ اَلْوَقْتِ سَرِيعاً كَانَ اَلصَّدِيقُ اَلْوَفِيُّ يَشْعُرُ بِالْكَثِيرِ مِنْ اَلْحُزْنِ، وَالْأَلَمِ لِاقْتِرَابِ مَوعِدِ عَودَةِ أَيُوبَا إِلَى بِلَادِهِ أَفْرِيقيَا اَلَّتِي لَطَالَمَا اِنتَظَرَ أَنْ يَركَبَ السّفِينَةَ اَلْمُتَّجِهَةَ إِلَيهَا فِي مَشْهَدٍ ظَنٍّ لِشِدَّةِ اَلْأَلَمِ أَنَّهُ لَنْ يَرَاهُ، وَلَنْ يَخْتَبِرَهُ ثَانِيَةً...

وَعَلَى اَلْجَانِبِ اَلْآخَر، فَقَدْ شَعَرَ أَيُوبَا كَذَلِكَ بكمٍّ لَا بَأْسَ بِهِ مِن اَلِامْتِنَانِ، وَالْحُزْن... اَلِامْتِنَانُ لِذَلِكَ اَلشَّخصِ اَلَّذِي قَدَّمَ لَهُ اَلْحُرِّيَّةَ بِأَنَاملَ بَيْضَاءَ صَافِيَة... وَبابْتِسَامَةٍ صَادِقَةٍ مَحَبَّة... وَبِعَيْنَينِ زَرْقَاوين تحوِيَانِ اَلْكَثِيرَ مِن اَلْودِّ، وَالسَّلَام، وَالْأَمَان... وَبِالْحُزْنِ عَلَى فِرَاقِ شَخْصٍ مَثَلِه يَحْمِلُ تِلْكَ اَلصِّفَاتِ اَلَّتِي أَهَّلَتْهُ لِيَكُونَ صَدِيقَ أَيوبا اَلْوَفِيَّ مِنْ أَصْحَابِ اَلْبَشَرَةِ اَلْبَيْضَاء...

وَبَيْنَ أَيَّامٍ أَخِيرَةٍ تَمُرُّ بِالْمُنَاظَرَاتِ، وَاللِّقَاءَاتِ مَعَ صَالُونَاتِ حِقْبَةِ

اَلتَّنْوِيرِ، وَكِبَارِ قامَاتِهَا... وَبَيْنَ سَهَرَاتٍ مَعَ اَلْأَصْدِقَاءِ اَلْجُدُد، وَعَلَى رَأْسِهِم توماس بلويت بَدَأ أَيُوبَا يُهَيِّئ نَفْسَهُ لِلرَّحِيلِ اَلْأَخِيرِ نَحوَ بَلَدِهِ اَلَّذِي يَحمِلُ لَوْنَهَا... وَلُغَتَهَا... وَأَجمَلَ عَادَاتِهَا...

نَحْوَ وَالِدِهِ اَلَّذِي اِشتَاقَ لِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ، وَسَمَاعِ صَوْتِه... نَحوَ أَطفَالِهِ، وَزَوجَتِهِ، وَإِخوَتِهِ، وَأَصْدِقَاءِ طُفُولَته... فَقَد كَانَ يَعلَمُ كَم مِن اَلسَّعَادَةِ سَيَدْخُلُ عَلَى تِلْكَ اَلْقُلُوبِ اَلضَّعِيفَةِ اَلْوَاهِنَةِ اَلَّتِي كَانَ مِن اَلْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا يَئِسَتْ، وَفَقَدَتْ اَلْأَمَلَ برجُوعِهِ، وَعَوْدَته...

وها هُوَ هُنَا يَتَهَيَّأ لِلْأَمرِ اَلْأَخِيرِ قُبَيلَ أَيَّام مِنْ سَفَرِه... اَلْأَمرِ اَلَّذِي سَجَّلَ تَفَاصِيلَ وَجهِ، وَمَلْبَسِ، وَزِيِّ ذَلِكَ اَلْأَمِيرِ اَلْأَسوَد... لِيَكُونَ شَاهِدًا حَيّاً، وَصُورَةً بَاقِيَةً لِذَاكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي غَيَّرَ مَجْرَى اَلتَّارِيخ...

وَلِيَقُومَ اَلْفَنَّانُ «وِيلْيَام هُورِي» بِرَسْمِ لَوْحَةٍ زَيْتِيَّةٍ لِلْأَمِيرِ اَلْأفريقِي أَيُّوبْ بن سُلَيمَان جَالُو.... تِلْكَ اَلرّسمةُ اَلْبَاقِيَةُ إِلَى يَومِنَا هَذَا مِن ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي رَحَلَ، وَلَمْ يَرْحَل ذِكرُهُ، وَأَثَرُهُ، وَمَنَاقِبُهُ.

- 9 -

اَللَّوْحة:

- لَمْ يَترُكْ لِي اَلزَّمَنُ مِنْكَ إِلَّا هَذِهِ اَلصُّورَةُ، وَبَعض اَلذِّكْرَيَات...

قَالَ تُومَاسْ بَلْوِيت بَينَما راحَ يَتَأَمَّلُ اللَّوْحَةَ الزَّيْتِيَّةَ المُعَلَّقَةَ أَمَامَه... وَاَلَّتِي يُطِلُّ مِنْهَا وَجهُ صَدِيقِهِ اَلمُقَرَّبِ أَيُوبَا بن سُلَيمَانْ جَالُو اَلَّذِي وَافَقَ عَلَى فِكْرَةِ الرّسَامِ وِيلْيَام هُوري بِرَسمِ صُورَةٍ تَذْكارِيّةٍ لَهُ، وَلَكِنْ وَفْقَ شُرُوطٍ لَمْ يُسَاومْ عَلَيهَا... وَاَلَّتِي كَانَ مِن أَهَمِّهَا أَنْ يَتِمَّ رَسمُهُ بِالزِّيِّ اَلتَّقْلِيدِيِّ اَلْأَفْرِيقِيِّ... وَذَلِكَ اِسْتِكْمَالاً لِهُوِيَّتِهِ، وَجُذُورِهِ اَلْإِفْرِيقِيَّةِ، وَزِيِّ بِلَادِهِ اَلَّتِي يَفْخَرُ بِانْتِمَائِهِ لَهَا...

هُنَاك... أَي فِي سَاعَاتِ رَسمِهِ تِلكَ جَلَسَ أيوبَا بِوَجهٍ شَدِيدِ اَلْجَمَال... هَادِئِ اَلْمَلَامِح... وَبِعَيْنَيْنِ تشعّانِ ذَكَاءً، وَثقَةً، وَعِزّة بَيْنَمَا تَرَكَ لِلرّسَامِ وِيلْيَام أَنْ يَتَخَيَّلَ اَلزِّيَّ اَلَّذِي سَيَرْسُمُهُ عَلَى اَلْوَرَقِ بِنَاءً عَلَى وَصفِ أَيُوبَا لِذَلِكَ الزِّيِّ اَلَّذي وَصَفَهُ بِأَدَقِّ تَفَاصِيلِهِ، وَأَبْهَى مَزَايَاه...

فِي ذَلِكَ اَلْبُورْتِريه الفَرِيدِ مِنْ نَوْعِهِ بِشَكْلٍ لَا يُصَدِّقُ رَسم ويليام هوري أَيُوبا بشعرٍ كثٍّ عَلَى جَانِبَي اَلرَّأْس... وَبِعِمَامَةٍ بَيْضَاءَ مَلْفُوفَةٍ

عَلَى قِمَّةِ رَأْسِهِ بَينَمَا يَتَوَسَّطُهَا قُمَاشٌ أَحمَرٌ مَائِلٌ لِلْبُرتُقَالِيِّ، وَقَدْ تَدَلَّى عَلَى صَدْرِهِ مُصحَفٌ كَانَ قَدْ كَتَبَهُ بِخَطِّ يَدِهِ أَيَّامَ كَانَ يَقبعُ فِي سجنِ بنسَلْفَانيَا كَإِشَارَةٍ وَاضِحَةٍ إِلَى تمَسُّكِ أيُوبَا بِدِينِهِ... وَتَشَبُّثِهِ بِعَقِيدَتِهِ فِي أَحْلَكِ اَلظُّرُوف... وَهِيَ اَلَّتِي كَانَتْ سَبَباً فِي تَحرِيرِهِ مِن عَالَمِ اَلرِّقِّ فِيمَا بعد...

أَمَّا اَلْعَبَاءَةُ اَلَّتِي عَكسهَا وِيلْيَام مِن خَيَالِ أَيُوبَا، فَقَدْ كَانَتْ بَيْضَاءَ خَالِيَةً مِنْ اَلْأَزْرَارِ، أَو اَلْعُرى... تَعْكِسُ مَدَى بَسَاطَةِ اَلشَّعْبِ اَلْأَفْرِيقِيِّ، وَنَقَاءُ سَرِيرَتِهِ، وَقَدْ اِسْتَطَاعَ ذَاكَ اَلرَّسَّامُ أَنْ يَنقُلَ وَجْهَ أَيُّوب مِن عَالَمِ اَلْمَاضِي اَلَّذِي يَسْتَذْكِرُ سيرَ اَلرِّجَالَ دُونَ اسْتِذْكَارِ وُجُوهِهِم... إِلَى عَالَمِ اَلْحَاضِرِ اَلَّذِي لَا زِلنَا حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا قَادِرِينَ عَلَى رُؤْيَةِ ذَلِكَ اَلْبَطَلِ، وَتَأَمُّلُ مَلَامِحِه اَلَّتِي تَبْعَثُ عَلَى اَلطُّمَأْنِينَةِ، وَالرَّاحَةِ، وَالسَّكِينَةِ...

فَعَينا أيوبا اَلْمَرْسُومَتَانِ فِي اَللَّوْحَةِ تَعْكِسَانِ روحَ رَجُلٍ شَجَاعَةٍ بِقَدرِ مَا تَحملُ مِنْ اَلْحُبِّ... بقَدرِ مَا تَحَمَّلَتْ مِنْ اَلْأَلَم...

عَيْنَانِ عَرَفَتا اَللهَّ فِي كُلِّ جزءٍ مِن هَذَا اَلْكَونِ اَلْمُتَّسِعِ اَلَّذِي يُقَدِّمُ لَنَا جَيِّدَ الاخْتِبَارَاتِ، وَرَدِيئها كَي نَصِلَ بِتَجْرِبَتِنَا اَلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ذُروَتِهَا فَوْقَ هَذَا اَلْكَوْكَبِ اَلَّذِي نَعِيشُ عَلَيه، وَيَعِيشُ بِدَاخِلِنَا كَعَالِمٍ أَكبَر... فَيُطوى فِي خَفَايَا خَفَايَانَا...

كانَ بلُوِيت يَتَأَمَّلُ تِلْكَ اَلصُّورَةَ اَلَّتِي يَرَى أُيوبا فِيهَا مُرتَدِياً لَلِزّيِّ اَلْأَفرِيقِيَّ لِأَوَّلِ مَرَّة... أَحسَّ بكمِّ الاشْتِيَاقِ، وَالْفَقْدِ اَلَّذِي سَيَعْتَرِيه بَعدَ رَحِيلِ اَلْأَخِير... وَامْتَنَّ لِتِلْكَ اَللَّوْحَةِ اَلَّتِي سَتَترُكُ وَجهَهُ مُعَلِّقاً فِي مَتَاحِفِ بِرِيطَانْيَا إِلَى اَلْأَبَد...

بِرِيطَانيَا اَلدَّوْلَةُ اَلَّتِي أَنْصَفَتْ أُيُوبَا، وَقَدَّمَتْ لَهُ يَدَ اَلْعَوْنِ، وَالحُرِّيَّةِ بَعدَ أَنْ تَرْجَمَتْ رِسَالَةَ تَحرِيرِهِ فِي إِحدَى جَامِعَاتِهَا اَلْعَرِيقَة...

– لَا أَظُنُّنِي سَأَنسَاكَ تُومَاس... هَمَسَ أُيُوبَا مِن خَلفِ ظَهرِ اَلْمُحَامِي اَلَّذِي بَدَا شَارِداً فِي لَوحَةِ أَيوبا اَلزَّيتِيَّةِ اَلْجَدِيدَةِ قَبْلَ أَنْ يَلْتَفِتَ تُومَاس نَحوهُ، وَقَدْ ارتسمت اِبْتِسَامَةٌ صَفْرَاء عَلَى وَجْهِهِ اَلْحَزِينِ اَلْمُحِبِّ...

– شُعُورٌ مُتَبَادَل!!... قَالَ اَلْمُحَامِي، وَقَدْ زمَّ شَفَتِيه كَاتِماً حُزْنهُ... وَلَكِنَّهَا نِهَايَةٌ عَادِلَةٌ منْصِفَةٌ لِرَجُلٍ مِثلك... سنتين... أَظُنُّهَا كَافِيَةً فِي تِلْكَ اَلْمَتَاهَةِ اَلْمُخِيفَةِ، وَالْمُقلقَة... لَقَد آنَ اَلْأَوَانُ لِعَوْدَتِكَ إِلَى مَوْطِنِكَ اَلْأَصْلِيِّ يَا عَزِيزِي...

قَالَ تُومَاس بَيْنَمَا اِلْتَفَتَ نَحوَ اَلصُّورَةِ مُجَدَّداً... وِيلْيَام فَنَّانٌ حَقِيقِيّ... أردفَ، وقد حَمَلَ غَلْيُونُهُ بِيَدِهِ اَلْيُسْرَى، وَربتَ عَلَى ذِرَاعِ أَيوبا بِيَدِهِ اَلْيُمنَى..

– عِدنِي أَلَّا تَتَوَقَّفَ مُحَاوَلَاتِكَ لِمَنْحِ اَلْعَبِيدِ حُرِّيَّاتِهِم فِي هَذِهِ اَلْبِلَادِ

اَلَّتِي اِنْتَهَكَتْ أَبْسَطَ حُقُوقِ اَلإِنْسَانِيَّة... لَقَدْ وَعَدتُ جُونيس قَبلَ أَنْ أرحَلَ أَن أفْعَلَ مَا بِوُسعي لِإِيقَافِ ذَلِكَ اَلنَّزِيف... وَهَا أَنَا قَد حَصَلَتْ اَلْيَوْمَ عَلَى عَهْدٍ بِإِعَادَةِ جَمِيعِ عَبِيدِ اَلْمُسلِمِينَ إِلَى بِلَادِهِم فِي حَالِ تَمَّ أَسرُهُم، وَاسْتِعبَادُهُم... وَعَنْ نَفسِي، فَإِنَّنِي لَن أَسمَحَ لِأَيٍّ مِن أَفرَادِ قَبِيلَتِي بِالعَمَلِ فِي هَذَا اَلْمَجَالِ بَعدَ ذَلِك، وَلَوْ اِضطَرَّ اَلْأَمرُ لِمُوَاجَهَةِ وَالدي سُلَيْمَان!!

– لَا أَظُنُّهُ سَيُكَرِّرُ تِلكَ اَلتَّجرِبَةِ أَصلاً... آملُ أَنَّهُ فَهِمَ دَرْسَ اَلْحَيَاة!!

– وآملُ ذَلِكَ أَيضاً... وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّ ذَلِكَ اَلْأَمْرِ أَضْحَى وَشِيكاً... وَشِيكاً أَكْثَرَ مِمَّا نَتَصَوَّر...

– لَمْ يَتَبَقَّ لَنَا مَعاً سوى أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ... دَعنَا نَحرِصُ عَلَى عَيْشِهَا بِكُلِّ تَفَاصِيلِها... قَالَ تُومَاس بلويت بَيْنَمَا مَدَّ يَدهُ قَاصِداً أَنْ يَبدَأَ، وَأَيوبا اَلْمُشْيَ فِي شَوَارِعَ لَنْدَن، وَأَزِقَّتِهَا... وَتَبَادُلَ اَلْأَحَادِيثِ، وَالْمُعْلُومَاتِ، وَالِاسْتِفْسَارَاتِ اَلَّتِي سَيَطْرَحُهَا أيوبَا، وَيُجِيبُ عَنْهَا بلويت لِيَصنعَ ذَاكِرَةً جَدِيدَةً للندَن فِي ذِهنِ اَلْمُسَافِرِ أَبَداً نَحوَ أَدغَالِ أَفْرِيقيَا...

- 10 -

فِي تِلْكَ اَلْحِقْبَةِ لَمْ يَكُنْ رَائِجاً إِطلَاقاً أَنْ يَتِمَّ رَسمُ رَجُلٍ يَحمِلُ اَللَّونَ اَلْأَسوَد!!... حَيثُ أَنَّ كُلَّ اَللَّوْحَاتِ آنَذَاكَ كَانَتْ تُرَكِّزُ عَلَى ذَوِي اَلْبَشَرَةِ اَلْبَيْضَاءِ لِإِبْرَازِ جَمَالِهِم، وَمِيزَاتِهِم...

وَلَكِنْ صّورَةَ أَيُوبَا بن سَليمَان جَالُو اَلَّتِي لَا تَزَالُ حَتَّى يَومِنَا هَذَا مُعَلِّقةً فِي مَعرِضِ اَلْبُورتِرِيهَاتِ اَلْوَطَنِيِّ فِي قَلبِ اَلْعَاصِمَةِ اَلْإِنْجِلِيزِيَّةِ لَنْدَن، وَاَلَّتِي تَعكِسُ مَدَى فَرَادةِ، وَاسْتِثنَائِيَّة ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي اِستَطَاعَ تَركَ بَصمَةٍ سرمديَّةٍ وَاضِحَةٍ فِي عَالَمِ اَلْغَربِ اَلَّذِي مَا كَانَ لِيَحتَفِيَ بِرَجُلٍ أَسوَد لَو لَمْ يَكُنْ هُوَ أَيُوبَا بن سُلَيمَانْ جَالو...

اَللَّيْلَةُ اَلَّتِي سَبَقَتْ إِبْحَارَهُ نَحوَ أَفْرِيقْيَا:

كَانَ أَيُوبَا يَعُدُّ حَقِيبَةَ أَغْرَاضِهِ، وَبَعْضَ اَلْهَدَايَا اَلتِّذْكَارِيَّةَ اَلَّتِي تَحصّلَ عَلَيهَا مِنْ أَصدِقَائِهِ هُنَاكَ مَعَ بَعضِ اَلْقِطَعِ اَلرَّمْزِيَّةِ اَلَّتِي اِشْتَرَاهَا بِنَفْسِهِ لِيُقَدِّمَهَا لِأَفْرَاد عَائِلَتِهِ بُعيدَ عَودَتِه...

كَانَ سَعِيداً إِلَى اَلدَّرَجَةِ اَلَّتِي لَم يَرَهُ بَلَويت سَعِيداً مِثلَهَا مِن قَبلُ حَتَّى فِي يَوم تلَقّى نبأَ تَحرِيرِهِ عَلَى يَدِ اَلْمُحسِنِ جِيمس أُوغليثورب...

وَلَكِنَّهُ، وَمَا أَن اِنتَهَى مِن توضِيبِ أَغرَاضِهِ أَخِيراً حَتَّى اِستَدَارَ نَحوَ بلويت الَّذِي يَنتَظِرُهُ لِيَذهَبا مَعاً إِلَى اَلطَّبِيبِ هَانز سلون لِيُوَدِّعَهُ بِدَورِهِ مَعَ بَعضِ اَلشَّخصِيَّاتِ اَلَّتِي لَم يَتَسَنَّ لَهُ تَوْدِيعُهَا فِي اَلْآوِنَةِ اَلْأَخِيرَة...

– مَا مُخَطَّطَاتُكَ لِلْمَرْحَلَةِ اَلْقَادِمَة؟؟... سَأَلَ أَيُوبَا بلويت بَيْنَمَا مشيا مَعاً بِهُدُوءٍ، وَتَروٍّ...

– سَأَعُودُ أَدْرَاجِي إِلَى أَمِيرِكَا... سَأُحَاوِلُ أَن أستَغِلَّ صِلَاتِي هُنَاكَ، وَقَاعِدَةَ مَعَارِفِي لِأُخَفِّفَ اَلْأَعبَاءَ قَدرَ اَلْإِمْكَانِ عَنْ كَوَاهِلِ اَلْعَبِيد...

وَهُنَا تَوَقَّفَ أَيوبا فَجأَةً بَعدَ أَن خَطَرَ لَهُ سُؤَالٌ لَمْ يَطرحهُ عَلَى بلويت عَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ مَتَانَةِ اَلْعَلَاقَةِ فِيمَا بَيْنَهُم، ثُمَّ قَال:

– تُومَاس!! مَا اَلَّذِي يَجْعَلُكَ مُتَحَمِّساً عَلَى هَذَا اَلنَّحوِ لِإِنقَاذِ اَلعَبِيدِ، وَلِمُنَاهِضَة اَلْعُبُودِيَّة؟؟... لَا تَفْهَمنِي بِشَكلٍ خَاطِئٍ أَرجُوك، وَلَكِن تُرَى مَا اَلَّذِي يَدفَعُ رَجُلاً أَبْيَضاً مِثلَكَ إِلَى تَبَنِّي قَضِيَّةِ اَلسُّودِ، وَالنِّضَالِ لِأَجلِهَا؟؟

– الحُبّ... قَالَ بلويت مُجِيباً عَلَى سُؤَالِ أَيُوبَا، وَقَدْ لَخَّصَ كُلَّ اَلْإِجَابَاتِ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَة...

فَفِي قَلْبِ ذَلِكَ اَلرَّجُلِ لَم يَكُن هُنَاكَ حَاجِزٌ يَفْصِلُ اَلْبَيْضَ عَن

اَلسُّود، أَوْ اَلْأَسْيَادَ عَنْ اَلْعَبِيد... لَقَدْ جَمَعَتِ اَلْإِنْسَانِيَّةُ كُلَّ أُولَئِكَ فِي دَاخِلِهِ حَتَّى تَلَاشَتْ اَلْفَوَارِقُ، وَذَابَتْ فِي آتُونِ اَلْمَحَبَّة الدّافِئَةِ كَالشَّمسِ... اَلْمُمتَدَّةِ كَشُعَاعِهَا...

اِبْتَسَمَ أَيُوبَا لِسَمَاعِهِ تِلْكَ اَلْإِجَابَةِ اَلْوَافِيَةِ اَلكَافِيَةِ مِن شَخصٍ لَمْ يَتَوَقَّع مِنْهُ غَيرَ ذَلِكَ بَيْنَمَا مشيا طَرِيقاً وَاحِداً عَلَى اِخْتِلَافِ لَونَيهِمَا اَلَّذِي كَانَ يَبعَثُ عَلَى اَلدَّهشَةِ لِكُلٍّ من رَآهُمَا يَسِيرَانِ فِي شَوَارِعَ لَنْدَن، وَيَعْتَلِيَانِ جُسُورَهَا...

فِي فِرَاشِ أَيوبا اَلدَّافِئِ عَلَى اَلرَّغمِ مِن بُرُودَةِ اَلْأَجْوَاءِ فِي تِلكَ اللّيلَةِ اَلْأَخِيرَة... غَمَرَهُ شُعُورٌ بِالِارْتِيَاحِ، وَالْأَمنِ وَقَد بَدَأَ يَتَخَيَّلُ لِقَاءَهُ بِأَوْلَادِهِ بَعدَ أَنْ تلامسَ قَدَمَيْهِ أَرضَ أَفرِيقيَا مُجَدَّداً...

تَخَيَّلَ فَاطِمَة، وَإِبرَاهِيمَ، وَسَامبُو... وَعَبد اَللهَّ، وَحَاوَلَ أَنْ يَبعِدَ كُلَّ اَلْهَوَاجِسِ اَلَّتِي رَاحَتْ تَتقَافزُ فِي نَفْسِهِ بِأَنَّ سُوءاً قَدْ أَلَمَّ بِهم بـُعيدَ غِيَابِهِ لِعَامَين...

وَبَيْنَ تَقَبُّلِ أَقْدَارِ اَللهَّ بِحُلْوِهَا، وَمُرِّهَا... وَبَينَ اَلذِّكرَيَاتِ بِسُوءِهَا، وَجَمِيلِهَا... وَبَينُ اَلْحَنِينِ، وَالتَّعَاطُفِ مع كُلِّ اَلْأَشْخَاصِ اَلْأَفَارِقَةِ اَلَّذِينَ اِلْتَقَاهُم فِي مُدُنِ اَلْغَربِ اَلْقَاسِيَة... رَاحَ أَيُوبَا يُغمضُ عَيْنَيهِ شَيْئاً، فَشَيْئا... وَقَد اِنْتَهَى مُنْذُ سَاعَاتٍ مِن مَرَاسِمِ اَلْوَدَاعِ، وَالْمُصَافَحَةِ اَلَّتِي أَحَاطَهُ بِهَا اَلْأَشخَاصُ اَلَّذِينَ عَرَفُوا قِيمَتَهُ، وَقِيمَةَ مَا يَحمِلُهُ مِن عِلمٍ،

وَدِينٍ، وَخُلق... وَقَد تركَ خَلفَهُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْمَخْطُوطَاتِ اَلْعَرَبِيَّةِ... وَالنَّسْخِ اَلثَّرِيَّةِ... وَالْبَصَمَاتِ اَلْمُفِيدَةِ اَلْوَاضِحَةِ اَلْجَلِيَّةِ لِيَنْفُضَ عَن نَفْسِهِ غُبَارَ اَلرِّقِّ، وَالْهَزِيمَة... وَلِيَأْخُذ اَلْمَكَانَةَ اَلَّتِي يَسْتَحِقُّهَا، وَاَلَّتِي لَمْ تَسْتَطِعْ كُلُّ اَلْهَزَائِمِ اَلَّتِي مُنِيَ بِهَا أَن تَجعَلَهُ يَتَرَاجَعُ، أَو يَتعَامَلُ مَعَ نَفْسِهِ عَلَى أَنَّهُ عَبدٌ، وَلَيْسَ أَمِيرُ بنُ مَلِك...

وها هُوَ أَيوبا يَغطُّ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ لِآخِرِ مَرَّةٍ تَحتَ سَمَاءِ أُورُوبَّا... وَقَدْ شَعَرَ بِرَاحَةِ اَلضَّمِيرِ بَعدَ أَنْ وَفى بِجُزءٍ مِن وَعدٍ قَطَعَهُ لِجُونْيس ذَات يَوم لِيكونَ لِأُولَئِكَ اَلْعَبِيد... اَلْأَبَ اَلَّذِي يَفْتَدِي... وَالْقَبِيلَةَ اَلَّتِي تُسْنِد... وَالْمُحَامِي اَلَّذِي يُطَالِبُ بِالْحُقُوقِ، وَيَحْصُلُ عَلَيْهَا...

هَذَا، وَقَد عَلِمَ حَقَّ اَلعلم أَنَّ مَا مِن أَحَدٍ سِينْصرُ قَضَايَا السّود إِلَّا اَلسُّودُ أَنْفُسَهُمْ... وَأَنْ ما مِنْ أَحَدٍ سَيُوقِفُ ذَاكَ اَلنَّزِيفَ اَلْبَشَرِيَّ اَلْأَسْوَدَ إِلَّا اَلْوَعيُ بِالْحُقُوقِ... وَالْوَعيُ بِنَوَايَا مَنْ يُحِيكونَ اَلْمُؤَامَرَاتِ، وَيَصْنَعُونَ اَلدَّسَائِسَ... وَ يُزودونَ بِالْأَسلِحَةِ، وَالعتَادِ لِتَبقَى أَفْرِيقيَا رَحِماً تَوَلّدُ اَلْعَبِيدِ لِلْغَربِ بِاسْتِمرَارٍ... وَبِدَيْمُومَةٍ... وَدُون اِنْقِطَاع...

اَلْفَصل اَلسَّابِع

1734

- 1 -

عَلَى وَقْعِ رِيَاحِ شَهْرِ حُزَيرَان... أبحرت سَفِينَةُ أَيُوبَا نَحوَ أَفريقيَا بِرِحلَتِهِ اَلْأُسطُورِيَّةِ اَلَّتِي لَمْ يَعُد بِهَا إِلَّا ثَلَاثَةٌ مِنْ العبيدِ عَلَى مَرِّ زَمَنِ اَلْعُبُودِيَّةِ كَامِلاً...

وَمِن عَلَى ظَهرِ اَلسَّفِينَةِ مَفْرُودَةِ اَلْأَشرعةِ لَوَّحَ لِصَدِيقِهِ تُومَاس بَلَويتْ بِأَقْصَى مَا اِسْتَطَاعَتْ ذِرَاعَهُ أَنْ تَمتَدَّ، وَتُلَوِّحُ قَبْلَ أَن تَسْتَسلِمَ اَلسَّفِينَةُ بَيْنَ يَدِي مِيَاهِ اَلْمُحِيطِ اَلَّذِي بَدَأَ يُبعِدُهَا شَيئاً، فَشَيئاً حَتَّى تَوَارَت تَمَاماً عَن اَلْأَنظَار...

وَلِلْأَمَانَة، فَإِنّ اَلقِصَّةَ بَينَ أَيُوبَا، وَالمحَامِي توماس بلويت لَم تَنتَهِ عَلَى مِينَاءِ السّفِينَةِ اَلَّتِي أبحَرت لِتَوِّهَا مِن سَوَاحِلَ بِرِيطَانيَا... فَلَقَد عَاهَدَ تُومَاس أَيُوبَا أَن يَجْعَلَ مِن قِصَّتِهِ مَرجِعاً حَيّاً لِكُلِّ مُهتَمٍّ بِتَفَاصِيلِ حَيَاةِ اَلعَبِيدِ، وَمَدَى اَلظُّلمِ، وَالغَبنِ اَلَّذِي وَقَعَ عَلَيهِم فِي تِلكَ اَلْحِقبَةِ اَلسَّودَاءِ مِن حَيَاة اَلشَّعبِ اَلْأَسوَد...

وَبالفِعلِ فَقَد اِعتبَرَ بلويت ذَاكَ اَلطُّمُوحَ اَلسَّامِي هَدَفاً لَا حِيَادَ عَنهُ كَيٌّ يُؤَرِّخَ ذِكرَ صَدِيقِهِ اَلعَالِمَ اَلأفْرِيقِيِّ اَلأَكبَرِ أَيُّوبْ بن سُلَيمان جَالُو...

لَقَد حَاوَلَ بلُويت بِكُلِّ مَا اِستَطَاعَ أَن يُظهِرَ اَلوَجهَ اَلْأَسوَدُ لِلعُبُودِيَّةِ... وَالْوَجهَ اَلأَبيَضِ اَلَّذِي يَختَفِي خَلفَ بشرةِ اَلعَبِيدِ اَلَّذِينَ اِنتُهكُوا، وَانتُهِكَت جَمِيعُ حُقُوقِهِم...

وَمِن ذَاكَ اَلْمِينَاء... عَادَ اَلرَّجُلُ اَلْأَبْيَضُ صَاحِبُ اَلْعَينَينِ اَلْمُلَوَّنَتَينِ أدرَاجَهُ عَلَى طَرِيقٍ مشَاهُ مُنذُ سَاعَاتٍ مَعَ صَدِيقِهِ اَلَّذِي أُحِبُّهُ أَيَّمَا حُبّ... وَقَد عَقَدَ اَلْعَزمُ عَلَى اَلْبَدءِ بِمَا طَمَحَ إِلَيه... فَكَانَ أَهلاً لُلُوعِدِ... وَأَهلاً لِلْأُخُوَّةِ، وَالصَّدَاقَة.

وَهُنَاكَ رَاحَ أَيُوبَا يَتَفَكَّرُ كَيفَ أَنَّ هَذِهِ اَلسَّفِينَةِ عَالِيَةِ اَلْأَسوَارِ عَمِيقَةِ اَلِارْتِفَاعِ كَانَتْ تَمخُرُ عُبَابَ تِلْكَ اَلْأَمْوَاجِ مُحَمَّلَةً بِالْبَضَائِعِ، وَالمُؤَنِ اَلَّتِي كَانَ عَلَيهَا أَنْ تُقَايَضَ بِعَبِيدٍ سُودٍ كَانُوا أَحرَاراً قَبلَ وَقتٍ قَصِير...

وَلَأنّ ذِكرَيَاتِ اَلْأَلَمِ لَا تُمْحَى، وَلَوْ مَرَّ عَلَيْهَا قَرْنٌ مِنْ اَلزَّمَنِ بَدَأ أيوبَا يَسْتَذْكِرُ مَلَامِحَ سَفِينَةِ أزبيال قَبلَ عَامَينِ حِينَ كَانَ عَبْداً مِن عَبِيدِهَا، وَكَيْفَ تَعرّضَ لِلتَّقييدِ، وَالْجَلدِ، وَالْحَرقِ، وَالتَّعْذِيبِ فَضلاً عَنْ اَلشُّعُورِ بِالِاختِنَاقِ فِي اَلْغُرَفِ اَلْمُكْتَظَّةِ اَلَّتِي لَا يُسمَحُ لَهُم

بِمُغَادَرَتِهَا إِلَّا بِحِرَاسَةٍ، وَنِظَامٍ شَدِيدِي اَلدِّقَّة... بَيْنَمَا كَانَ اَلْآنَ قَادِراً عَلَى اَلتَّجَوُّلِ فَوقَ سَطحِ هَذِهِ اَلسَّفِينَةِ اَلَّتِي وَطَّأَهَا أَمِيراً فِي رِحلَةِ عَوْدَتِهِ كَيْفَمَا يَشَاءُ...

عَلَى مَتنِ اَلنَّاقِلَةِ تِلْكَ كَانَ هُنَاكَ اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْأَشْخَاصِ اَلَّذِينَ يَتَّسِمُونَ بِلَونِ اَلْبَشَرَةِ اَلْبَيْضَاء... إِن لَمْ نَقُلْ أَنَّ غَالِبِيَّتَهُم كَانُوا كَذَلِكَ بِاسْتِثْنَاءِ اَلْعَبِيدِ، وَالخَدَمِ اَلَّذِينَ كَانُوا يُرَافِقُونَ أَسيَادُهُمْ المُسَافِرِينَ فِي تِلْكَ اَلرِّحلة...

وَمَعَهُم... كَانَ عَلَى أَيُوبَا أَنْ يَقضِيَ فَترَةً مِن اَلزَّمَنِ قَد تَقَارِبُ اَلشَّهْرين، وربّما أكثر...

وَلِذَلِكَ ارتأى اَلْأَخِيرُ أَنْ يَبْدَأَ بِتَسْجِيلِ مُلَاحَظَاتِهِ عَنْ طَبَائِعِهِم، وَتَصَرُّفَاتِهِم كَأَسْيَادٍ فَوق سَفِينَةٍ تَطفُو عَلَى مِيَاهِ اَلْمُحِيطِ اَلْمُتَقَلِّبَةِ لِتَكْتَمِلَ اَلصُّورَةُ فِي ذِهنِهِ، وَلْيَسْتَوْفِي جَمِيع اَلْمَعْلُومَاتِ اَلَّتِي يَحتَاجُ إِلَيْهَا لَاحِقاً لِيَكتُبَ مُذَكِّرَاتِهِ حَولَ اَلْعَبِيدِ اَلَّتِي سَتُعِدُّ فِيمَا بَعد اَلْمَرْجِعَ اَلْأَهَمَّ، وَالْأَسَاسِيَّ فِي وَصْفِ مُعَانَاةِ اَلْعَبِيدِ، وَكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَفَاصِيلِ اِسْتِعبَادِهِم...

لَمْ يَكُن عَامِلُ الزَّمَنِ عَائِقاً أَمَام أَيُوبَا اَلَّذِي لَمْ يُلِ اِهْتِمَاماً لِمُسَالَةِ اَلْوَقْتِ اَلَّذِي سَيَقْضِيه هَا هُنَا... وَلَا سِيمَا أَنَّ مُعَامَلَتَهُ اَلْآن كَأَمِيرٍ يَمْتَلِكُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْمَكَانَةِ، وَالْقِيمَةِ، وَالتَّوْصِيَةِ سَهَّلَتْ اَلْأَمرَ عَلَيْه...

- 2 -

بَيْن أَغْرَاضِ اَلْأَمِيرِ اَلْعَائِدِ مِنْ اَلْعُبُودِيَّةِ كَانَتْ تَزْهُو رِسَالَةٌ قِيِّمةٌ حَملهَا مَعَهُ مِنْ شَرِكَةِ رُويَال أَفرِيكَا RAS اَلَّتِي تَوَرَّطَتْ قَبْلَ بِضْعِ سَنَوَاتٍ فِي بَيْعِ اَلْأَخِيرِ كَعَبد...

وَفِي هَذِهِ اَلرِّسَالَةِ وَجَّهَتْ اَلشَّرِكَةُ أَمْراً لِمُوَظَّفِيهَا فِي غَامْبِيَا أَنْ يُعَامِلُوا أَيُوبَا بِفائِقِ اَلِاحْتِرَام، وَالتَّكْرِيم... وَهُوَ اَلَّذِي لَمْ يَعُدْ مِنْ قَيدِ اَلْعُبُودِيَّةِ، فَحَسْبَ وَإِنَّمَا مِن مُنَاظَرَاتٍ زاخِرَةٍ فِي صَالُونَاتِ اَلتَّنْوِيرِ جَمَعَتْهُ بِأَهَمِّ قَامَاتِ تِلْكَ اَلْحِقْبَةِ... فَضْلاً عَن لِقَائِهِ بِالْمَلِكِ، وَالْمَلِكَة...

وقد مَضَى اَلْآن شَهرٌ عَلَى رُكُوبِ أَيوبا لُجَّةَ اَلْمُحِيط... وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ يَقْضِي جُلَّ وَقْتِهِ فِي اَلْعِبَادَةِ، وَالذِّكرِ، وَالْمُنَاجَاةِ، وَتَدوِينِ اَلْمُذَكِّرَاتِ اَلَّتِي تَتَحَدَّثُ بِدِقَّةٍ، وَتَفصِيلٍ عَن تِلْكَ اَلْفَتْرَة...

إِلّا أَنَّهُ كَانَ مُشَوَّشَ اَلذِّهْنِ بَعْضَ اَلشَّيء... فَقَد كَانَ يَحْتَاجُ وَقْتاً أَطْوَلَ كَي يَتَعَافَى نَفْسِيّاً مِنْ تِلْكَ اَلتَّجْرِبَةِ اَلْمَرِيرَةِ اَلَّتِي مَرَّ بِهَا طَوَالَ ثمانيةِ عشرَ شَهْراً... وَلِذَلِكَ كَانَ اَلْقَلَقُ يُدَاهِمُهُ بَيْنَ اَلْفَيْنَةِ، وَالْأُخرَى، فَيَشعُرُ بِشَيءٍ مِن اَلدَّوَّارِ، وَضِيقِ اَلنَّفَسِ مِنْ عَلَى متنِ سَفِينَتِهِ تِلْكَ اَلَّتِي اِخْتبَرَ رُكُوبَ مَثِيلَتِهَا فِي ذَاتِ اَلطَّرِيق... وَلَكِنْ شَتَّانَ بَينَ هَذَا، وَتِلْك...

وَمَعَ هَذَا اَلْقَلَقِ، وَالتَّوَجُّسِ، وَالتَّوَتُّرِ اَلَّذِي بَدَأَ يَطْرُقُ قَلْبَ أَيوبا بَعْد اِنْقِضَاءِ ذَلِكَ اَلْوَقْتِ فِي رِحْلَةِ عَوْدَتِهِ... بَدَأَتِ اَلْأَحلَامُ اَلْمُقْلِقَةُ تقُضُّ هَدْأَةَ سَكِينَتِه، وَتُثِيرُ فِي دَاخِلِهِ اَلشُّكُوكَ عَنْ مَصِيرِ عَائِلَتِهِ، وَقَبِيلَتِهِ بُونْدُو...

هُوَ اَلَّذِي كَانَ يَثِقُ تَمَامَ اَلثِّقَةِ بَحْدسِهِ اَلَّذِي لَا يَخُونُهُ، وبأَحَلَامَهِ اَلَّتِي لا تَمُرُّ وَعْيَهُ جُزَافاً... كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ وَطْأَةَ ذِكْرَيَاتِهِ اَلَّتِي تَحمِلُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْعَذَابِ، وَالْأَلَمِ... وَوَطْأَةِ أَحلَامِهِ اَلَّتِي تُثِيرُ اَلْكَثِيرَ مِن اَلشُّكُوكِ، وَالْمَخَاوِف... وَلَكِنَّهُ قَاوَمَ كِلَّ ذَاك بِحَدِيثِهِ اَلْمُتَوَاصِلِ مَعَ رَبِّهِ، وَبْتَأَمّلَاتَهِ اَلثَّاقِبَةِ فِي اَلْكَونِ، وَالوُجُودِ، وَالحَيَاة...

وَمَعَ كُلِّ ذَاكَ اَلَّذِي اِخْتَبَرَهُ مِنْ رَائِحَةِ اَلْبَحرِ اَلَّتِي لَمْ يَنْسَهَا أَوَّلَ مَرَّة... وَمِنْ أَشْرَعَةِ السّفِينَةِ، وَانْحِنَاءَاتِهَا أَمَامَ رِيَاحِ اَلْمُحِيطِ اَلْبَارِدَة... بَدَأَ أَيُوبَا يُكْثِرُ مِنْ اَلْحَدِيثِ إِلَى اَلْمُسَافِرِين... أَسْيَادِهم، وَعَبِيدِهِم... بَيْنَمَا يُدَوِّنُ مُلَاحَظَاتِهُ اَلَّتِي سَتَتَحَوَّلُ فِيمَا بَعد إِلَى مُذَكِّرَاتٍ لَهَا اَلْكَثِيرُ مِن اَلْأَهَمِّيَّةِ، وَالْمِصْدَاقِيَّة... وَاَلَّتِي سَيَسْتَهدِي، وَيُسْتَشهدُ بِهَا اَلْبَاحِثُونَ عَنْ اَلْحَقِيقَة... حَقِيقَةُ اِسْتِعبادِ اَلْبَيْضِ لِلسُّودِ عَلَى مَرِّ أَرْبَعَةِ قُرُونٍ، وَأَكْثَر.

- 3 -

بَدَأَتْ رِيَاحُ أُغُسْطُسَ اَلدَّافِئَةِ نَوعاً مَا تَلفَحُ وَجهَ اَلسَّفِينَةِ اَلمتَّجِهَةِ نَحوَ سَوَاحِلَ غَامبِيا شَيئاً، فَشَيئاً... وَمَعَ اِنصِرَامِ كُلِّ تِلكَ اَلْفَترَةِ، وَاقتِرَابِ اَلرِّحلَةِ مِن اِنتِهَائِهَا... كَانَ حَمَاسُ أيوبَا، وَشَغَفُهُ لِأَن يَطَأَ أرضَ بِلَادِهِ اَلسَّمرَاءَ مَرَّةً أُخرَى يَتَزَايَدُ يَوماً بَعدَ يَوم...

وَمِن مَكَانَهِ ذَاكَ، وَعَلَى اَلرَّغمِ مِن مَشَاعِرِهِ اَلْمُختَلِطَةِ اَلْمُتَلَاطِمَةِ كَانَ اَلرَّجُلُ اَلِاستِثنَائِيُّ لَا يَنْسَى أَنْ يَعقِدَ حَلَقَاتٍ مِنْ اَلتَّوعِيَةِ، وَالتَّعرِيفِ بِاَللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - وَبِعَقِيدَةِ اَلْإِسلَامِ لِلعَبِيدِ اَلْمُتَوَاجِدِينَ عَلَى ظَهرِ اَلسَّفِينَةِ، وَاَلَّذِينَ كَانُوا يَتَشَرَّبُونَ تِلكَ اَلْمَعلُومَاتِ بِتَلَهُّفٍ كَمَا تَتَشَرَّبُ اَلْأَرضُ اَلْمُتَشَقِّقَةُ اَلمطَرَ بُعد جفافٍ طَوِيل...

حَدَّثَهُم عَنْ حِكَايَتِهِ مِنْ مُبتَدَاهَا لِمُنتهاهَا... عَنْ اَلْقُرْآنِ اَلْكَرِيمِ، وَآيَاتِهِ اَلْعَظِيمَةِ اَلْمُبهِرَة... عَنْ حَياة اَلرَّسُولِ - صَلَّى اَللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالصَّحَابَةِ اَلْعُظَمَاءِ... وَكَيفَ أَنَّ تَعَالِيمَ اَلْإِسْلَامِ تَعُدُّ مَدْرَسَةً حَيَاتِيَّةً جَامِعَةً لِكُلِّ مَن يَوَدُّ تَعَلُّمَ أُصُولِ اَلحَيَاةِ، وَمَفَاهِيمِ عَيشِهَا...

لمْ يكن أيوبَا لِيَشعُر بِفَوقِيَّةٍ عَن أُولَئِكَ اَلَّذِينَ تَقَاسَم مَعَهُم اَلْأَلَمَ، وَالْقَيدَ، وَالْعُبُودِيَّةَ ذَاتَ يَوم... حَدَّثَهُم كَأخٍ، وَرَفِيقٍ، وَصَدِيق...

سَمِعَ آلَامَهُم، وَطَبَّبَ جِراحهم اَلنَّفْسِيَّةَ بِكَلَامِهِ الهَادِئ، وَطَبعِهِ اَلْمُحِبِّ اَلرَّزِينِ، وَقَدْ شَرَحَ مِن مَكَانَتِهِ اَلَّتِي لَا تَقِلُّ عَن أَسيَادِهِمْ لِأُولَئِكَ البَيْضِ كَيفَ أَنَّنَا مُتَسَاوُونَ فِي الحُقُوقِ كَبَشَرٍ، وَلَيسَ عَلَى أَيِّ مِنَّا أَن يَستَعبِدَ إِنْسَاناً مهما اِسْتَدعَى اَلْأَمرُ، وَمَهمَا عَظم اَلسَّبَب...

وهُوَ اَلَّذِي يَعلَمُ تَمَاماً كَيفَ يَنْظُرُ البَيضُ إِلَى اَلسُّودِ، وَكَيفَ هِيَ طَبِيعَةُ مُعَامَلَتِهِم لهم... وَلَكِنَّهُ كَانَ قَد أَخَذَ عَهداً عَلَى نَفسِهِ أَمَامَ اَللهَّ – عَزَّ وَجَلَّ – أَلَّا يَتَوَانَى عَن قَولِ اَلحَقِّ، وَالوُقُوفِ إِلَى جَانِبِ مُستَضعَفي اَلحَيَاة... وَلَو كَلَّفَهُ ذَلِكَ حَيَاتُهُ اَلَّتِي حَمَلَهَا عَلَى كَفِّهِ ذَاتَ يَومٍ، وَهُوَ يُبحرُ نَحوَ اَلْأَرضِ اَلْجَدِيدَةِ، وَلَا يَدرِي مَا اَلْمَصِيرَ اَلَّذِي سَينتَظِرُهُ هُنَاك...

وَلَا عَجَبَ إن قُلْتُ لَكُم أَنَّ أَيُوبَا كَانَ كَالشَّمْسِ اَلَّتِي لَا يُمكِنُ أَنْ تَختَفِيَ خَلفَ اَلغَمَامِ طَوِيلاً... هُوَ اَلنُّورُ اَلَّذِي مَا أَن يُسَلّطَ عَلَى المَكَانِ حَتَّى يُحِيلَهُ إِلَى فَضَاءٍ أَبْيَضٍ تَزُولُ كُلَّ الشّوَائِبِ عِنْد بِلَاجتَه...

وَلِذَلِكَ اِستَطَاعَ بِمُقدرتِهِ عَلَى اَلْمُحَاجِجَةِ، وَالْمُنَاقَشَةِ، وَالْمُنَاظَرَةِ أَنْ يَصنَعَ فَارِقاً فِي حَيَاةِ اَلْعَبِيدَ اَلَّذِينَ اِختَارَهُم اَلْقَدرُ لِيُشَارِكُوهُ رِحلَةَ

اَلرُّجُوع... وَلِيَستَنِيروا بِكَلَامِهِ إِلَى نُورِ اَلْإِسلَامِ، وَجَمَالِ آيَاتِه... فَضلاً عَنْ تَأْثِيرِ كَلَامِهِ عَلَى اَلْأَسيَادِ اَلَّذِينَ رَأَوا فِي أَيوبا نَمُوذَجاً إِنْسَانِيّاً شَاهِداً عَلَى تَقَلُّبِ حَيَاةِ اَلْإِنسَانِ بَيْنَ اَلْقِمَّةِ، وَالْقَاعِ فِي لَيلَةٍ ظَلماءَ مِن لَيَالِي اَلزَّمَن...

- 4 -
8 أُغسطُس 1734

بَينَ فَبرَايِرَ، وَأُغسطُسَ اَلكَثِيرُ مِنْ اَلْحِكَايا اَلَّتِي سَوفَ تُحكَى... وَالْكَثِيرُ مِن اَلمَوَاضِيعِ اَلَّتِي سَتَكُونُ حَدِيثَ اَلسَّهَرَاتِ، وَاللَّيَالِي اَلطِّوَال... لَقَد مَرَّت اَلْآن سَنَتَانِ، وَنِصف عَلَى مُلَامَسَةِ قَدَمِي أيوبَا لِأَدِيمِ تِلكَ اَلْأَرضِ اَلْغَالِيَةِ اَلَّتِي بَدَأَتْ تَلوحُ مَعَالِمُهَا لهُ، وَقَد شَارَفَت اَلسَّفِينَةُ عَلَى اَلرُّسُوِّ مُجَدَّداً عَلَى سَوَاحِلَ غَامبِيَا...

كَانَ هُنَاكَ يَقِفُ مُتَمَسِّكاً بِالسُّورِ اَلخَشَبِيِّ اَلَّذِي تَعلُوهُ الجِبَالُ اَلْمُتَشَابِكَةِ، وَعَينَاهُ لَا تَزَالَانِ تَنْظُرَانِ نَحوَ أَفريقيَا... وَتُرَابِ أَفرِيقيَا... وَ أدغالِ أَفرِيقيَا...

وَمَا أَن صَفَعَتْ وَجهَهُ رِيَاحَهَا اَلحَارَّةَ حَتَّى بَكَى!!... بَكَى عَلَى غُرْبَتِهِ اَلَّتِي عَادَ مِنْهَا بَينَمَا لَم يَسْتَطِعْ جَمِيع منْ خَلفِهِم هُنَاك أَنْ يَعُودُوا مَرَّةً أُخرَى...

بَكَى عَلَى وَجهِ وَالِدِهِ اَلَّذِي اِنتَظَرَ أَن يَرَاهُ طَوِيلاً... عَلَى ضَفَائِرِ فَاطِمَة... وَعُيُونِ عَبدِ اَللهَّ، وَإِبْرَاهِيم، وَسَامبُو...

كَانَ يُمسِكُ بِذَاكَ اَلسُّورِ بَكْلَتي يَدَيه، وَقَد غَلَبَ عَلَيهِ اَلتَّوَتُّرُ بِشَكلٍ مَلحُوظٍ بَينَمَا كَانَت اَلسَّفِينَةُ عَلَى سُرعَتِهَا اَلْكَبِيرَةِ تَسِيرُ بِبُطءٍ وَفقَ مَنظُورِ أَيُوبَا اَلَّذِي رَاحَ يَستَقبِلُ صَبَاحَ أَفرِيقيَا بِالضَّحِكِ، وَالِابْتِسَامِ تَارَةً... وَبِالدُّمُوعِ، والحسراتِ تَارَةً أُخْرَى...

كَانَ سُجُودُ أَيوبا طَوِيلاً جِدّاً عَلَى أَرْضِ أَفرِيقيَا بَعدَ أَن اِلتَقَى تُرَابَهَا مَرَّةً أُخرَى... وَعَلَى ذَلِكَ اَلثَّرَى اِمْتَزَجَت دُمُوعَهُ بِحَبَّاتِ اَلتُّرَابِ اَلطَّاهِرَةِ عَلَى تِلكَ اَلسَّوَاحِلِ اَلَّتِي دَنَّسَهَا أَصحَابُ اَلْبَشَرَةِ البَيضَاءِ، وأذرَعَتَهَم مِن اَلسُّودِ دَاخِلَ أَفريقيَا، وَجَعلَ مِنهَا سُوقاً لِبَيعِ اَلبشَرِ هُنَا...

وها هُوَ اَلآنَ يَستَجمِعُ قوَاه، وَأَغرَاضَهُ، وَهُوَ يُقَدِّمُ الرّسَالَةَ اَلَّتِي حَمَلَهَا مِنْ شَرِكَةِ رُويَال أفريكا إِلَى مُوَظَّفِيهَا عَلَى سَوَاحِلَ غَامبِيَا اَلَّتِي أَوصَوا مِن خِلَالِهَا بِمُعَامَلَةٍ اِسْتِثنَائِيَّةٍ لأَيُوبَا اَلَّذِي تَمَّ اَلتَّرحِيبُ بِهِ، وَالتَّعَامُل مَعَهُ بِفَائِق اَلِاحتِرَام، وَالتَّقْدِيرِ قَبلَ أَن يُرَافِقَهُ أَشخَاصٌ مِنهُم لِحِمَايَتِهِ فِي رِحلَةِ عَودَتِهِ نَحو بُونْدُو اَلَّتِي تَمَنَّى أَنْ يَلقاهَا بِأَحسَن حَال... وَلَكِن، وَمَعَ اَلْأَسَفِ اَلشَّدِيدِ كَانَ لأَيُوبَا مَوْعِداً جَدِيداً مَعَ صَفحَةٍ سَودَاءَ مِن صَفَحَاتِ اَلقَدَرِ اَلَّتِي بدت، وكأنّها لَن تَنتَهِي.....

- 5 -

فِي طَرِيقِ اَلعَودَةِ نَحو بُونْدُو كَانَت الأَخبَارُ السّيِّئَةُ لأَيُّوبَا بِالمِرصَادِ، وَهُوَ اَلَّذِي لَم يَكُن قَد تَعَافَى بَعد مِن جِراحِ اَلأَمسِ اَلغَائِرَةِ حَتَّى تُصِيبَهُ سِهَامُ اَلْيَومِ فِي مَقتل!!

أيوبا اَلَّذِي ظَلَّ طوالَ فَترَةِ غِيَابِهِ يَتَشَبَّثُ مَا اِستَطَاعَ بِوَجهِ وَالِدِهِ، وَبِمَا تَبقّى لَهُ مِن رَائِحَةِ أَطفَالِهِ، وَمَلَامِحِ وُجُوهِهِم...

وكالشَّمعَةِ اَلَّتِي كَانَتْ تَعصِفُ بِهَا اَلرِّيَاحُ مِن كُلِّ جَانِبٍ، وَلَيسَ لَهَا إِلَّا أَن تَظَلَّ فِي حَالَةِ دِفَاعٍ دَائِمَةٍ عَن لِسَانِ لَهِيبِهَا كَي لَا تَنْطَفِئُ وَتَرحَل نَحوَ عَالَمِ اَلزَّوَالِ، وَالتَّلَاشِي...

كَذَلِكَ كَانَ أَيوبا يُحَاوِلُ جَاهِداً أَنْ يَتَحَدَّى ذَاكِرَتَهُ... وَأَن يَحُثَّ نَفْسَهُ، وَيَستَحِثَّ صَبرهُ لِئَلَّا يَفقِدَ مَا تَبَقَّى لَهُ مِن اَلْأَمَلِ هُنَاكَ بَينَ نِيرِ اَلعبُودِيَّةِ، وَذُلِّ اَلْاَسْترِقَاق... وَالْآن... وَعَلَى بُعدِ أَيَّام مِنْ اَللِّقَاءَاتِ اَلْمُنتَظَرَةِ، وَالْأَفرَاحِ اَلْمُؤَجَّلَة... كَانَ عَلَى ذَلِكَ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي اِعتَادَ رُبَّمَا عَلَى مُصَادَفَاتِ اَلحَيَاةِ اَلْمُتَنَوِّعَةِ، وَالْمُذْهِلَة... وَلَكِنَّهَا كَانَتْ اَلصَّفْعَةُ اَلْأَقْوَى... وَهُوَ اَلَّذِي لَوَّحَ لِوَالِدِهِ ذَاتَ يَومٍ فِي سَوَاحِلَ غامبِيَا، وَقَد

وَعَدَهُ أَن يَعُودَ بِأَسْرَعِ وَقتٍ قَبلَ أَنْ يُخَاتلهُ اَلوَقتُ، وَتُخَادِعَهُ اَلْحَيَاة... وَيلقيهِ اَلزَّمَن فِي مِصيدةِ شِبَاكهِ اَلظَّالِمَةَ...

وَعَلَى بُعدِ حَدِيثٍ، وَبِضعَةِ جُمَل... كَانَ هُنَاكَ حُزنٌ جَدِيدٌ يَنْتَظِرُ قَلْبَ أَيُوبَا اَلْمُشَبَّعِ بِالْحُبِّ، وَالتَّدَيُّنِ، وَالعَقِيدَةِ اَلحَقَّة...

وَهُوَ يُلَمحُ فِي عُيُونٍ مُحدّثهِ مَا تَمَنَّى أَن يَكُونَ بَعِيداً عَنْ اَلصِّحَّةِ، وَعَن عَينِ اَلْحَقِيقَة... وَلَكِن أَينَ اَلهُرُوبُ مِن فِخَاخِ اَلحَيَاة؟؟.. وَبِمَن تُرَى نَلُوذُ مِن أَخْبَارِهَا اَلْقَاسِيَة!!

كَانَ اَلرَّجُلُ اَلَّذِي جَلَسَ قُبَالَةَ أَيوبا فِي ذَلِكَ اَلْيَومِ يَعرِفُ اَلمَلِكُ سُلَيمَان مَعرِفَةً سَطْحِيَّةً غَيرَ عَمِيقَةٍ، وَقَد لَمَحَ فِي وَجهِ أَيوبا مَلَامِحَ وَجهِ أَبِيهِ، فَعَرَفَ بِحَدسهِ أَنَّهُ اِبن سُلَيمَان دُونَ أَن يَكُونَ لَهُ عِلمٌ بِمَا حَدَثَ لَهُ مِن أَسرٍ، وَاستِعبَادٍ فِي اَلْمِنطَقَةِ اَلَّتِي تَستَغِلُّ دِمَاءَ اَلأَفرِيقِيِّينَ، وَأَجسَادِهِم خَلفَ البِحَارِ البَعِيدَة...

فَأَثنَاءَ رِحلَةِ رُجُوعِ أيوبَا إِلَى مَسقَطِ رَأْسِهِ اِلتَقَى بِأَحَدِ اَلأَشخَاصِ اَلَّذِينَ كَانُوا يَقطُنُونَ مَدِينَةً كَان عَلَى أَيُوبَا أَن يَستَرِيحَ بِهَا، وَمن مَعَهُ مِن اَلْمُرَافِقِينَ قَبلَ إِتمَامِ رِحلَتِهِ إِلَى بُونْدُو...

– نَسِيرُ جَمِيعاً نَحو بُونْدو... قَالَ أَيُوبَا مُجِيباً عَلَى سُؤَالِ اَلرَّجُلِ اَلَّذِي اِستَضَافَهُم، وَقَد كَانَ كَبِيراً فِي اَلسِّنِّ نَوعاً مَا... حَدَّقَ اَلرَّجُلُ

فِي أَرضِيَّةِ اَلْغُرفَةِ مَليّاً، وَقَد بَدت عَلَيهِ مَعَالِمُ اَلْحِيرةِ قَبلَ أَن يَقُول:

- أَكُنتَ مُسَافِراً بُنيّ؟؟

- لَا أَستَطِيعُ أَن أَعَدَّهُ سَفَراً بِمَعنَاهُ اَلْمُتَعَارَفِ عَلَيهِ، وَلَكِن بِإمكانِكَ أَن تَقُولَ نَعَم... لَقَد فَارقتُ بُونْدُو مُنذُ سَنَتَينِ، وَنِصف...

- يُؤسِفُنِي أَن أَخْبَرَكَ أَنَّكَ لَن تَجِدَهَا كَمَا خَبرتَهَا... بُونْدُو اَلْيَومَ لَيسَتْ مَا كَانَت عَلَيه...

عَدّلَ أَيوبا جَلسَتَهُ، وَقَد شَعَرَ بِالِانزِعَاجِ، وَالرَّهبةِ عَلَى إِثرِ مَا سَمِعَ... ثُمَّ قَال:

- مَاذَا حَدَثَ لَبُونْدُو... مَا الخطبُ اَلَّذِي أَصَابَهَا؟؟

- لَقَدْ تَعَرَّضَت لِحَربٍ قَبَلِيَّةٍ قَاسِيَةٍ أَتَت عَلَى اَلْأَخضَرِ، وَاليَابِسِ، وَلَمْ تَبقِ بِهَا، وَلَمْ تُذر...كَمَا، وَيُقَالُ أنَّ ملكَهَا سُلَيمَان قَد قُتِلَ فِي خِضَمِّ تِلكَ اَلْمَعَارِكِ يَا بُنَيّ...

نَزَلَ اَلخَبَرُ عَلَى أَيُوبا نُزُولَ اَلصَّاعِقَةِ عَلَى سَفحٍ مِن اَلهَشِيمِ، وَالشَّوك.. ضَاقَتِ اَلدُّنيَا بِعَينَيهِ، وَفَقَدَ اَلرُّجُوعُ طَعمَ حَلَاوَتِه... وَعَلَى اَلرَّغمِ مِن صُعُوبَةِ اَلحَدِيثِ عَلَيهِ إِلّا أَنَّهُ قَالَ بِاسْتِغرَابٍ، وَقَدْ نَزَلَت دَمعَتَاه مَعَ بَعْضِهِمَا بِوَقتٍ وَاحِدٍ:

– أَبِي!!... مَاتَ أَبِي!! مَاتَ اَلمَلِكُ سُلَيمَان؟؟... ثُمَّ سَحبِ نَفسهُ بِتَثَاقُلٍ، وَقَد عَجَزَ عَن اَلمَشيِ لِيَقِفَ خَارِجَ اَلغُرفَةِ، وَيَسمحَ لِنَفسِهِ بِالبُكَاءِ كَيفَمَا شَاءَ فِيمَا سَمِعَ اَلجَمِيعُ فِي اَلدَّاخِلِ نحيبهُ، وَهُوَ يَتْلُو لِرُوحِهِ اَلآيَاتِ اَلقُرآنِيَّةِ، وَالفَاتِحَةِ، وَيَقُول إِنَّا للهِ، وَإِنَّا إِلَيهِ لِرَاجِعِون...

– طَلَعَ الصّبَاحُ شاحباً بِعَيْنِي أَيُوبَا اَلَّذِي بَكَى وَالِدُهُ كَثِيراً فِي اللّيلَةِ اَلسَّابِقَة... فَفِي أَيَّامِ عُبُودِيَّتِهِ كَانَ وَجهُ سُلَيمَان هُوَ اَلأَمَلُ اَلوَحِيدُ بَعدَ اَللهِ – عَزَّ وَجَلَّ – اَلَّذِي يلوحُ فَوقَ قُيُودِ أَيُوبَا لِيَعُودَ إِلَى أَفرِيقيَا ثانِيَةً...

كَانَت اِبتِسَامَتُهُ اَلَّتِي لَطَالَمَا تَخَيلَهَا أَيوبا، وَقَد عَادَ إِلَى بُونذُو وَسَطَ اِستِقبَالِ وَالِدِهِ، وَأَفرَادِ عَائِلَتِهِ هِيَ نُورُ اَلشَّمْعَةِ اَلوَحِيدِ اَلَّذِي كَانَ يَتَمَسَّكُ أَيُّوب بِلِسَانِ لَهِيبِهَا فِي لَيَالِيهِ المُظلِمَةِ فِي مِيرِيَالَاند، وَسُجُونِ بِنسِلفَانيَا..

وَهَا هُوَ اَلآنَ يَستَقبِلُ نَبأَ تدمِيرِ بُونذُو، وَتَشرِيدِ عَائِلَاتِهَا، وَمَوتِ ملكِهَا قُبَيلَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ عَلَى وُصُولِهِ إِلَيهَا...

– لَنْ تَستَفِيدَ شَيئاً مِنْ اَلرُّجُوعِ إِلَى هُنَاك... لَن تَحصدَ إِلَّا اَلحُزنَ، وَالخَيبَةَ بُنيّ... وَأَظُنُّ أَنَّ لَدَيكَ اَلكَثِيرَ مِنهَا...

قَالَ اَلرَّجُلُ اَلأَفْرِيقِيُّ اَلْكَبِيرُ اَلَّذِي أَملى أَخبَارَهُ تِلكَ عَلَى أَيوبا اللّيلةَ اَلْمَاضِيَة، وَهُوَ يُحَاوِلُ أَن يُثنِيَ أيوبَا عَن اَلِاستِمرارِ فِي طَرِيقِهِ نَحو بُونْدُو مُجَدَّداً... فَهِيَ بِنَظَرِهِ لَيسَتْ إِلَّا رُكَامٌ، وَمَدِينَةٌ خَرَاب...

- يَستَحِيلُ أَلَّا أَزُورَهَا... سَأَكُونُ هُنَاكَ، وَلَوْ لِمَرَّةٍ أَخِيرَة... قَالَ أَيُوبَا بَعدَ أَنْ صَلَّى صَلَاةَ اَلْفَجرِ، وَبَدَأَ يَجمَعُ أَغرَاضَهُ، وَيَسْتَعِدُّ لِرِكُوبِ خِيلِهِ، وَمن معَه لِإِكمَالِ الطّرِيقِ نحو بُونْدُو اَلَّتِي فَقَدَ بِهَا كُلَّ ذِكْرَيَاتِهِ اَلْجَمِيلَةِ، وَأُنَاسِهِ اَلطَّيِّبِين...

وَبِالرُّجُوعِ إِلَى لَنْدَن... فَإِنَّ اَلْمُحَامِي الصّدِيقَ تُومَاس بلُويت أخذَ عَلَى عَاتِقِهِ جَمعَ مُذَكِّرَاتِ أَيُوبَا، وَتَنْسِيقَهَا مُستَعِيناً بشخصٍ آخَرَ يُدعَى فَرَانْسِيس مور كَي يَقُومَا مَعاً بِكِتَابةِ اَلسِّيرَةِ اَلذَّاتِيَّةِ لِأَيوبا بن سُلَيمَان جَالُو، وَاَلَّتِي نُشِرَت فِي ذَاتِ اَلسَّنَة... أي فِي عَامِ 1734 وَقَد حَمَلَتْ اِسمَ «**بَعضِ اَلْمُذَكِّرَاتِ اَلْمُتَعَلِّقَةِ بِحَياةِ أَيُّوب سلِيمَانِ**» عَالِمِ بُونْدُو اَلْأَكبر فِي أَفرِيقيَا اَلَّذِي كَانَ عَبداً لِعَائِلَةٍ أَمرِيكِيَّة...

لَقَدْ وَضَعَ بلويت، ومور كُلَّ مَا أَتَى فِي طَرِيقِهِمَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ، وَذِكْرَيَاتٍ عَاصرَاهَا، أَو رَوَاهَا لَهُم أَيوبا، وَمَنْ عَايَشَهُ فِي تِلْكَ اَلْفَتْرَةِ لِتَكُونَ تِلكَ اَلْمُذَكِّرَاتِ عُربُونَ حُبّ... وَرَمْزِ وَفَاءٍ مِنْ بلويت اَلَّذِي سَرّهُ أَن اِلتَقَى بِقَامَةٍ عَظِيمَةٍ كَقَامَةِ أيوبَا لِيَنتَهِيَ بِتِلكَ اَلْمُذَكِّرَاتِ آخِر

فَصلٍ مِن فُصُولِ قِصَّةِ اِستِعبَادِ أَيُوبَا، وَتَحريرِهِ، وَعَودَتِهِ إِلَى بِلَادِهِ أَفرِيقيَا....

لَيسَ أَصعَبُ مِنْ اَلْعَزِيمَةِ اَلَّتِي تَبرُد... ومِن الهمّةِ اَلَّتِي تَفتر...

بَعدَ أَن كَانَ السّيرُ نَحو بُونْدُو اِحتِفَالاً... تَحَوَّلَ ذَاتُ اَلْحَدَثِ إِلَى مَأتمٍ فِي قَلْبِ أَيُوبَا اَلَّذِي لَم يَكُفّ عَن رِثَاءِ وَالِدِهِ اَلمَلِكِ فِي نَفْسِه...

وَلَكِنَّ مَا يُؤلِمُهُ اَلآنَ، وَيُؤَرِّقُهُ كَانَ أَن يَعلَمَ مَا مَصِيرَ أَولَادِهِ، وَزَوجَتِيه!!... هَل هُم أَحياءُ يُرْزَقُون، أَم أَنَّهُم اِنْتَقَلُوا كَوَالِدِهِ إِلَى رحمةِ اللهّ!!...

وَمَعَ اِقْتِرَابِهِ، وَمُـرُورِهِ مِن مُدُنٍ مَأْهُولَةٍ بِالسُّكَّانِ فِي طَرِيقِ عَودتِه... كَانَ يُحَاوِلُ خِلَالَ تِلكَ اَلْأَيَّامِ اَلْقَلِيلَةِ أَن يَتَقَصَّى بَعضَ اَلْمَعلُومَاتِ اَلَّتِي تمَنَّى أَن تَكُونَ قَد وَصَلَتْ إِلَى أسمَاعِ أَبنَاءِ تِلكَ اَلْمُدُنِ عَمَّن نَجَا مِن أَهلِ بُونْدُو بُعيدَ ذَاكَ اَلاِقتِتَالِ اَلْمُرِيع...

– أَنتَ أَيُوبَا اَلَّذِي تَمَّ أَسرُهُ، وَبَيعُهُ كَعَبد؟؟... لَقَد حَاوَلَ وَالِدُكَ أن يَفتَدِيكَ بِكُلّ مَالِهِ قُبَيلَ وَفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ لَم يَستَطِع... قَالَ لَهُ أَحَدُ اَلرِّجَالِ اَلَّذِينَ يَقطنونَ مَدِينَةً قَرِيبَةً مِن بوندو، وَقَد شَارَفَ عَلَى اَلْوُصُولِ إِلَى مَدِينَتِهِ أَخِيراً، وَصارَ يَعدُّ لِذَلِكَ اَلسَّاعَاتِ اَلْأَخِيرَة...

– نَعَم... أَنَا هُوَ... قَالَ أَيُوبَا اَلَّذِي شَعَرَ بِشَيءٍ مِن اَلأَمَلِ، وَقَد وَجَدَ مَن لَدَيهِ بَعضَ اَلمعلُومَاتِ عَن بُونْدُو، وَسَاكِنِيهَا...

– لَدَيكَ عِندِي خَبَران... الأوّلُ جيّد، والثّاني رديء... بأَيِّهِمَا تَوَدّ أَن نَبْدَأَ؟؟

– بِالجيّد... قَالَ أَيُوبَا... وَقَد تَوَقَّعَ أَن يَكُونَ أَيٌّ مِن أَبنَائِهِ قَضَى أَيضاً فِي ذَلِكَ اَلاِقتِتَالِ اَلْقَبَلِيِّ...

– أَولَادُكَ جَمِيعهُمْ عَلَى قَيدِ اَلْحَيَاة... وَزَوجتُكَ أَمُّ اَلْأَولَادِ أَيْضاً...

– الْحَمدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِين... اَللَّهُمَّ لَكَ اَلْحَمدُ، وَالشُّكرُ حَتَّى تَرضَى... قَالَ أَيُّوب، وَقَد شَعَرَ بِسَعَادَةٍ لَم تُلَامِس قَلبَهُ مُذ عَلمَ بِأَمرِ مَقتَلِ وَالِدِهِ قَبلَ أَن يُكمِلَ اَلرَّجُلُ حَدِيثَه...

– أَمَّا عَن اَلْخَبَرِ اَلسَّيِّء، فَقَد بَلَغنا أَنَّ زَوْجَتَكَ اَلثَّانِيَةَ قَد تَزَوَّجَتْ بِآخَر...

– بيجوم!! قَالَ أَيوبا بِاسْتِنكَارٍ، وَقَدْ أَطرقَ فِي تُرَابِ اَلْأَرضِ أَمَامَهُ، ثُمَّ أَردَف...

لَا يَسعُنِي اَلآنَ إِلَّا أَن أَكُونَ سَعِيداً بِسَلَامَةِ أَولَادِي، وَوَالِدَتُهُم...

أُمًّا عَنهَا، فَقد اِختَارَت لِنَفسِهَا اَلطَّرِيقَ اَلَّتِي ارتأتهُ صَحِيحاً بَعدَ أَن فَقَدَتْ اَلْأَمَلَ مِن رُجُوعِنا... لَقَد سَرَّحَتْ نَفْسهَا، وَهَا نَحنُ قَدْ سَرَّحنَاهَا...

قَالَ أَيُوبَا ذلكَ، وَقَدْ شَعَرَ بِشَيءٍ مِن اَلْأَسَى عَلَى مَا فَعَلَتْهُ بيجوم، وَلَكِنَّ سَعَادَتَهُ بِسَلَامِةِ أَبنَائِهِ، وَ أَشَانتِي لَم يَكُنْ لِيُفَرِّطَ بِهَا مَهمَا كَانَتْ اَلظُّرُوفُ، وَ مهما علا حَجمُ اَلصُّعُوبَات...

- 6 -

عَلَى أَطرَافِ مَدِينَةِ بُونْدُو اَلمَنْكُوبَةِ وَقفَ أَيُوبَا اَلَّذِي وَصَلَ خَبَرُ عَودَتِهِ إِلَى سُكَّانِ تِلكَ اَلْمَدِينَةِ اَلَّذِينَ لَا يَزَالُونَ عَلَى قَيدِ اَلْحَيَاةِ، وَبِمَن فِيهِم أَشَانتِي، وَأَولَادهَا...

رَاحَ يُطلِقُ اَلأعيرةَ اَلنَّارِيَّةَ مُحتَفِياً بِعَودتِهِ بَينَمَا اِعتَلَى فَرَسَهُ اَلَّتِي رَاحَت تُحرّكُ قَوَائِمَهَا، وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تُشَارِكُهُ فَرحَتُهُ بِعَودَتِهِ إِلَى مَدِينَتِهِ اَلَّتِي أَحَبَّ، وَانتَظَر...

وَمِن بَعِيدٍ لَاحَتْ لَهُ أَشَانتِي، وَأَبنَاؤهَا اَلْأَربَعَةِ اَلَّذِينَ اِنطَلَقُوا كَمَا تَنْطَلِقُ اَلسِّهَامُ مِن أَنامِلِ رَامِيهَا بِاتِّجَاهِ وَالِدِهِم اَلَّذِي هَبَطَ عَنْ ظهرِ فَرَسِهِ، وَفَتْحِ ذِرَاعَيْهِ، وَقَدْ جثا عَلَى رُكبَتَيهِ لِيَستَقبلَ أَبْنَاءهُ اَلْأَرْبَعَةَ اَلَّذِينَ شَاءَ لَهُم اَلْقَدَرُ أَن يَشْهَدُوا تِلكَ اَللَّحظَةِ اَلتَّارِيخِيَّةِ لِعَودَةِ وَالِدِهِم اَلأُسطُورِيَّة...

وَلْتَرتَمِي فَاطِمَة بِثَوْبِهَا اَلْأَزْرَقِ اَلسَّمَاوِيِّ اَلَّذِي لطَالَمَا تَخَيّلهَا تَلبسُه... وَاَلَّتِي عَلِمَتْ أَشَانتِي كَم يُحِبُّهُ أَيوبا عَلَى صَغِيرَتِهِ لِذَلِكَ حَرَصَتْ عَلَى إِلْبَاسِهَا إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ اَلْيَوْمِ حتّى، وإن كانَ قد قَصُرَ عليها، وَلِيَتَحَوَّل اللّقاءُ إِلَى عِنَاقٍ طَوِيلٍ، وَحُلمٍ جَمِيل، وَقَد مَشَى

أيُوبَا مُحْتَضِنًا أَبْنَاءهُ، بعدَ أن قَبّل رَأْسَ زَوْجَتِهِ أَشَانتِي لِيُعِيدَ لَأسرتهِ رُوحَهَا اَلَّتِي خَنَقَتْهَا اَلحُرُوبُ، وَالرَّزَايَا... وَلِيُعِيدَ لبُونذُو أَلقَهَا، وَمكَانَتهَا اَلعريقةَ بَينَ اَلقَبَائِلِ اَلأفرِيقِيَّةِ اَلمُتَصَارِعَةِ آنَذَاك...

لَم يطل اَلزَّمَنُ حَتَّى اَستعَادَ أَيوبا مَكَانةَ قَبيلَته، وَمَكَانَتهُ فِي اَلعَائِلَةِ اَلمَالِكَةِ اَلأُرستُقرَاطِيَّة... وَلَمْ يَهدَأْ لَهُ بَالٌ حَتَّى اِستَطَاعَ أَخِيراً أَن يُسَاعِدَ صَدِيقَهُ، ومُتَرجِمهُ اَلخَاصَّ اَلَّذِي تَمَّ اِسترْقَاقُهُ، وَبَيعُهُ مَعَهُ فِي سُوقِ اَلعَبيدِ اَلأَمِينِ بوَاس...

فَنَجَحَتْ مَسَاعِيهِ فِي مَنْحِ اَلأَمِينِ حُرِّيَّتَهُ بَعدَ أَن اِشتَرَاهُ، وَأَعتَقَهُ وَاحِدٌ مِن أَفرَادِ اَلعَائِلَةِ اَلمَالِكَةِ اَلبِريطَانِيَّة... وَليَعودَ اَلأَخِيرُ بَعدَ أَن تَمَّ إِطلَاقُ سَرَاحِهِ مُسَافِراً مِن أَميركَا إِلَى لَندَن... وَمِنهَا إِلَى غَامبيَا حَيثُ وَصَلَ فِي فَبرَايِرَ مِن عَام 1738 لِيُصبح ثَالِثَ اَلمُستَعبَدِينَ اَلَّذِينَ عُرِفُوا بِعَودَتِهِم إِلَى وَطَنِهِم اَلأُمّ أَفرِيقيَا...

وَفِي أَرضِ اَلأَجدَادِ عَاشَ أَيُوبَا حَتَّى عَام 1773 أَي ما يُقَارِبُ 72 عاماً... بَعدَ أَن قَضَى سَنَوَاتِهِ تِلكَ وَرِعَاً تَقِيَّاً قَوَاماً يَحرِصُ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَتَعَالِيمِ دِينِهِ، وَيُقَدِّمُ اَلمَحَبَّةَ، وَالنُّصْحَ، وَالإِرشَادَ لِكُلِّ مِن يَحتَاجُونَ إِلَى مَا سَبَق، وَقَدْ صَارَتْ قِصَّتُهُ مِثَالاً لِلْإِنسَانِ اَلأفْرِيقِيِّ النّبِيلِ، وَلِلرَّجُلِ اَلمُتَدَيِّنِ اَلمُلتَزِمِ اَلَّذِي، وَإِنْ كَانَ قَد عَاشَ فِي كنفِ اَلعُبُودِيَّةِ لِمَرحَلَةٍ قَصِيرَةٍ مِن مَرَاحِلِ حَيَاتِهِ إِلّا أَنَّهُ أَبى إِلَّا أَنْ يَمُوتَ

حُرّاً بِلَا سِيَاطٍ، وَلَا قُيُود...

أَيُّوب بن سُلَيمَان جَالُو اَلَّذِي كَانَ، وَلَا يَزَالُ وَاحِداً مِنْ ثَلَاثَةِ عَبِيدٍ فَقَط عَادُوا إِلَى مَوطِنِهِم أَفرِيقيَا بَعد أَن أسرتهم يَدُ اَلْخِسَّةِ، وَالْغَدر... وَاقتَادَتهُم عَلَى حِينِ غِرَّةٍ إِلَى أَمَاكِنَ لَا تُشبِهُهُم فِي اَلنَّقَاءِ، وَالسَّلَام، وَالسَّكِينَة... وَلِتَهدَأ رُوحُهُ، وَيَرْتَاحَ أَدِيمُ جَسَدِهِ أَخِيراً، وَقَد اِحتَضَنَهُ تُرَابُ بُونْدُو اَلطَّيِّب... وَقَد رَقَدَ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِن رفَاتِ أَجدَادِهِ اَلأفارقةِ اَلأوَائِل، وَمِن قَبر وَالِدِهِ سُلَيمَان اَلَّذِي، وَإِن لَم يَلقهُ فِي اَلحَيَاةِ اَلمَادِّيَّةِ اَلفانِيَة، فَإِنَّهُ سِيلقَاهُ فِي دَارِ اَلآخِرَةِ إِن أَذِنَ اَللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - بِذَلِك...

اَلخَاتِمَة:

عَلَى طُرُقَاتِ اَلحَيَاةِ اَلَّتِي نُحَاوِلُ أَن نَحْيَاهَا دُونَ اِحتِكَاكَاتٍ، وَمُشَاحَنَات... تُفَاجِئُنَا اَلْأَقدَارُ بِاختِبَارَاتِهَا اَلَّتِي نَظُنُّ أَنَّنَا لَن نَستَطِيعَ مَعَهَا صَبرا... وَمِن هُنَا تَبدَأُ دِفَاعَاتُنَا اَلْمُقَاومَةَ بِمُحَاوَلَاتِ اَلِانفِلَاتِ، وَالهُرُوبِ بَعِيداً عَن اَلمَصِيرِ اَلَّذِي نَرَاهُ جَالِساً بِانتظَارِنَا... وَلَا حِيلَةَ لَنَا أَمَامَهُ، وَلَا قُوَّة...

وَمَعَ مُرُورِ سَنَوَاتِ أَعمَارِنَا اَلْقَصِيرَةِ جِدّاً... وَمَا أَن تَهَبَنَا اَلحَيَاةُ مِشطَ حِكمتهَا، وَاختِبَارَاتهَا بَعدَ أَن يَكُونَ اَلشَّعْرُ قَد تَسَاقَطَ مِن رُؤُوسِنَا... نُدرِكُ كَم كَانَ طَرِيقُنَا جَمِيلاً بِرَغمَ صُعُوبَاتِه... مُستَقِيماً بِرَغمَ اِنحِنَاءَاتِه... جَلِيّاً بِرَغمَ لَيلِهِ، وَظُلُمَاتِه... وَنَعي عِندَهَا أَنَّهَا اَلحَيَاة!!... اَلحَيَاةُ اَلَّتِي تَقَدَّمَ لَنَا اَلجَمِيلَ، وَالقَبِيحَ عَلَى حَدٍّ سَوَاء... وَعَلَينَا أَن نَقبَلَ بِهُمَا أَيضاً بِذَات السّوِيَّة، وَبِذَاتِ اَلْقَبولِ، وَالرِّضَا...

فِي قِصَّةِ بَطَلِنَا اَلَّتي سَرَدنَاهَا هاهُنَا عَرَفْنا كَيفَ أَنَّ اَلأَيَّامَ لَا تُؤْتَمَن... فأميرُ اَليَوم هُو عَبدُ اَلغَد... وَعَزِيزُ الحَاضِرِ هُو ذَلِيلُ اَلْمُستَقبَل، وَكَذَلِكَ اَلعكسُ بِالعَكسِ صحِيح...

وَلَقَد قَدَّمنَا أُيُوبَا كَمَا هُوَ... دُونَ مُبَالَغَاتٍ، أَوْ مُزيّنَات... وهُوَ

اَلغَنِيُّ عَن ذَلِكَ كُلّه بِمَا يَملِكُهُ مِن هُدُوءٍ، وَعِلمٍ، وَفَصَاحَةٍ، وَالتزام...

أيوبا اَلَّذِي يُعَدُّ نَمُوذَجاً حَيّاً رَغمَ مُرُورِ اَلسِّنِينَ عَلَى مَا تَعَرَّضَ لَهُ اَلشَّعْبُ اَلأفْرِيقِيُّ مِن بُؤْسٍ، وَأَلَمٍ، وَجَحِيمٍ، وَمُعَانَاةٍ عَلَى يَدِ بَشَرٍ مثلهم... لَا يَختَلِفُونَ عَنهُم إِلَّا بِلَونِ البَشَرَةِ اَلأَبْيَضِ اَلَّذِي لَا يَعكِسُ بَيَاضَ نُفُوسِهِم... وَلَا صَفَاءَ قُلُوبِهِم... هُوَ اَلَّذِي أَعَادَهُ إِيمَانُهُ بِرَبِّ اَلْعَالَمِينَ، وَتَمَسُّكُهُ بِمَبَادِئِ دِينِهِ اَلحَنِيفِ، وَتَعَالِيمُ عَقِيدَتِهِ اَلْمُتَسَامِحَةِ إِلَى بِلَادِهِ أَفرِيقيَا مُعَزِّزاً مُكَرَّماً، وَقَدْ اِسْتَطَاعَ اِنتِزَاعُ حُرِّيَّتِهِ، وَالْكَثِيرِ مِن اَلعُهُودِ، وَالمَوَاثِيقِ بَعدَ أَن نَالَ اَلِاحتِرَام، وَالتَّكرِيم مِنْ اَلْأَوسَاطِ اَلَّتِي مَا كَانَتْ لِتَتَصَوَّرَ أَن يَكُونَ فِي أَفرِيقْيَا رَجُلاً يَحمِلُ ذَاكَ اَلعَلَمَ، وَتِلكَ اَلمَعرِفَةَ اَلوَاسِعَة...

كَانَ عَامُ 1807 هُوَ عَامُ انتِهَاءِ زَمَنِ اَلعُبُودِيَّةِ مِن بِرِيطَانيَا اَلعُظْمَى، وَالوِلَايَاتِ اَلْمُتَّحِدَة اَللَّتَينِ قَد ألغيتا تِجَارَةَ اَلرَّقِيقِ عَبرَ مِيَاهِ اَلأطلَسِيّ... وَمَعَ حُلُولِ عَام 1833 تَمَّ تَوقِيعُ قَانُونِ إِلغَاءِ اَلرِّقِّ فِي كَنَدَا، وَجُزُرِ اَلهِندِ الغَربِيَّةِ البِرِيطَانِيَّةِ، وَرَأسِ الرّجَاء اَلصَّالِح فِي حِينِ وُقِّعَ قَانُونُ إِلغَاءِ الرِّقِّ اَلهِندِيِّ فِي عَام 1843 لينهي زَمَنَ اِنتِهَاكِ اَلْحُقُوق... وَاستِعبَادِ اَلأجسَاد، وَالْأَرواح....

مَن لَم تَستَعبِد رُوحَهُ فَسَيَظَلُّ حُرّاً، وَلَو أَتْعَبَت أَكُفَّهُ، وَأَقدَامَهُ اَلْأَصفَاد...

فِي هَذَا اَلزَّمَنِ اَلَّذِي قَد نَلمَحُ بِهِ بَقَايَا أَشبَاحِ زَمَنِ اَلْعُبُودِيَّةِ اَلْمُنصَرِمِ تَلُوحُ بَيْنَ دولةٍ، وَأُخرَى... نَتَأَلَّمُ لِحَالِ اَلبَشَرِ اَلَّذِينَ لَم يَصِلُوا بَعدُ إِلى مَرحَلَةِ اَلْيَقِينِ بِحَقِّ اَلجَمِيعِ بَأَنْ يَتَمَتَّعوا بِإِنسَانِيَّتِهِم، وأن يَعِيشُوا حَيَاتهم بِمنأىً عَن اَلتَّعْذِيبِ، وَالتَّنْكِيلِ، وَالمَوت...

وَلَكِنَّ اَلْمُؤْسِفَ فِي عَالَمِ اَلْيَومِ أَنَّ اَلعبُودِيَّةَ بَدَأَتْ تَأْخُذُ أَشْكَالاً جَدِيدَةً، وَأَسَالِيبَ مُختَلِفَةً لِتلقّي بِظِلَالِهَا عَلَى حَيواتِنَا، وَعَلَى اِخْتِلَافِ مَآكِلِنَا، وَمَشَارِبِنَا، وَ دولِنَا، وَأَلْوَانِ وُجُوهِنَا، وَأجسَادنَا..

فَفِي إِحصَائِيَّاتِ مُنَظَّمَةِ اَلعَمَلِ اَلدَّوْلِيَّةِ اَلَّتِي تتبعُ لِلأُمَمِ اَلْمُتَّحِدَةِ يَتَّضِحُ أَنَّ شَخصاً وَاحِداً مِنْ بَينِ كُلِّ 150 مِن اَلبَشَرِ يَعِيشُ فِي قَيدِ اَلعُبُودِيَّةِ اَلحَدِيثَةِ لِيَزِيد العَدَدُ اَلكُلِّيُّ عَن 50 مِليُونِ شَخصٍ، وَهَذَا مَا قَد يَفُوقُ عَدَدَ اَلعَبِيدِ اَلَّذِي قُدِّرَ ب 12 مِليُون شَخص مِمَّن تَمَّ سُوقَهُم مِن أَفرِيقيَا إِلَى اَلعَالَمِ اَلجَدِيدِ مِن دُوَلِ اَلغَرب...

وَلِيُشَكِّلَ اَلعَمَلُ القَسرِيّ ها هُنَا... أَو الدّيُون اَلَّتِي يَضطَرُّ البشَرُ لِلعَمَلِ سَاعَاتٍ طِوَالٍ كَي يَتَمَكَّنوا مِنْ تَسدِيدِهَا، أَو اَلْعُبُودِيَّةِ اَلْمُتَوَارَثَةِ كَأَن يُولدَ اَلْأَطفَالُ لِيُعَاملُوا كَمَا عومِلَ آبَائِهِم، وَأَجْدَادِهِم مِن قِبَلِهِم فِي أُسَرٍ تَتَعَامَلُ مَعَهُم كَمُمْتَلَكَاتٍ خَاصَّةٍ...

نَاهِيكُم عَن اَلزَّوَاجِ اَلْقَسرِيِّ اَلَّذِي يُفرِضُ عَلَى اِمرَأَةٍ، أَو رَجُلٍ دُونَ إِرَادَةِ أَحَدِهِمَا... لننتَهِيَ بِالحَدِيثِ عَن اَلعُمَّالِ، وَالخَدَمِ اَلَّذِينَ

يُعَامَلُونَ أَسوَأَ المُعَامَلَاتِ، وأَنكَرَهَا فِي زَمَنِنَا الحَالِيِّ، وَذَاكَ خَلفَ الجُدرَانِ العَالِيَةِ، وَالأبوَابِ المُقفَلَةِ لِيُمَارسَ عَلَيهِم كُلُّ أَنوَاعِ الأَذَى الجَسَدِيِّ، وَالنَّفسِيِّ عَلَى حَدٍّ سَوَاء دُونَ أَن يَستَطِيعُوا رَدَّ ذَلِكَ الأذى عَن أَنفُسِهِم، وَمِن حَولِهِم....

وَلِيَعُودَ الآن للوَاجِهةِ أَمرُ الإتجارِ بِالبَشَرِ، وَقَد بُلِيَتْ الأَرضُ بِالكَثِيرِ مِن الحُرُوبِ، والكَوَارِثِ الَّتِي مِن شَأْنِهَا أَن تَلعَبَ دَوراً هَامّاً في ذلك، وَأن تُعَزِّزَ تِجَارَةَ النَّخَّاسِينَ الَّذِينَ لَا يُفَرِّقُونَ بَين شَيخٍ، وَطِفلٍ، وَامرَأَة...

يَقُولُ مُصطَفَى كَامِل إِنَّ سَلَاسِلَ العُبُودِيَّةِ هِيَ فِي الحَقِيقَةِ سَلَاسِلٌ سَوَاءٌ كَانَتْ مِن ذَهَبٍ، أَو حَدِيد...

أَخِيراً أَيُّهَا الأَعِـزَّاء... يَا مِنْ شَارَكتُمُونِي قِصَّةَ بَطَلٍ خَالِدٍ مِن أَبطَالِ الإِسلَام... وَحِكَايَةَ رَجُلٍ بِكُلِّ مَا تَحمِلُهُ الرّجُولَة مِن مُقَوِّمَاتٍ، وَصِفَاتٍ، وَامتِيَازَات...

هِيَ دَعوَةٌ مِنِّي لِنَنشُرَ المَحَبَّةَ، وَالرِّفقَ فِيمَا بَينَنَا... لِنُسَاعِد بَعضُنَا البَعض... لِنُطَبِّب الجَرَاحَ، وَنَعتَادَ الصَّفحَ، وَالسَّمَاح... لِنَرجِع إِلَى أَعمَاقِنَا... إِلَى رُوحِنَا الخَالِدَة... إِلَى قَبسِنَا الدَّاخِلِيَّ السّرمديّ... وَلننفض عَنَّا غُبَارَ الحِقدِ، وَالتَّمييزِ، وَالكَرَاهِيَة...

عَسَى أَن تَرقّ قُلُوبُنَا، وَأن يَصفُو كدرُ نُفُوسِنَا... وأن نَرجِعَ إِلَى

اَلْإِنسَانِيَّةِ اَلَّتِي نَسِينَا أَحيَاناً، وبِنسَبٍ مُتَفَاوِتَةً فِيمَا بَيننَا طَبِيعَةَ مُمَيِّزَاتِهَا، وَجَمَالَ سِمَاتِهَا...

رَاجِياً اَللهَّ - عَزَّ وَجَلَّ - أَن يُجَنِّبَنِي، وَإِيَّاكُم طَبَائِعَ اَلِاستِبدَادِ... وقيودَ اَلِاستِعبَادِ بِأَشكَالِهِ كَافَّة... وَأَن نحيا اَلْحَيَاةَ اَلَّتِي أَرَدنَاهَا مُذ أُبصرنَا نُورَ اَلْحَيَاةِ اَلأَوَّلِ... وَأَن تَلينَ قُلُوبُ اَلْمُستَكبِرِينَ مِمَّن اِمتَهَنُوا النّخَاسَةَ عَلَى أَنوَاعِهَا، وَأَشكَالِهَا...

وَأَن يُعِيدَهُم الحَقُّ الوَضَّاحُ إِلَى اللّينِ اَلْمُتبَقِّي فِي قُلُوبِهِم... وَالنُّورِ اَلْخَافِتِ فِي أَعمَاقِ نُفُوسِهِم... عَلَّهُم يَنجُونَ مِمّا اقترفوا، وَتَرجِعُ بِهِم اَلْخُطَى إِلَى الطّرِيقِ اَلقَوِيم... فَيَتُوبُوا عَنْ أَفعَالِهِم تَوبَةً نَصُوحة... وَتطهرُ أَعمَالَهُم بِمَا يَحمِلُهُ اَلدَّمعُ مِن مُلُوحَة... وَعَلَى ذَاكَ تَمَّتْ رِوَايتي هَذِهِ بِحَولٍ مِن اَللهَّ رَبَّ اَلْعَالَمِين... فَالحَمْدُ للهَّ عَدَّ اَلْحَصَا، وَالتُّرَابِ، وَالْأَيَّامِ، وَالسِّنِين، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُم، وَرَحْمَةُ اَللهَّ، وَبَرَكَاتِه.

«تمت بعون الله»